



**إتحاف المؤمنين
بتفسير
فاتحة الكتاب وآية الكرسي وسورة يس**



**بقلم
محمد سليمان سليمان
واعظ القاهرة**

**حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى - ١٣٧٣**



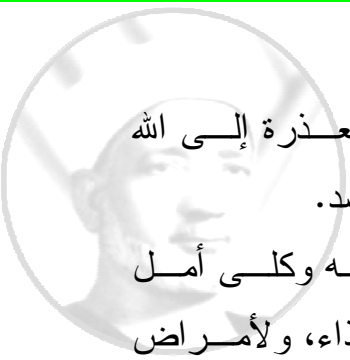
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذي نزل الكتاب الكريم تبياناً لكل شئى وهدى ورحمة للمؤمنين، وجعله منهاجاً قويمًا، وصراطاً مستقيماً، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه. والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبد الله ورسوله، المتحدث عن الله، والناطق بوحى الله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحابته الذين جعلوا القرآن قبلة قلوبهم، والمرجع الأول فى جميع شئونهم فرضي الله عنهم، وأنزلهم منازل الصدق فى جنات النعيم.

أما بعد:

فإن كتاب الله الكريم، هو النور والضياء، وفى آياته يكمن الهدى والشفاء، ما تلاه مؤمن بتدبر ويقظة إلا استنار قلبه وأشرق وجدانه وإزداده إيمانه وقوي يقينه، وطهرت سريرته، وكرمت علانيته، وعلت عند الله منزلته، وتولاه الله فى دنياه بالرعاية والتأييد.

وهذه لمعات من أنواره، ونفحات من أسرارها، تمثلت فى تفسير فاتحته، وسيدة آية، ثم السورة التي هي بمنزلة القلب منه. تفسيراً توخيت فيه إيضاح المباني، وتبسيط المعاني، واستجلاء مواطن الهداية، وكشف مكامن العبرة، مع الاتجاه به أيضاً إتجاه تطبيقياً عملياً، عن طريق استعراض ما درج عليه المسلمون من تقاليد وعادات، ثم الموازنة بينها وبين ما تهدف إليه الآيات، من مبادئ سامية، وتوجيهات كريمة، جَنَّبًا من الإعراض عنها تفهقراً وانهيئاً فى جميع مقومات الحياة الصحيحة. كل ذلك كان فى حدود طاقتي، ونطاق إمكانياتي، فإن يكن فيما بذل من مجهود توفيق وسداد فالحمد لله، والفضل كل الفضل لله، وأضرع إليه سبحانه أن لا يحرمني من مثوبة ذلك



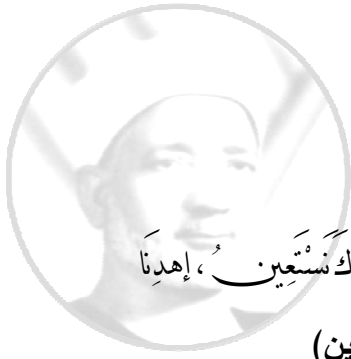
وأجره، وإن تكن الأخرى وتسرب إليه القصور أو الخطأ. فالمعذرة إلى الله
وهو الغفور الرحيم، وحسبي ما أشعر به من حسن النية وسلامة القصد.
وإنني إذ أقدم هذا السفر إلى إخواني المسلمين، إنما أقدمه وكلّ أمل
ورجاء في الله أن ينفعهم بما فيه، وأن يجعل منه للأرواح غذاء، ولأمراض
القلوب شفاء إنه سميع قريب مجيب الدعوات.

أبو الطيّب

محمد سليمان سليمان

رجب سنة ١٣٧٣

مارس سنة ١٩٥٤



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

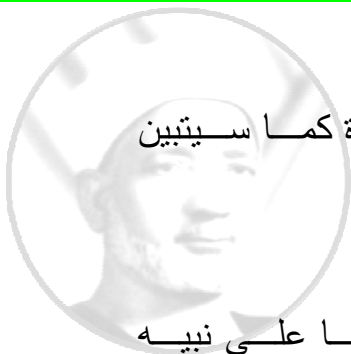
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. (أمين)

تمهيد

سورة الفاتحة من أكثر سور القرآن ترديدا بألسنة المؤمنين، إذ يرددها أقلهم حظا من الاتصال بدعامة الإسلام الأولى أربعاً وعشرين مرة في اليوم، وغير خاف أن أكثر هؤلاء لا يكاد يعلم عن الفاتحة وهو يتلوها في صلاته أو خارجها أكثر من صور الحروف والكلمات. يتحرك بها لسانه ثم تلفظها شفتاه. أما ما وراء ذلك من معانٍ علوية كريمة تضمنتها كلماتها، وتوجيهات إلهية حكيمية انطوت عليها آياتها، فإنه لا يكاد يلم به إلا القليل وحتى القليل تصرفه مشاغله، وتغلبه همومه أو أغراضه، على ما ينبغي أن يكون عليه وهو بين يدي ربه، ومن ثم يكون حظه منها وحظ الجاهلين سواء، لا يعدو مثوبة تحريك اللسان بكلم القرآن. وإنه لحظ ضئيل جدا لا ينبغي لمؤمن أن يرضى به لنفسه.

لذلك نرجو (وهذه آيات الفاتحة الكريمة ستبين معانيها، وتُجلى أهدافها وتتكشف مواطن الهداية والرشد فيها) أن يحرص كل مسلم على أن يغذى بذلك وجدانه، ويملاً به نفسه، ويسجله تسجيلا عميقا الجذور على صفحات قلبه، وأن يجهد ما وسعه الجهد في أن يجعل الاتصال بين لسانه ووجدانه حقيقة واقعة، كلما ناجى ربه بالفاتحة أو بغيرها من الكتاب الكريم، وبذلك يدرك الفضل عظيما، وينال الثواب الموعود به كاملا وافيا، ولا تنقص الغفلة من قيمته ولا تقلل المشاغل من مرات مضاغفاته.

وقد سميت هذه السورة بالفاتحة، أو فاتحة الكتاب، لافتتاح القرآن الكريم بها، إذ تفتح بها قراءته لفظا، وتفتح بها كتابته في المصحف خطا. ولها



أسماء غير هذا الاسم لكل منها معناها الذي تحققت به السورة كما سيتبين فيما بعد.

فمن أسمائها:

(١) السبع المثاني: لأنها تنثى في الصلاة وقد امتن الله تعالى بها على نبيه في قوله سبحانه «وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ».

(٢) أم القرآن: وأم الكتاب، والقرآن العظيم. وفي حديث الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني" وإنما سميت بذلك لأنها تضمنت جميع علوم القرآن، وانطوت على جميع مقاصده إجمالاً. ذلك أنها تضمنت التوحيد والعبادة والوعظ والتذكير. فاشتملت على الثناء على الله عز وجل بأوصاف الجمال والكمال، وتحدثت عن العبادة والإخلاص فيها، وإفراده سبحانه بالعبودية وحده والإقرار بالعجز عن القيام بشئ منها وإتمامه إلا بمعونته سبحانه، ثم الابتغال إليه جل جلاله بطلب الهداية إلى الصراط المستقيم، والصرف عن نهج الهالكين الضالين. ولا يكاد القرآن يخرج عما ذكر.

(٣) الرقية: الحديث عن أبي سعيد الخدري الذي خرجه الأئمة وفيه يقول الرسول ﷺ للرجل الذي رقى بها زعيم القبيلة اللديغ فشفي "وما أدراك أنها رقية" فقال يا رسول الله: شئ ألقى في روعي.

(٤) الشفاء: لحديث أبي سعيد أيضاً الذي رواه الدرامي مرفوعاً "فاتحة الكتاب شفاء من كل سم" وفي المأثور عن ابن عباس "فإذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة".

وثمة أسماء غير ما ذكر اكتفينا به عنها. ويقول العلماء أن كثرة الأسماء تنى بمزيد شرف المسمى.

وغير خاف أن حديث أبي سعيد الذي رواه عنه الدرامي المذكور آنفاً وما أشبهه من الأحاديث التي تتصل بموضوع الرقى، كثيراً ما يجد الشك

فيها طريقه معبدا إلى نفوس أولئكم الذين يحاولون الاستفادة منها فيما ينزل بهم من أمراض، ومن ثم لا يجدون صدى لعملهم ولا أثرا لرقاهم. وهذا مرده إلى سوء الفهم وأخذ الأحاديث على ظواهرها من غير تنبه إلى ما يحتف بها من قيود وشروط عليها! وعليها وحدها تتوقف الاستجابة وبلوغ الهدف.

إن العبرة في هذا الباب بثبوت الأحاديث من طريقها المقبول. فمتى ما ثبتت فهي حق، وما تضمنته حق وإن كان ثمة تخلف للثمرة المرجوة، والنتيجة المرتقبة؛ فإن سببه الأول والأخير حالة التالي الروحية من ناحية صدق التجاء، وقوة إخلاصه؛ وجودا وعدما، ثم نفسية المتلو عليه. فتلاوة من قلب غافل ملوث أو شاك متردد لا تفيد لأن الالتجاء إلى الله حينئذ لم يأخذ صورته الكاملة الكفيلة بالاستجابة ونزول الرحمة وتلاوة من قلب مخلص مؤمن لنفسه جاحدة مستخفة بما قال رسول الله ﷺ لا تجدي أيضا، ويكون مثل ذلك كمثّل مطر عذب زلال أصاب أرضا سبخة، فهل يكسبها خصبا أو إنتاجا؟ من غير شك: لا.

ومن حديثه ﷺ عن السورة الكريمة ما بُين فيه مكانتها بين سور القرآن، وما لتاليها عند الله من منزلة فمن ذلك:

(١) ما رواه الترمذي عن أبي ابن كعب عنه ﷺ في بيان فضل الفاتحة: "والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلاً وإنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته".

(٢) ما رواه البخاري وغيره عن أبي سعيد بن المعلى قال "كنت أصلي بالمسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه. ثم أتيت فقلت: يا رسول الله إني كنت أصلي فقال: ألم يقل الله تعالى ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾. ثم قال: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد،

فأخذ بيدي فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن، قال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته".

(٣) وكذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال سمعت الرسول ﷺ يقول: قال

الله تعالى "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل وفي رواية: فنصفها لي ونصفها لعبدي فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

العالمين﴾، قال الله: حمدي عبدي، فإذا قال: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قال: أثني

على عبدي، فإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾، قال: مجدي عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ

وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل، فإذا

قال: ﴿هُدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

الضَّالِّينَ﴾، قال: هذا لعبدي ولعبي ما سأل" ومعنى بيني وبين عبدي

أن الجملة الأولى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ، اعتراف بالعبودية وإقرار بالربوبية فهي

خاصة بالله سبحانه وتعالى. أما الثانية فهي استمداد للمعونة الإلهية، ولياذ

بالحضرة العلية، مع التبرؤ من الاتجاه إلى سواه. وبدهي أن ثمرة ذلك عائدة على العبد.

وإذ كان المنوه عنه في الحديث الأخير مما تهفو إليه أفئدة المتقين،

وكان من المستبعد حقاً أن يمنحه الله لأولئك الذين يققون بين يديه بأشباحهم ويرددون القرآن كما يردد البيغاء ما يسمع من غير أن يفقه له

معنى. ذلك لأنه سبحانه أجل من أن يُقبل بوجهه على من انصرف عنه.

لذلك كان من الحتم المتعين على كل منا أن يستجمع بين يدي الله

خواطره، ويستبعد شواغله، ويقبل بكليته على ربه، وبذلك يكون أهلاً

لإحسانه ورحمته.

الاستعاذة والبسملة

يقدم التالي للقرآن، فاتحة أو غيرها بين يدي تلاوته الاستعاذة أولاً، ثم البسملة ثانياً. ولكل منهما حكمها الخاص، ودليلها من كتاب الله تعالى، وحديث الرسول ﷺ، كما أن لكل منهما مواطنها ومناسباتها الخاصة غير التلاوة وهي التي جاءت النصوص الشرعية مرغبة وداعية إلى الإتيان بها فيها.

فأما تقديم الاستعاذة على التلاوة ففيه وردت الآية الكريمة: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

والمعنى: إذا أردت أن تقرأ القرآن فاستعذ بالله. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ...﴾ الآية. أى إذا أردتم القيام إلى الصلاة، ولئن كان ظاهر الآية يفيد أن التعوذ يكون بعد القراءة، إلا أن فعل الرسول ﷺ وتعوذه في الصلاة قبل القراءة كشف الأمر وأوضحه وأزال ما فيه من احتمال.

والأمر الوارد في الآية الكريمة محمول على الندب بالنسبة إلى التلاوة خارج الصلاة عند جمهور العلماء. أما في الصلاة فعند مالك يكره التعوذ في الفريضة سرا أو جهرا ويجوز في صلاة النافلة سرا لا جهرا، وذلك منه تطبيقاً لقاعدة مذهبه في تقديم عمل أهل المدينة. وعند أبى حنيفة وأحمد تسنن في الركعة الأولى من الصلاة، وعند الشافعي تسنن في كل ركعة.

وصيغة الاستعاذة "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" كما هو نص الآية الكريمة. وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. ولعله رضي الله عنه أراد أن يجمع بين الآيتين، ويمثّل التوجيهين، وهما آية النحل التي معنا، وآية فصلت ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

العَلِيمُ) ولكن رسول الله ﷺ رده عن ذلك كما في تفسير القرطبي عنه قال: قلت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال لي النبي ﷺ: يا ابن أم عبد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأني جبريل عن اللوح عن القلم.

وحكمة الاستعاذة قبل القراءة: أن الله تعالى أنزل القرآن شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة، وإنه لن يكون كذلك بالنسبة إلى التالي إلا إذا استجمع عند التلاوة شوارد أفكاره. وتوجه إلى القرآن الكريم بكلية يتفهم معانيه، ويتدبر أهدافه ومرامي، وينظر أين هو مما يناجى به ربه؟ وكيف هو عند أوامره ونواهيه؟ وما كان ذلك بالذي يتأتى للتالي بينما عدوه الشيطان يقف له بالمرصاد، يجاذب خواطره، محاولاً جهده أن يصرفه عن هذا الموقف الكريم، ويزحزحه عن تلك المنزلة السامية التي تصل حبله بربه لذلك وجه إلى أن يلجأ إلى ربه قبل الشروع في التلاوة مستجيراً به من عدوه، مستمداً منه العون ليقوى على قهره والتغلب عليه، وليكون في مناجاته لربه على الوضع الذي يحبه سبحانه ويرضاه ويتقبله من عباده أجمعين.

وكما يطلب التعوذ عند القراءة كذلك يطلب في مواطن أخرى منها:

(١) عند فورة الغضب واهتياج المشاعر. وفي ذلك يقول الحق سبحانه بعد الأمر بالعفو والإعراض عن الجاهلين ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ - أي بحيث يحاول أن يخرج بك عن أمر الله وينزع بك إلى الفورة والغضب - ﴿اسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وفي حديث سليمان بن صرد عند الشيخين قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه، وتتفخ أوداجه، فنظر إليه النبي ﷺ فقال: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقام رجل سمع النبي ﷺ فقال: هل تدري ما قال رسول الله ﷺ آنفاً.

قال: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقال له الرجل: أمجنونا تراني! وهى كلمة تحمل معنى الاستتكار لهذا التوجيه.

ولست أرى برهاناً أدل على مبلغ عدوان الغضب على العقل، وسيطرته على نوازع الخير في النفس من هذه الحادثة. ذلك أن وقوف مسلم من نبيه موقفا كهذا يأبى فيه الاستجابة إليه، ويتعالى على توجيهه إياه إلى ما يصلحه، ليس من الظواهر العادية لا سيما في ذلك الوقت الذي كان فيه المسلمون أحرص على الإشارة من الرسول فضلا عن العبارة، ومن المستبعد أن يقف مسلم هذا الموقف وهو في وضع طبيعي. ومن ثم فلا تفسير لهذه الظاهرة إلا أن الغضب قد شل تفكير الرجل، وعطل مداركه. وصيره في حالة لا يعي فيها تماما ما يقول ولا ما يفعل.

(٢) لدفع وساوس الشيطان أثناء العبادة صلاة أو قراءة، لما رواه الإمام مسلم عن عثمان بن أبي العاص الثقفي، أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي، وقراءتي يلبسها على- أي يشككني فيها - فقال له رسول الله ﷺ "ذاك شيطان يقال له خنزب فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتقل عن يسارك ثلاثا" قال: ففعلت فأذهب به الله عني.

(٣) عند المبيت في الفلوات والمفاوز تأمينا للمنزل ودفعاً للضرر. لما روي أبو داود عن ابن عمر رضيهما الله ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل عليه الليل قال: "يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما خلق فيك، ومن شر ما يدب عليك، ومن أسد وأسود ومن الحية والعقرب، ومن ساكني البلد ووالد وما ولد" وروت خولة بنت حكيم قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من نزل منزلا ثم قال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل" أخرجه في الموطأ ومسلم.

(٤) عند مهاجمة الأمراض لحديث عثمان بن أبي العاص عند مسلم وغيره قال: أتيت النبي ﷺ وبني وجع قد كاد يهلكني فقال "امسحه بيمينك سبع مرات وقل: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد. قال: ففعلت ذلك فأذهب الله ما كان بي، فلم أزل آمر به أهلي وغيرهم.

(٥) عند الفرع في النوم. لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ كان يعلمهم من الفرع كلمات: "أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين أن يحضرون". وكان ابن عمر رضي الله عنهما يعلمهن من عقل من بنيه، ومن لم يعقل كتبه فأعلقه عليه. وفي فعله هذا سند ودليل لجواز تعليق التيممة على الصغار وغيرهم مسطوراً فيها القرآن أو غيره من الدعوات.

والاستعاذة كما هو مقتضى معناها نوع من الدعاء يشترط فيها ما يشترط فيه من اليقظة وحضور القلب وكمال التوجه إلى الله تعالى. ولذلك كان مجرد تحريك اللسان بألفاظ الاستعاذة مع الغفلة والانصراف عن الله، عملاً لا ثمرة له، ولا جدوى منه، وإنه لسر ما نراه من تخلف الثمرة المرجوة بالنسبة إلى أكثر المستعيزين. وفي السنة: "إن الله لا يقبل الدعاء من قلب ساه لاه".

ولئن كانت الاستعاذة بصيغتها المذكورة أنفاً خارجة عن نطاق الكتاب الكريم، وليست آية منه بإجماع الأئمة والعلماء فإن البسملة ليست كذلك إذ أن فيها تفضيلاً نلخصه فيما يلي:

(١) لا خلاف بين العلماء في أن البسملة التي هي جزء من آية النمل، والتي اشتمل عليها كتاب سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام إلى السيدة بلقيس ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. لا خلاف بينهم في أنها من الكتاب الكريم.

(٢) وإنما الخلاف في تلك إلى افتتحت بها السور، وفصلت ما بينها والاتجاهات فيها ثلاثة كما ذكر ذلك العلامة أبو السعود في تفسيره. **أولها:** إنها ليست من القرآن أصلاً. وهو قول ابن مسعود، ومذهب مالك رضي الله عنهما. وهو المشهور من مذهب قدماء الحنفية، وعليه قراءة المدينة والبصرة والشام وفقهاؤها. **وثانيها:** أنها آية فذة من القرآن أنزلت للفصل والتبرك بها. وهو الصحيح من مذهب الحنفية. **وثالثها:** أنها آية تامة من كل سورة صدرت بها. وهو قول ابن عباس. وقد نسب إلى عمر أيضاً رضي الله عنهم، وهو أيضاً مذهب سعيد بن جبير والزهري وعطاء وعبد الله بن المبارك وعليه قراءة مكة والكوفة وفقهاؤهما، وهو القول الجديد للشافعي رحمه الله. انتهى كلامه.

ولكل من هؤلاء الأ خيار دليله من هدي الرسول الذي ترجح عنده وارتكز قوله عليه. والمسألة على كل اجتهادية والأمر فيها موسع. ويقول ابن العربي: ويكفيك - أي دليل على - أنها ليست من القرآن اختلاف الناس فيها. والقرآن لا يختلف الناس فيه. ١. هـ. وينبغي أن لا ننسى أن الخلاف في غير آية النمل، وأما هي فهي من القرآن قطعاً كما ذكرنا آنفاً.

ومعنى الكلمة الشريفة: بسم الله. يقول علماء العربية: إن الباء في بسم الله متعلقة بمضمر يحدده المقام وتعينه القرينة، ويوضحه الفعل الذي صدر بها. ومعنى هذه الباء الاستعانة أو الملابس تبركا فمثلاً: التالي الذي يبدأ تلاوته بها يكون المعنى بالنسبة إليه، بسم الله أتلو أو أقرأ. والآكل أو الشارب الذي يذكرها يكون المعنى بالنسبة إليه: بسم الله آكل أو أشرب. وهكذا يقدر المحذوف متفقاً مع العمل الذي يباشره المستفتح بها. والإسم الشريف (الله) هو أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها حتى قال بعض العلماء أنه اسم الله الأعظم، ولم يتسم به غيره سبحانه ولذلك لم يُثنَّ ولم يُجمع. ومعناه: الموجود الحق

الجامع لصفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي. لا إله إلا هو سبحانه. وقيل معناه: الذي يستحق أن يُعبد.

أما الاسمان الشريفان (الرحمن الرحيم) فالجمهور على أنهما مشتقان من الرحمة وإذ كانت الرحمة بمعناها اللغوي (الذي هو رقة في القلب تبعث على التفضل والإحسان) مستحيلة على الله تعالى لاقتضاء ذلك الجارحة. ولذلك كان معناها بالنسبة إليه سبحانه: التفضل والإحسان والمنح والعطاء. وهى الآثار المترتبة على المعنى اللغوي، وهكذا يقال في كل ما نعت به الله سبحانه وكان معناه اللغوي غير متفق مع ما يجب لله من تنزيه عن صفات الحوادث، فيحمل حينئذ على آثاره.

والرحمن عند جمهور العلماء هو المنعم بجلائل النعم العامة الشاملة التي تشمل المؤمن والكافر والطائع والعاصي كالخلق والرزق. والرحيم: هو المنعم بدقائقها وهى الخاصة بالمقربين من عباده. قال العرزمي عبد الملك بن أبى سليمان: الرحمن، لجميع خلقه في الأمطار ونعم الحواس والنعم العامة، والرحيم بالمؤمنين في الهداية لهم، واللفظ بهم. وقال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله، والرحيم إنما هو في جهة المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ وقوله: يختص به الله تنبيهه إلى ما ذهب إليه أكثر العلماء من أن اسم الرحمن مختص بالله تعالى لا يجوز أن يسمى به غيره.

وقد افتتح الله تعالى كتابه الكريم بالبسملة تعليما لنا وإرشادا، ودعوة إلى التأسي به سبحانه وتعالى في ذلك. ومن ثم ينبغي لنا أن نحرص على ذلك في كل أمر من أمورنا، وشأن من شئونا له بال، لا سيما والسنة المحمدية حافلة بالحث على ذلك قولاً وفعلًا إجمالاً وتفصيلاً. وقد كان رسول الله ﷺ يفتتح ويبتدئ بها خطبه وكتبه وأعماله. وقد روى الشعبي والأعمش أن رسول الله ﷺ كان يكتب "باسمك اللهم" حتى أمر أن يكتب: "بسم الله". فلما

نزلت ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كتبها. وفي مصنف أبي داود: قال الشعبي وأبو مالك وقتادة وثابت بن عمار: أن النبي ﷺ لم يكتب "بسم الله الرحمن الرحيم" حتى نزلت سورة النمل.

ومن هديه ﷺ في الحث على الإتيان بالبسملة وبيان فائدة ذلك للمكلف قوله:

١- "أغلق بابك واذكر اسم الله وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وخمر إناءك - أي غطه - واذكر اسم الله، واوك سقاءك - أي شد على رأس القربة بالوكاء - واذكر اسم الله".

٢- "لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً".

٣- "يا غلام سم الله وكل بيمينك" قال ذلك ﷺ لعمر بن أبي سلمة. كما قال "إن الشيطان ليستحل الطعام إلا أن يذكر اسم الله عليه" أي فلا يكون له عليه سبيل.

٤- "من لم يذبح فليذبح باسم الله" قال ﷺ ذلك لأصحابه يوم الأضحى، وفي القرآن: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾.

٥- "ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحد الكنيف أن يقول بسم الله".

٦- عن عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله ﷺ إذا مس طهوره سمي الله تعالى ثم يفرغ الماء على يديه".

٧- إذا عثرت الدابة فلا تقل تعس الشيطان فإنه يتعاضم حتى يصير مثل البيت ويقول: بقوتي صنعته، ولكن قل بسم الله الرحمن الرحيم، فإنه يتصاغر حتى يصير مثل الذباب".

مفردات السورة

﴿الْحَمْدُ﴾: نقيض الذم. وهو الثناء على الممدوح بصفاته الطيبة ولو لم يكن ثمة إحسان سابق. وبهذا القيد الأخير وهو عدم اشتراط سبق الإحسان خالف الشكر. لأن الشكر: الثناء على المشكور بما أولى من الإحسان وقدم من الفضل. ويذكر الحمد بمعنى الرضا. يقال: بلوته فحمدته أي رضيته. ومنه الآية الكريمة ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

والحمد في الآية الكريمة. محمول على المعنى الأول، وهو الثناء على الله تعالى بنعوت الكمال والجلال. والألف واللام في الكلمة لاستغراق الجنس من المحامد، إذ هو سبحانه يستحق الحمد أجمعه. إذ له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وقيل إن الألف واللام للعهد، والمعهود هو حمد الله لنفسه. وأصحاب هذا الرأي يقولون:

إن الله تعالى لما علم عجز خلقه عن كنه حمده حمد نفسه بنفسه ثم وضعه لعباده يحمونه به. ويعزز هذا الرأي ويسنده أن سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه وهو أعلم الخلق بالله، وأصفاهم نفساً، وأطهرهم قلباً، وأخلصهم وجداناً، يظهر هذا العجز ويعلنه بقوله: "سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك".

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لكلمة الرب عدة إطلاقات. فتطلق ويراد منها السيد ومنه ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ كما يراد منها المالك ومنه قول صفوان بن أمية: "لأن يربني رجل من قریش خير من أن يربني رجل من هوازن" يقصد: لأن يملكني محمد وهو قرشي خير من أن يملكني رجل من هوازن. كذلك تطلق ويراد منها: المعبود، كقول الشاعر: أرب يبول الثعلبان برأسه؟ وتطلق أيضاً ويراد منها: المدبر المصلح. وإذ كانت هذه المعاني كلها ثابتة لذات الله تعالى فلا علينا أن نحمل الكلمة على أحدها أو عليها كلها، وإن كان المعنى الأخير هو

الألصق بالسياق كما سيتبين فيما بعد. وبدهي أن الله سبحانه مالك العالمين وسيدهم ومدبر شئونهم ومصلح أحوالهم والمفيض عليهم جوده وإحسانه. ومن ثم كان وحده الجدير والخلق بأن تعنو له الوجوه. والرب من أسمائه تعالى وما دام معرفاً بالألف واللام فلا يجوز إطلاقه على غيره سبحانه أما إذا نكر وحذفت منه الألف واللام فلا مانع من إطلاقه على المخلوق بشرط الإضافة كقولهم: هذا رب الدار ورب الدابة.

والعالمون: جمع عالم وهو ما سوى الله تعالى من الموجودات، كالإنس والجن والملائكة والشياطين والدواب والهوام وغير ذلك. وما أكثر ما خلق الله مما لم نحط به خبراً. وهذا القول أصح الأقوال، ودليله من القرآن قوله سبحانه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟ قال - أي موسى عليه السلام: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّكُمْ لُمُوقِنِينَ﴾ وإنما سمي بهذا الاسم لأنه علامة على وجود خالقه وألوهيته ووحدانيته. علامة أرشدت الحائر، وثبتت المترددين.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ المالك: المتصرف بالأمر والنهي. وقرئ ملك بكسر اللام من غير مد. وهما قراءتان سبعيتان، وقرئ بغير ذلك، واختلف أيهما أبلغ، فقيل: ملك أبلغ إذ كل ملك مالك، وليس كل مالك ملك، ولأن أمر الملك نافذ على المالك في ملكه حتى لا يتصرف إلا عن تدبير الملك. قال أبو عبيدة والمبرد وارتضاه كثيرون.

واليوم: عبارة عن الوقت من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وقد استعير هنا للوقت الذي يقع بين مبتدأ القيامة إلى وقت استقرار أهل الدارين فيهما، والدين: الجزاء على الأعمال والحساب عليها ودليله قوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ

اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ وقوله ﷺ: "الكيس من دان نفسه" أي حاسبها.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ العبادة: الطاعة والتذلل والخضوع. يقال: طريق معبد إذا كان مذللاً للسالكين. والاستعانة: طلب العون والمساعدة. وتقديم المعمول وهو إياك، لمزيد الاهتمام والتخصيص: أي لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الهداية: تطلق بمعنى الدلالة والإرشاد فقط. ومنه الآيات ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ كما تطلق بمعنى الميل بالشيء إلى الشيء، أو بعبارة أوضح: شرح الصدر للخير والتوفيق إليه. ومنه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وعلى المعنى الثاني حملت الآية.

والصراط: أصله الطريق الحسي. والمراد منه هنا، على طريق التعبير المجازي: دين الإسلام، وما جاء به محمد ﷺ من الشرائع والأحكام. ووصف بالاستقامة على معنى: أنه لا اعوجاج فيه ولا انحراف. إذ كله محكم سديد فيه الخير والسعادة، والصلاح لمتبعيه في الدنيا والآخرة.

﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾: اختلف في تحديد المراد منهم. فروى عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنهم قوم موسى وعيسى الذين لم يغيروا ولم يبدلوا وماتوا على هدى ورشد. وقال بعضهم: هم أصحاب محمد ﷺ وآل بيته، والجمهور على أن المراد بهم، من ذكر الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمِ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾: الغضب أصله فوران دم القلب لإرادة الانتقام ونظرا لاستحالة الجارحة على الله سبحانه يكون معناها هنا إما البطش والانتقام بالفعل أو إرادة ذلك. وهو على الاحتمال الأول يكون صفة فعل، وعلى الثاني

يكون صفة ذات. والمغضوب عليهم هم اليهود، لقول الله تعالى ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾.

﴿وَالضَّالِّينَ﴾: الضلالة: الذهاب عن سنن القصد وطريق الحق. والمراد من هؤلاء الأخيرين النصارى، ودليله من القرآن ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وفي حديث الترمذي عن عدى بن حاتم عن رسول الله ﷺ: "اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال".

(أمين) القول الصحيح أنها اسم فعل معناها: اسمع واستجب. وهى ليست من الفاتحة بل ولا من القرآن، غاية ما هنا لك أنه يسن الإتيان بها عقب الفاتحة وعقب كل دعاء على أن تكون بعد سكتة قصيرة ليتميز بذلك القرآن عن غيره.

وفي حديث أبى هريرة عند الشيخين أن رسول الله ﷺ قال: "إذا أمَّن الإمام فأمنوا فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه"، وفي رواية للبخاري: "إن الإمام إذا قرأ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقولوا: آمين فإن الملائكة تقول آمين، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه". والموافقة تكون في وقت التأمين بأن يؤمن مع تأمينهم. وأمين ينطق بها ممدودة ومقصورة: آمين كقابيل وأمين كيمين.

المعنى: اشتملت أي هذه السورة الكريمة على طائفة من الحقائق الدينية الهامة التي يجني التالي للسورة من التتبع إليها، وأخذ النفس بمقتضاها متانة وقوة في علاقته بربه، وصلته بخالقه جل جلاله.

ففي كلمة (الحمد): المعرفة بالألف واللام والمسندة إلى علم الذات الأقدس (الله) تكمن الحقيقة الأولى وتتقرر. بيان ذلك أن ذات الحق سبحانه أكمل الذوات وصفاته أعلى الصفات، وكمالها منبع الكمالات، ومن ذاته أفيضت

على كل مخلوق خصائصه، ومن جوده استمد كل كائن ما به قوامه، وما عليه يتوقف استمرار وجوده. ولو قد تخلت عنايته عن أي كائن، أو انحسر فيض جوده عن أي موجود، لتلاشى كلية وما كان له بعد ذلك بالوجود اتصال. ولذلك كان الله تعالى هو الخلق حقا بالحمد، المستحق حقا للثناء في كل حال وعلى أي حال وما دام الكل منه وإليه فالحمد له حقيقة والحمد لغيره مجازاً.

وما دمنا معشر المكلفين مستندين إليه سبحانه في كل شيء، مدينين له بكل شيء، مستمدين من جوده وفيضه (بعد أصل الوجود) ما بدونه لا تستمر لنا حياة، ولا يهنأ لنا عيش، ولا يستقر بنا مقام. فإن علينا أن نشهد له سبحانه ذلك دائماً ونذكره، ونذود عنه غواشي الغفلة، ونجعله نصب أعيننا في كل ما نأتي ونذر. في النوم واليقظة والسكون والحركة، وعندما نستغل حواسنا، أو نحرك أعضائنا أو نتمتع (أكلًا أو شربًا أو لبسًا أو تدابيرًا) بما ساقه إلينا، وأنعم به علينا، مما أنزله من السماء أو أخرجه من الأرض، أو ألهم خلقه صنعه ويسر لهم سبيل إتمامه وإكماله، ثم أوصله إلينا وافيًا بحاجتنا كافيًا بهنائنا وسعادتنا، وما أكثر هذه النعم وما أوسع نطاقها ﴿وَلَا تُعَدُّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ علينا أن نشهد ذلك بقلوبنا، ثم نترجمه هتافاً بالسنتنا، نشي عليه سبحانه فيه بما هو أهله، ونحمده على ما آتانا من فضله قائلين: الحمد لله. أو ما أشبه ذلك وأدى معناه من صيغ الحمد، وإنها لنعم الذخيرة.

ولئن كان التوجيه إلى ما ذكر في الآية التي معنا مستورا بعض الشيء، فإنه قد ورد صريحا في مواطن أخرى من القرآن، وفي غير ما حديث من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام. ففي آية الإسراء: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ وفي سورة المؤمنون: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ

فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَخَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ وفى سورة الزمر: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ...﴾ الآية.

وفى الحديث يقول ﷺ: "إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها". كما يقول ﷺ: "ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله، إلا كان الذي أعطى (وهو حمده) أفضل مما أخذ" وهى النعمة التي تمتع بها. وكما يقول أيضاً: "ولو أن كل الدنيا بحذافيرها بيد رجل من أمتي ثم قال: "الحمد لله، لكانت الحمد لله أفضل من ذلك" صدق رسول الله ﷺ: وأين الفاني من الباقي؟ وإنها لأحاديث تكشف عن عظم فضل الحمد على النعمة وكبير مثوبته، وحب الله ورضائه ممن يحمده، وفى ذلك الدعوة إليه والحث عليه.

ومن صيغ الحمد الجامعة ما رواه ابن ماجة عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: حدثهم "أن عبداً من عباد الله قال: يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضّلت^١ بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى السماء فقالا: "يا ربنا إن عبداً من عبادك قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال الله تعالى وهو أعلم بما قال عبده: ماذا قال عبدي؟ فقالا: يا ربنا إنه قد قال: يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك فقال الله لهما: "اكتبها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها".

وفى (الحمد لله) الواردة في السورة ثناء من الله سبحانه على نفسه. والله سبحانه أن يثنى على نفسه بما شاء، وهو خاص به جل وعز لم يأذن في مثله لأحد من خلقه بل أنه نهى عباده عن ذلك صراحة في كتابه الكريم ﴿فَلَا تَرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَتَّقُونَ﴾. وبدهي تركية الإنسان نفسه وثناءه عليها عنوان على

غروره وافتتانه بما أوتي، وهذا ليس من صفات المؤمنين. بل إننا نرى رسول الله ﷺ يتوسع في الأمر تجاوباً مع الواقع وسداً لمنافذ الغرور عن

^١ - عضلت بتشديد الضاد: استغفلت.

المؤمنين فيقول: "أحثوا في وجود المداحين التراب" ذلك لأن الغالب على مدائح المداحين أن يكون حشوها الكذب والبهتان، وزخرف القول، والإفراط في مدح الشخص بما ليس فيه، مما ينسيه غالبا حقيقة نفسه، ويحمله على التعالي والغرور. وعلى هذا حمل الحديث.

نعم. إذا اقتصر المادح على ما في الممدوح من عقل وفهم، وأثنى عليه بما فيه من خلق حميد ورأى سديد، فلا جناح عليه في ذلك، ولا على الممدوح من جناح إذا ما تقبل منه ذلك وشهد نقص نفسه، واعتبر أن ما بدا إنما هو من آثار ستر الله عليه، وإلقاء حسن الظن به في قلوب الناس، كما كان علي كرم الله وجهه يحرص على ذلك ويجهر به كلما مدح فيقول: "اللهم اجعلني خيرا مما يظنون، ولا تؤاخذني بما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون" ولقد مدح رسول الله صلوات الله وسلامه عليه من كثير من الشعراء. ومع ذلك فلم يحث في وجه أحد منهم التراب ولا أمر بذلك. وما ذاك إلا لأنهم لم يقولوا إلا الصدق ولم ينطقوا إلا بالحق.

وفى قوله سبحانه **﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**: الذي هو في السورة نعت أول للذات الأقدس إشارة وتنبيه للأذهان إلى ما به كان الحق سبحانه مستحقا استحقاقا ذاتيا لأنواع المحامد، خليقا بعبارات التمجيد والثناء.

بيان ذلك: أن من معاني الرب كما تقدم آنفا (المدير المصلح)، وهو أبرزها وألصقها بما معنا، وأعظمها استيعابا لمقتضيات الحمد وموجباته. وفي ميادين التدبير والإصلاح الإلهي التي تتمثل فيما أودع الله تعالى في الأنفس والآفاق من آيات محكمات وأسرار باهرات، وما أقام الله عليه وجود الكائنات الحية وغيرها من نظم ونواميس دقيقة. في هذا كله يجب أن تجول الأذهان، وبخاصة أذهان المؤمنين باحثة مستطلعة تنشد الحقيقة وحدها فيما تحس وترى، وترد الظواهر إلى أصولها، وتربط النتائج بمقدماتها. ويقتضي أنها ستجد من ألوان التدبير والإصلاح الإلهي للجنس البشري سواء في خلقه

وتكوينه أو في مده بمقومات حياته ستجد من ذلك ما يملأها إجلالاً وتعظيماً
للخالق الأكبر، وشعوراً بكبير فضله، وجزيل إحسانه، وستعود من جولاتها
(إن كانت منصفة) وقد أثقلها الإحساس بالنعمة، وأقلقها الشعور بفداحة
التقصير. والتفريط في حق المولى السميع البصير.

ولقد وجهنا الله تعالى إلى تلك الميادين ودعانا إلى استكشاف ما بطن في
المكونات من أسرار، تدعو إلى الله وتدل عليه، وتتطرق بما تولانا به من
رعاية، وما غمرنا به من أفضال ونعم، ولم يكتف بمجرد لفت النظر وتوجيه
الأذهان توجيهاً عاماً، بل ضم إلى ذلك رسم طريق النظر، وتحديد الجهة
التي نجعلها موضع بحثنا ونستلهم الهدى عن طريقها. ففي خلق الإنسان
وبيان عناية الله به من بدء التكوين إلى أن خرج بشراً سوياً. يقول الله
تعالى:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصَّلبِ وَالتَّرَائِبِ﴾. ثم يزيد الموضوع
إيضاحاً وتفصيلاً فيقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ
مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ
أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. ولقد كشف العلم الحديث عن الكثير

مما كان خافياً من أسرار الجهاز التناسلي وما زوده به الخالق جل جلاله من
استعدادات دقيقة محكمة، لولاها ما تأتى للأطوار الإنسانية أن تتم، ولا أن
يجد الإنسان طريقه إلى نسيم الحياة. وإذا كان البون شاسعاً، وشاسعاً جداً، بين
الإنسان في أطواره الأولى وبينه في طوره الأخير بعد تزويده بسر الله
الغيبى، ونفخ الروح فيه. لا جرم تغيرت أداة العطف بين الأطوار من (الواو)
إلى (ثم) وشتان حقاً بين الإنسان جثة هامدة في نهاية أطواره الأولى لا
إحساس فيها ولا حركة ولا إدراك ولا شعور وبينه وقد استحال - كما قال
الله - خلقاً آخر حشوه النشاط والقوة والإدراك والحركة، خلقاً انطوى على

أسرار دهشت لها العقول وتحيرت الأبواب، خلقا زود بأجهزة متنوعة، وغدد مختلفة، لكل منها خاصيتها ووظيفتها التي تؤديها داخلي نطاق التنظيم العام للجسم، ولكل منها نصيبها الذي تساهم به في توفير الحياة السليمة للإنسان، بحيث لو لم تكن موجودة أو كانت ولكنها تعطلت لطارئ ما، لتبدى أثر ذلك واضحا في صاحبها ولتغيرت أوضاع حياته تغيرا ملموساً.

فمثلاً الجهاز العصبي ومركزه الدماغ حيث يستقر المخ بمناطقه المختلفة، التي تختص كل منها بناحية من نواحي القوى الإنسانية، وحيث تتساقب منه خيوط دقيقة تنتشر في جميع أنحاء البدن، وحيث تتبادل الرسائل والإشارات اللاسلكية بين الفروع والمركز العام، أو بينه وبين مركز الرقابة العام وهو العينان، ثم تصدر على أثر ذلك الأوامر إلى الأعضاء بالانكماش أو الانبساط أو الإقدام أو الإحجام وما إلى ذلك من التصرفات الإنسانية. هذه الناحية وحدها من الإنسان كفيلة بأن تزود من يدرسها بإنصاف بمئات الشواهد والأدلة على إبداع الصانع الحكيم، ومدى ما أسداه إلينا من أياد ونعم لا تكاد تنتهي، ولا نكاد نستطيع لها حمدا وشكراً.

ومثل ذلك يقال في الجهاز الهضمي ابتداء من الأسنان بنظامها البديع المتسق تمام الاتساق مع طبيعة العمل، حيث يوجد الحاد منها في الأمام للقطع والتمزيق، ثم النواجذ والأضراس الصغرى للتفتيت، ثم الأضراس الكبرى للطحن والتنعيم ثم ما يجاورها من غدد الريق التي تفرز عصارتها بدقة وميزان يتجانس مع المأكول يبساً وليناً، ثم ينبغي أن لا ننسى أيضاً اللسان حيث جعل الله تعالى موطن الذوق في رأسه، ليكون بمثابة الرائد أو الحارس يختبر الطعام قبل أن يسمح بمروره، حتى لا يفاجأ الإنسان بمضره أو يضايقه بعد فوات الأوان. كما ينبغي أن نصحب الغذاء في مراحل التالفة إلى المعدة ونتعرف على ما تفرزه من عصارات تختلف نوعاً وكمية حسب اختلاف نوع الغذاء وكميته، وما يتم فيها من امتصاص للغذاء عن طريق

أجهزة خاصة، ثم تحويله إلى عناصر صالحة. يوزع بعضها على الأعضاء المختلفة لتمكينها من أداء وظائفها في مملكة الجسم، ويخترن البعض الآخر حتى يحين وقت الحاجة إليه. كل هذا أو بعض هذا ميدان واسع للنظر والتفكير ثم الاسترشاد والهداية. وحسبنا من الأمر ما ذكرنا فإن ميادين البحث في الإنسان واسعة النطاق جداً، وصدق الحق حيث يقول: ﴿وَفِي الْأَرْضِ

آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

وكما يقول الشاعر:

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

فإذا ما تجاوزنا من الإنسان هذه الناحية، ناحية الإيجاد، وجدنا الحق سبحانه يوجهنا إلى ناحية أخرى هي ناحية إمداد الإنسان بمقومات حياته، وتوفير كل ما يكفل له الحياة الهانئة السعيدة، ويمكنه من أن يؤدي وظيفته التي خلق لأجلها كاملة وافية. وفي ذلك يقول الله تعالى توجيهاً لنا إلى النظر في المقوم الأول والأهم للإنسان وهو الغذاء: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿أَنَا صَبَّأُ الْمَاءَ صَبًّا﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ وَعَبْنَا وَقَضْبًا ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنَامِكُمْ﴾.

إنني لا أدري بم أعلق على هذه الآيات التي تأخذ روعتها بالقلوب؟ إن من واجبنا إذا ما وضعت الموائد بين أيدينا وعليها طعامنا؛ أن نمسك بالرغيف، ونسأل أنفسنا: كم يد عملت في سبيل إيصال هذا الرغيف إلينا ناضجا شهيا؟ ثم لنسأل أنفسنا: عن البذرة، وقد وضعت في الأرض بعد أن سقاها ماء السماء، ثم بعد فترة شقت الأرض وأبرزت لنا عودا أخضر زاهيا لطيفا هينا. لنسأل أنفسنا: أهذا العود الضعيف اللين هو الذي شق الأرض وخرج منها صاعدا إلى أعلى (بينما نحن لا نشقها إلا بآلات) أم أن يداً

أخرى هي التي شقت الأرض وأفسحت له الطريق ثم تولته فى مراحل تكوينه المختلفة حتى نما وتم خلقه؟ ثم جنينا منه بعد ذلك أنواعا مختلفة وأشكالا متنوعة، تسقى بماء واحد، وتتبت من أرض واحدة، وتشرق عليها شمس واحدة، ولكن يُفَضِّلُ الله تعالى بعضها على بعض فى الأكل، وينوعها لأجلنا وفى سبيل توفير مقومات الحياة لنا، فيجعل منها الغذاء والدواء لنا ولأنعامنا، كما يجعل من الغذاء أشكالا، منه الحبوب للخبز، ومنه الخضر للإدام، ومنه الفاكهة لاستكمال عناصر الغذاء، نعم إنها يد أخرى تولت ذلك كله، ونحن عنه غافلون. سبحانه اللهم لا نحصى ثناء عليك.

كذلك ينقلنا الحق سبحانه فيما يتصل بتدبير الإنسان وإصلاحه من هذه الدائرة إلى دائرة أخرى فيقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿كَمَا يَقُولُ سبحانه: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَوْوْفٌ رَّحِيمٌ﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. صدق الله العظيم

وكم خلق؟ وكم سيخلق؟ مما يبدو من اختراعات حديثة ألهمها الله بعض عباده وأفضل أن لا أعرض لهذه الآيات بأكثر من أن أقول: إن الواقع المرئي المشاهد خير مفسر لها، فليرجع إليه من شاء وسيجده ماثلاً فيما يأكل فيما يشرب وفيما يلبس من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، بل فيما يستعمل من أدوات فى كثير من شئونه. وأن عليه كلما استعمل شيئاً من ذلك أو تمتع به

فى ليله أو نهاره أن يُذكر نفسه بذلك المولى العظيم الذى غمره بهذه النعم كلها، وقدر حاجته الملحة إليها فيسر له سبيلها.

كما ينقلنا أيضاً إلى نواح أخرى من التدبير والإصلاح فيما يحتف بنا، وترتبط به حياتنا، يعرضها مستهلة بأداة الاستفهام التقريرى التى تقيد ثبوت ما بعدها وتأكيدده، فيقول سبحانه: ﴿أَمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿- بالله غيره من آلهتهم التى لا تسمع ولا تبصر- ﴿أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾- ثابتة - ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي﴾- هي الجبال- ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾- جعل الملح والعذب عند التقائهما بحيث لا يختلط أحدهما بصاحبه اختلاطاً يؤدى إلى تضييع عذوبة العذب- ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمُ بِأَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَمْ يُحِبُّ الْمُضْطَرِ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمُ بِأَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿أَمْ يُهْدِيكُمُ فِي ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بِشْرًا ﴿- مبشرة بنزول المطر- ﴿بِيَدِهِ رَحْمَةٌ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمُ بِأَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. كما يقول سبحانه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ - مستمراً لا يبدد ظلمته إشراق النهار- ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمُ بِأَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾! ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾! ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ مِنْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمُ بِأَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾! ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾- في الليل- وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴿في النهار بالسعي على المعاش- ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

وإن في هذا لتنبهها أيما تنبيه للأذهان (التي كثيراً ما تغلبها الغفلة) إلى تلك النواحي الهامة من التدبير والإصلاح الإلهي التي لا تقل في أهميتها بالنسبة إلى الجنس البشرى عما سبق فى الآيات قبلاً. وليت شعري: أكان يمكن للحياة على ظهر الأرض أن تأخذ أوضاعها الحالية، أو أن تقطع من

عمرها نزرأ يسيراً مما قطعته، لو قد فرض أن الله لم يزودها بتلك الآلاء التي لا حصر لها؟! إن الجواب معلوم قطعاً، وإن الخراب والدمار كان هو العاقبة المنتظرة.

وكما يقول الأقدمون: إن النعمة لا تدرك قيمتها الحقة إلا بعد فقدانها- فإننا لن نستطيع أن ندرك مدى ضرورة تلك النواحي لنا، ونستشعر بحق عظم المنة الإلهية علينا فيها، إلا إذا افترضنا خلو الحياة منها. ومن ثم، فلنتخيل الحياة على أرض قد فارقها الاستقرار، وأصبحت كالسفينة بين التيارات العاتية، أو على أرض قد خلت من مادة الحياة الأولى للكائنات الحية وهى الماء العذب المستمد من الأمطار والأنهار، أو فلنتخيلها ليلاً حالكاً لا ينتهي، أو نهراً مستمراً لا يتغشاه الليل بهدوئه وسكونه. وهكذا وهكذا. ويقيني أننا عندئذ سنكون في وضع نفساني يمكننا من الإحساس الحق بتلك النعم الجليلة التي فوت علينا الشعور بقيمتها يسرها وسهولتها وتعاقبها من غير انقطاع.

إننى لأدعو كل مسلم أن يجلس إلى نفسه جلسة خاصة كلما أمكنته ظروفه، لا سيما إذا ما أحس بغلبة الغفلة عليه، يجلس إليها مستعرضاً بعض ما يواليه الله تعالى به من نعم في كل لحظة من لحظات حياته، سواء كانت نعماً ذاتية ملازمة كالتى انتظمت ضمن مقومات بدنه، أم كانت نعماً مفارقة من جنس ما ذكرناه أخيراً، يستعرضها استعراضاً قوامه وهدفه استجلاء المنة والفضل الإلهي. ويقيني أنه سيشعر بعد ذلك في وجدانه بحالة جديدة، وسيجد لهتافه باسم (الرب) جل جلاله في صلاته أو دعائه طعماً جديداً، ولذة غامرة، وتوجهاً صادقاً يجعله أدنى إلى رحمات الله. وإذا كان ما ذكره وغيره من ألوان التدبير والإصلاح لا يعدو أن يكون مظهراً من مظاهر الرحمة الإلهية، وأثراً من آثارها، لا جرم قال الله تعالى بعد ذلك:

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾:

وهي الآية الثانية من السبع المثاني، وقد تقدم لنا في تفسير البسملة أن ﴿الرَّحْمَنُ﴾ هو المنعم بجلال النعم، وأن ﴿الرَّحِيمُ﴾ هو المنعم بدقائقها. نعت الحق سبحانه بالرحمن الرحيم عقب نعته برب العالمين على ما بينا معناه، للإشارة والإشعار بأن ما تولى الله به عباده من رعاية، وما والاهم به من نعم إنما هو نبع جوده، وفيض إحسانه، لا ملجئ له إليه، ولا قاهر له عليه، وأن معاملته سبحانه لعباده يغلبها طابع الرحمة، ويهيمن عليها سبق الإحسان. أما قوله سبحانه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وهي الآية الثالثة من السبع المثاني. ففيه:

(أولاً): توجيه للأذهان إلى ما بعد الحياة الدنيا، وانتقال بها إلى اليوم الآخر، إلى حيث يقوم الناس لرب العالمين، ويجيئون ربهم فرادى كما خلقهم أول مرة، وقد خلفوا وراء ظهورهم كل ما يملكون، وتكرر لهم من كانوا عليهم يعولون، ووجدوا ما عملوا حاضرا. وفيه:

(ثانياً): انتقال من التذكير بنعم الله تعالى وآلائه، إلى التذكير باليوم الذي سيحاسب فيه الناس على تلك النعم، ويسأل كل منهم عن مدى تقديره لها، وشعوره بفضل مانحها وواهبها، كما يسأل عن أسلوبه في استغلال ما أودع الله فيه من ملكات، وما مكن له في الحياة من أسباب وهل عرف الله فيها حقه، فاستغلها في نطاق ما أباح له، أم أنه كان ممن سيطرت عليهم الأهواء وتملكهم الغرور، فنسى الله، واتخذها أداة للعدوان والفجور كما أن فيه:

(ثالثاً): تقريراً لسلطان الله المطلق في ذلك اليوم الهائل الرهيب الذي سيتقرر فيه مصير كل إنسان، فإما سعادة، وإما شفاء، وإما عذاب، لا حكم فيه إلا حكمه، ولا قضاء إلا قضاؤه، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ممن اختار سبحانه وارتضى.

وبدهي ما تتركه تلك المعاني من صدى عميق في نفسه التالي المتيقظ لما يلتوه. فإن عبداً مؤمناً يناجي ربه بمالك يوم الدين وفي ذهنه وشعوره ما هو يوم الدين، وكيف يكون موقف الناس فيه وما يلقون خلاله من شدائد

وأهوال، لا بد وأن يترك هذا كله في وجدانه قدرا لا يستهان به من الوجع والرهبة والخشية، لاسيما إذا ما كان من المقصرين، وغالبا ما يدفع به هذا التكرار المتوالي إلى تعديل موقفه من ربه تعديلا يطمئن به إلى العاقبة ويترجح به عنده جانب الأمان والسلامة مما يخافه ويخشاه.

والحكمة في إضافة الملك في الآية إلى يوم الدين فقط مع ما هو معروف ومقرر من أن سلطان الله تعالى وهيمنته وتصرفه المطلق، وليس الأمر فيه قاصرا على يوم الدين فحسب، إذ هو كذلك في كل زمن وفي كل مكان، في يوم الدين وقبله وبعده. إنما كان كذلك لمزيد ظهور ذلك يوم القيامة، ولا انقطاع العلائق المجازية بين الملاك وما كانوا يملكون، فلا يوجد إذ ذاك من يقول: أملك كذا وكذا كما كان يقال ذلك في الدنيا ﴿لَمَّا الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾؟! ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وإلى هنا يكون التالي الذي انتقل ذهنه من الاعتراف باستجماع ذات الله تعالى لكل كمال، واستحقاقه سبحانه لجميع أنواع المحامد، إلى شهود المنة العظمى لله فيما والاه به من ضروب النعم التي لا يدركها العد والإحصاء، والاعتقاد بسلطان الله تعالى المطلق يوم الدين، وتفرد فيه بالحكم والقضاء. يكون قد أصبح في حالة نفسية خاصة امتلأ فيها القلب إحساسا بالعظمة اللانهائية لله، وشهودا وجدانيا لحقارة من سواه، ويقينا عميقا بضلال وإفك من أشرك مع الله غيره، ودان بالعبودية لمخلوق مثله، لا يملك لنفسه فضلا عن غيره نفعاً ولا ضراً. لا جرم لقن الله تعالى عباده بعد ذلك المناجاة التالية:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

والمعنى: نخصك يا الله بالعبادة والتذلل والخضوع والطاعة، إذ لا يستحقها إلا أنت سبحانه، ولا نرى لغيرك شيئا منها، وكل من أدعى لسواك ألوهية، أو تقدم إليه بلون من ألوان العبادة الخاصة بك فهو على ضلال. كذلك

نخصك يا الله بطلب المعونة والمساعدة، ونستمد منك القوة التي تمكننا من تذليل ما يعترض طريقنا من عقبات، وتصل بنا إلى تحقيق ما نصبو إليه من آمال دينية أو دنيوية فأنت قيوم السموات والأرض، إليك أمرهما، وبيدك مقاليدهما، لا يخرج شئ فيهما عن سلطانك وأمرك، ولا تتحرك ذرة فيهما إلا بإذنك وإرادتك، فامنحنا اللهم عونك، واشملنا بالطفافك.

وأرى في نظام الآية الكريمة، من حيث تقديم الحديث عن العبودية على الحديث عن الاستعانة، أرى في ذلك تعليماً للعباد وإرشاداً لهم إلى أن يتقدموا بين يدي دعائهم وطلبهم من الله سبحانه شيئاً من الطاعة يصل حبلم به، ويقربهم إليه، وبذلك يكونون أدنى إلى رحمته، وأقرب إلى إجابته. ولهذا نظير فيما بيننا فإن الرجاء الموجه بعد عقد أوامر المودة يندر أن يرد، بل قال بعض العلماء: إن سياق الآيات في صدر الفاتحة يعلمنا كيف ندعوا الله تعالى، وأنه ينبغي لنا أن نقدم بين يدي الدعاء الثناء على الله تعالى بما هو أهل له من صفات الكمال والجمال ثم ندعو بعد ذلك، وهو كلام وجيه له قيمته.

هذا. وإن من واجب كل مسلم يردد هاتين الآيتين في اليوم واللييلة سبع عشر مرة على الأقل. من واجبه أن يعمل جاهداً على أن يطابق وجدانه لسانه، وأن يصدق حاله قوله، ولن يكون كذلك إلا إذا انتزع من قلبه جميع الوسائط والأسباب وأفرد به بالتأثير في جميع الأشياء بحيث لا يشهد مصدراً للنفع والضرر، والمنع والإعطاء إلا الله تعالى لقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يُمَسِّكُ اللَّهُ بَضْرٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِذْ يَرْذُكِ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ وإذا ما باشر سبباً أو وسط شخصاً أو تعاطي دواء أو سلك سبيلاً إلى رزق، فليمارس ذلك بجوارحه طاعة للأمر ولإيملاً قلبه شعوراً ويقيناً بأن هذه كلها أسباب لا جدوى منها ولا ثمرة لها، ما لم تصحبه معها عناية الله والطفاه ومدده. ومتى ما كان هذا الإحساس متوفراً لديه، وتلك العقيدة ملء فؤاده، فلا عليه بعد ذلك أن يباشر ما شاء من الأسباب

الحسية والمعنوية فى دائرة ما أباح الله تعالى لعباده، كذلك لا جناح عليه أن يطرق باب من شاء، ويوسط لإدراك مقاصده من يشاء، ما دام يرد كل النتائج والآثار إلى الله، ولا ينسب منها إلى المخلوقات شيئاً إلى على قبيل التسبب فقط وإنه لسبيل المؤمنين ومنهج المنصفين، أما ما عدا ذلك مما يججع به بعض المتعولمين، فهو غلو فى الدين وإسراف نعوذ بالله تعالى منه. ثم قال سبحانه:

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِي أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وإنها لدعوات مباركات، جمعت فأوعت، اختارها الله لعباده، ولقنهم إياها، ليتوجهوا بها إليه، بعد إذ ناجوه قبلها بما جعلهم أهلاً لأن يسمع الله قولهم، ويتقبل دعاءهم، ويفيض عليه إحسانه وبره، ومعناها: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ اغرس يارب في قلوبنا الميل إلى الحق، وشرح صدورنا للإسلام، واسلك بنا سبيل الرشاد الذي هو (صراط) وسبيل عبادك المخلصين الموفقين ﴿الَّذِي أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق إلى ما تحب، وسلكت بهم أقوم سبيل، وحفظتهم من كل ما يسئ إليهم فيما بينهم وبينك كما نسألك اللهم أن تجنبنا وتباعد بيننا وبين منهج أولئك الذين غضبت عليهم لتعاميهم عن هديك، وانصرفهم عن شرعك، ومجافاتهم لدينك، وإيثارهم العاجلة على الآجلة، وهم اليهود، وكذلك إخوانهم النصارى الذين ضلوا سواء السبيل، وافتروا عليك الكذب، ونسبوا زورا وبهتاناً إليك الزوجة والولد تعاليت عن ذلك آمين. استجب لنا يا الله، وحبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وبغض إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والتابعين ومن تبعهم بإحسان.



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

صدق الله العظيم.

تمهيد

آية الكرسي سيدة آي القرآن. وحرز المؤمنين من أعدائهم الشياطين. يتلوها المصلون أو يسمعونها في اليوم والليلة مرات بينما لا يفقه معناها إلا القليل. وبدهي تفاوت ما بين تلاوة لا تعدو حركات اللسان والشفيتين، وتلاوة يطابق فيها القلب اللسان، وتتغذى الروح فيها بمعاني القرآن، وشتان بين ما نستتبعه كل منهما عند الله من أجر ومثوبة. وإنني إذ أتقدم إلى إخواني المسلمين بتفسير هذه الآية الكريمة، أرجو أن يكون لهم من مراعاة حينما يتلونها أو يسمعونها أوفر نصيب. وقد آثرت - استكمالا للفائدة - أن أقدم بين يدي تفسيرها بعض المأثور عن الصادق عليه السلام بخصوصها.

فقد روى مسلم وأبو داود عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾. قال: فضرب في صدري وقال: لِيَهْزِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ. ومعنى يهزك العلم ليسرك العلم ويفرحك. وهو دعاء له بذلك.

وروى النسائي والطبراني بأسانيد أحدها صحيح عن أبي أمانة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول

الجنة إلا أن يموت". وزاد الطبراني في بعض طرقه **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾** وروى..... الطبراني بإسناد جيد عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "من قرأ آية الكرسي في دبر الصلاة المكتوبة كان في ذمة الله إلى الصلاة الأخرى"، وأدبار الصلوات أعقابها، وذمة الله حفظه ورعايته التي يبسطها على المقربين إليه.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال. "وكنني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال إني محتاج وعلى دين وعيال ولي حاجة شديدة فخليت عنه فأصبحت فقال النبي ﷺ: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟ قال: قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله، قال: أما إنه كذبك وسيعود فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود فرصدته فجاء يحثو من الطعام. وذكر الحديث إلى أن قال: فأخذته يعني في الثالثة، فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود. ثم تعود، قال دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت ما هن؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي **﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾** حتى تخطم الآية فانك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله فأصبحت، فقال رسول الله ﷺ: **﴿ما فعل أسيرك البارحة؟ قلت يا رسول الله: زعم إنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: ما هي؟ قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تخطم الآية، ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾** وقال: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح. وكانوا أحرص شيء على الخير. فقال النبي ﷺ: أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قال: لا، قال: ذاك الشيطان" ورواه الترمذي من حديث أبي أيوب بنحوه وفيه "أرسلني وأعلمك

آية من كتاب الله لا تضعها على مال ولا ولد فيقربك شيطان أبدا. قلت وما هي؟ قال: لا أستطيع أن أتكلم بها آية الكرسي. وقد استفيد من هذه الأحاديث ما يأتي:

(أولاً): أن آية الكرسي أعظم أي القرآن. وإنما كانت كذلك لما انطوت عليه من إثبات صفات الكمال لله عز وجل من الإلهية والوحدانية والحياة والعلم والقيومية والملك والإرادة التي هي من أصول الأسماء والصفات.

(ثانياً): أنه لا مانع من اعتقاد تفاصيل آيات الكتاب الكريم، وأن بعضها أفضل من البعض الآخر. ولكن بمعنى تفاوت الثواب المترتب على التلاوة قلة وكثرة وتفاوت المعاني المستفادة منها كذلك قلة وكثرة الثواب المترتب على التلاوة قلة وكثرة، مع اعتقاد الكمال والجلال والشرف للكل، وأنه كله كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

(ثالثاً): أن من السنة المحافظة على تلاوة آية الكرسي عقب كل صلاة من الصلوات المفروضة.

(رابعاً): أن للمحافظة على ذلك مكافأة معجلة هي الحفظ والرعاية الإلهية من الآفات بمعنى أنها من أسباب دفعها وأخرى مؤجلة وهي الفوز برضاء الله عز وجل والتمتع بدخول الحنة مع السابقين إن شاء الله.

(خامساً): أن من قرأها حين يأوي إلى فراشه دفعت عنه الشياطين، ووكل الله به من يحرسه، وكان في أمان الله وجواره حتى يصبح، وقد كان الصحابي الجليل عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يقرأها في زوايا البيت الأربع كلما دخله، كأنما كان يلتمس بذلك أن تكون له حارساً من جميع الجوانب.

هذا. ومما تتبغي ملاحظته، أن الفضل الكبير والثواب العظيم المترتب على تلاوتها إنما يكون لمن تلاها بيقظة وتدبر وحضور قلب. أما من تلاها بقلب غافل ووجدان منصرف فإن نصيبه من فضلها لن يكون وافراً وتمتعه بما رتب عليها من ثمرات ليس ببعيد أن يتخلف.

هذا وقد تناولت الآية الكريمة طائفة من مسائل العقائد الإسلامية المتصلة بالذات الأقدس جل جلاله وأثبتت له سبحانه من الكمالات ما هو واجب له، كما نفت عنه ما لا يليق به، وكلها مما لا يتحقق إيمان المؤمن إلا بمعرفته، وجمع القلب عليه، وامتلاء النفس به. ففي قوله سبحانه:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

تقرير للإلهية والوحدانية، وإثبات ذلك لذات واحدة هي ذات الحق تقديس اسمه، وقد افتتحت الآية بما ذكر لأن التوحيد أساس بعثة الرسل ومحور دعوتهم إلى الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

والله. اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقي. وهو أكبر أسمائه سبحانه، وحتى قيل أنه الاسم الأعظم. والإله: اسم جنس يقع على كل معبود بحق أو بباطل، لكنه غلب في الاستعمال على المعبود بالحق كالنجم والصعق. ومعنى الكلمة المشرفة: لا فرد من أفراد المعبود بالحق موجود إلا ذلك المعبود بالحق وهو الله تعالى. فهي كلمة اشتملت على نفي وإثبات. وانطوى صدرها على نفي جنس المعبود وطرحه ورفض الاعتراف بجميع الآلهة، ثم انتشى عجزها يثبت هذا الوصف ويحصره في ذات واحدة هي ذات الحق سبحانه وتعالى. ومن ثم كان فيها كما قلنا إثبات الإلهية وتقرير الوحدانية، وكان النطق بها عنوان الإسلام، وكان الناطق بها عن يقين وفهم لمعناها بريئاً من الشرك وأهله، منتظماً في صفوف الأبرار الناجين.

ولذلك كله كانت الكلمة المشرفة وهى: (لا إله إلا الله) أفضل ما تحركت به ألسنة البشر بعد كلام الله عز وجل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله". وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً: "أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله". وفي حديث أبى سعيد عند النسائي وابن

ماجة: "لو أن السموات السبع وما فيهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم لا إله إلا الله" أى رجح وزنها وثقلت كفة أجرها. ورغبة فى هذا الفضل الكبير، وتقديرا لما يترتب على ترديد الكلمة المشرفة من تركيز قواعد التوحيد في القلب، ورسوخ أسسه، وعمارته بأنواره الساطعة، أفتتح الصوفية رضوان الله عليهم بها سيرهم إلى الله، وجعلوا الذكر بها من أركان جهادهم، بل اتخذوها الظل الملازم، والسمير المنادم، يهتفون بها بالليل والنهار، ويناجون بها مولاهم بالغدو والأسحار، مع مراعاة صحة النطق وسلامة الأداء، من الاعوجاج والاتواء، والتحريف والتبديل ويقظة القلب لمعناها، حينما يتحرك اللسان بمبناها. لا جرم أنتج لهم ذلك إشراقات باطنية، ومعارف سنية، وأكسبهم إنساً بالله، وانصرافاً عما سواه، وتقديراً حقاً لما عنده، وتعلقاً كاملاً بما وعد به المقبلين عليه من عباده. أما قوله سبحانه:

(الْحَيُّ الْقَيُّومُ).

فهما اسمان من أسمائه تعالى: وينطويان على صفتين من صفاته الواجبة له. وهما الحياة والقيومية. والحياة صفة تصح لمن قامت به أن يتصف بالقدرة وغيرها، هكذا قال علماء الكلام. وإذا كان تحديد معنى الحياة بما ذكر يجعلها عامة تشمل الحياة بالنسبة إلى الحق جل جلاله، والحياة بالنسبة إلى غيره من المخلوقات المدركة، وتسوى بينها، بينما هي في المخلوقات ناقصة (لتعرضها للانقطاع حتماً) وفي الحق تعالى كاملة لاستحالة الانقطاع عليها، لذلك قال المفسرون في بيان معنى اسمه (الحي): هو الباقي الذي لا سبيل للموت والفناء عليه لا في ذاته ولا في صفاته الحقيقية، ولا في صفاته النسبية.

أما اسمه تعالى: (القيوم). فقال قتادة: القيوم: القائم بتدبير ما خلق. وقال الحسن: (القيوم): القائم على كل نفس بما كسبت، حتى يجازيها بعملها من

حيث هو عالم بها لا يخفى عليه شئ منها. وتفضيل المعنى الأول: أنه سبحانه قائم بتدبير أمر الخلق في إيجادهم وفي إمدادهم، يرعاهم أجنة ويحرسهم مواليد، ويعطف القلوب عليهم أطفالا، ويسوق إليهم عن طريق الأسباب التي اقتضتها حكمته، ما به قوام حياتهم، واستكمال وجودهم. من الأرزاق المادية والروحية. كما أن تفصيل المعنى الثاني: أنه سبحانه وتعالى رقيب حسيب مهيم مطلع يرصد أعمال عباده، ويحيط علمه بحركاتهم وسكناتهم وما تلفظه ألسنتهم، أو تتطوي عليه جوانحهم، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ثم يجزيهم بعد ذلك بالإحسان إحسانا وبالسوء سوء. وسواء أكان المعنى هذا أم ذاك، فإن كليهما ثابت لله عز وجل والكلمة الشريفة لا تأبى المعنيين، وليس يضير المؤمن إذا ما ذكر ربه باسمه القيوم أن يملأ وجدانه إحساسا بالمعنيين وشهوداً لهما، فإن ذلك الكمال لنفسه، والإشراق لباطنه.

فمن ذكر ما لله عليه من فضل ومنة فيما يتمتع به من متع الحياة، وفيما يبلغه من أغراض فيها، ليس ببعيد أن يكسبه تكرار ذلك يقظة دينية تحفزه إلى أداء حقوق الله عليه، والقيام بما يقتضيه شكر المنعم. ومن ذكر رقابة الله تعالى الشاملة لجميع أعماله وحركاته وسكناته واتجاهاته أفاده تكرار ذلك الحذر والحيلة حتى لا يكون حظه من آخرته سخطا وانتقاما.

هذا وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "أعظم أسماء الله تعالى الحي القيوم" كما ذكر العلامة القرطبي في تفسير: إن عيسى عليه الصلاة والسلام كان إذا أراد أن يحيي الموتى يدعو بهذا الدعاء (يا حي يا قيوم) كذلك يقال: إن آصف بن برخيا لما أراد أن يأتي بعرش بلقيس إلى سليمان دعا بقوله: (يا حي يا قيوم). ثم قال سبحانه:

﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾

(والسنة): فتور يعتري الإنسان تنقل عنده رأسه، وترتخي أعضائه، ويتملك الإعياء جسمه، ويتلاشى ضبطه لما يجري حوله، وإن بقي له بعض الشعور، ممن ثم فهي حالة وسط بين اليقظة والغيوبة ويسمونها الناس النعاس.

فإذا ما زاد الفتور، وتضاعف الإعياء، وانطبقت الأجفان، وأفلت زمام الحواس، وتلاشى الإدراك، وعجز المخ عن السيطرة على الجسم، وحفظ التوازن المعتاد بين أجزائه، فذلك النوم. والسنة في العادة مقدمة النوم.

وصف الحق نفسه بالحي القيوم، والقيومية كما بينا أنفا صفة من مقتضاها القيام بشئون الخلق أجمعين، أو الهيمنة عليهم وضبط جميع أحوالهم وما يبدو منهم. إذ كان للإلف والعادة تأثيرهما في حكم الإنسان على الأشياء، وكان كل منا يحس من نفسه أنه إذا ما قام بأداء عمل شاق، أو بذل مجهود متواصل، لا يكاد ينتهي منه حتى يسيطر عليه الركود والإعياء والخمول، ويشعر بحاجته الملحة إلى الاسترخاء ثم النوم، ليعوض عن طريقه ما فقد من قوة ويسترد ما تبدد منه من نشاط، ويتمكن من مباشرة مقتضيات الحياة على الوجه المألوف.

لا جرم دفع الله تعالى ما عسى أن يجره التأثير بالإلف والعادة على بعض ذوى الأذهان القاصرة، وما يحتمل أن يسبق من الأوهام إلى بعض المدارك المريضة، فنبه عباده إلى كماله في صفاته، وتنزه عما لا يليق به، ومخالفته لخلقه فيما من لوازم تركيبهم التكويني، وأعلن استحالة عروض السنة أو النوم له سبحانه.

ذلك لأن السنة والنوم إن جاز عروهما للبشر نظرا لنقص تكوينهم، وضعف تركيبهم، وإمكان ذلك بالنسبة إليهم - فإنه لا يجوز بحال بالنسبة إلى الذات الأقدس جل جلاله. نظرا لما يؤدي إليه تجويز ذلك من أمور قام الدليل العقلي على بطلانها واستحالتها. فالنائم يجهل جهلا تاما ما يجري حوله، ونسبة الجهل إلى الله تعالى محال، والنائم متوقف عن الإنتاج، متعطل عن

مباشرة أعماله العادية، ونسبة هذا إلى الله محال، لأن خلو العالم من مدبره لحظة واحدة، وراءه انهياره السريع وفساد نظمه ونواميسه وسقوط سمائه على أرضه ﴿إِنَّ اللَّهَ يُنْزِلُ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَا إِدْرَأْكُمْ مِنْ أَحَدٍ مُبْعَدًا﴾. كما استحالت نسبة السنة والنوم إلى الله تعالى، كذلك يستحيل اتصافه سبحانه بكل ما كان من واديهما مما يؤدي إلى ما تؤديان إليه. وذلك مثل السهو والغفلة والنسيان والذهول تنزه الله تعالى عن ذلك ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ صدق الله العظيم

وثمة مسألة يذكرها بعض المفسرين لبينه على ما فيها من زيف، رأيت أن أذكرها للغرض نفسه، لأنني سمعت بعض الأفواه تتناقلها. قال القرطبي في تفسيره: والناس يذكرون في هذا الباب عن أبي هريرة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى على المنبر، قال: وقع في نفس موسى، هل ينام الله جل ثناؤه؟ فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً، ثم أعطاه قارورتين في كل يدٍ قارورة (أي زجاجة) وأمره أن يحتفظ بهما. قال: فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان، ثم يستيقظ فينحى إحداهما عن الأخرى، حتى نام نومة فاصططقت يداه فانكسرت القارورتان. قال: ضرب الله مثلاً أن لو كان ينام لم تمتسك السماء والأرض. قال القرطبي: ولا يصح هذا الحديث ضعفه غير واحد منهم البيهقي، وفي تفسير العلامة الفخر: واعلم أن مثل هذا لا يمكن نسبته إلى موسى عليه السلام فإن من جوز النوم على الله أو كان شاكا في جوازه كان كافراً فكيف تجوز نسبة هذا إلى موسى عليه السلام؟ بل إن صحت الرواية فالواجب نسبة هذا السؤال إلى جهال قومه. انتهى كلامه. أما قوله سبحانه:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾:

فهو تنبيه وإرشاد إلى جانب آخر من العقيدة، وإلى خاصة من الخصائص الألوهية، يتعين على المكلف أن يؤمن بها ويجمع قلبه عليها. والمعنى أن هذا الكون كله، وما فيه، علويه وسفليه، سمواته وأرضه، وشموسه وأقماره،

ثوابته وسياراته، ملائكته وإنسه وجنه، مما تعمّر به السماء، أو يدب على وجه الأرض من أحياء كل ذلك له سبحانه خلقا وملكا: هو الخالق له كله، وهو المتصرف فيه كله، لا أمر إلا أمره، ولا حكم إلا حكمه، ولا سلطان إلا سلطانه، ولا تتحرك ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا ينقل فيها مخلوق قدما عن قدم إلا بمدد ألهى، وسبق قضاء، وتقدم إرادة ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. قُلْ مَرْبُّ السَّمَاوَاتِ السَّعْيِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ. قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَانْتَ حُرُونَ﴾ صدق الله العظيم.

هذا الجانب من العقيدة، لو ملأ المؤمن به قلبه، وغذى به دائما شعوره ووجدانه، وجعله على ذكر منه يرجع إليه في جميع شئونه وأحواله، ويناجي به نفسه في جميع ما يعرض له من عقبات، وما يلم من مصائب، وبلايا ونكبات، وما يواجهه ممن يتصل بهم من شاذ المعاملات، وقبيح التصرفات لو قد فعل ذلك لعاش هادئ النفس، مستريح الضمير، لا تزعزعه الحوادث مهما ثقلت وطأتها، وعظمت شدتها، لنزوع فكره إلى شهود مدبر الكون، والمهيمن الأعلى جل جلاله.

إذا ما رأيت الله في الكل فاعلا رأيت جميع الكائنات ملاحا

ثم قال عز من قائل:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾:

﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ الاستفهام للإنكار والتفريع، ومعناه النفي لما يأتي بعده مع تأنيب من وجه إليهم الخطاب (يشفع) من الشفاعة. والشفاعة طلب الخير والنفع للغير رجاء ووساطة. (بإذنه) الإذن هنا معناه الإجازة والرضي والقبول، والمعنى

الإجمالي: لن يشفع أحد يوم القيامة عند الله لأحد إلا بعد صدور الإذن منه سبحانه وتعالى للشافعي أن يتقدم برجائه للمشفوع له.

المعنى: قرر الحق سبحانه وتعالى في مطلع الآية الكريمة إلهيته ووحدانيته، وأنه سبحانه القائم على كل نفس بما كسبت، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، كما قرر أن السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ملك له سبحانه وحده، لا ينازعه في شئونهما وتدبيرهما منازع، والأمر فيهما أمره والحكم حكمه والسلطان سلطانه.

وإذ كان المشركون الذين ناهضوا دعوة رسول الله ﷺ، وعملوا جاهدين على هدمها، قد زعموا فيما زعموه لآلهتهم من نعوت، وما أحاطوها به من أوهام وترهات أنها ستشفع لهم في الآخرة، وأنهم سيدركون من وراء شفاعتها النجاة والسلامة من شدائد القيامة وأهوالها وعذابها ونكالها، كما زعموا أيضا أنهم إنما يعبدونها تقربا إلى الله، وهو ما نقرأه صريحا في قوله الحق سبحانه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾. وفي قوله عز من قائل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾

وإذ كان هذا الزعم الواهي المتهافت قد وجد أفواها تتحدث به، وآذانا تنصت إليه، وأذهانا مريضة ترحب به وتتقبله. لا جرم! فند الله تعالى هذا الادعاء بالباطل، وكشف الغطاء عن تلك الأكذوبة الضخمة، وبين لهم أنهم إنما يعيشون على الأوهام، ويطمعون في غير مطمع وأنهم لو رجعوا إلى صوت العقل المجرد عن لوث الهوى والغرض، لأدركوا لأول الرأي أنهم جد مخطئين، وأنه ما كان لهم وقد عبدوا أحجارا صنعوها بأيديهم، ولولا مجهودهم ما كان لها وجود على ظهر الأرض. وما كان لهم أن يأملوا منها نفعا وهي عاجزة عن نفع نفسها، كذلك ما كان لهم أن يطمعوا في رحمة خالق الخلق بعد أن رفضوا وأبوا الانصياع والاستجابة إلى دعوة الحق.

وكم كان رائعا هذا الختام للآية التي ذكرنا صدرها حيث يقول جل جلاله: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

نعم، ما كان لهم أن يؤملوا هذا الأمل الواسع العريض أو أن يتوهموا هذه المكانة السامية لآلهتهم فضلا عن اعتقادها والجزم بها، إذ أن جميع الأسباب والمقدمات التي تبرر هذا الظن لا وجود لها. فالكلمة لله تعالى وحده إذا ما قام الناس لرب العالمين، وحشروا لميقات يوم معلوم وعنت الوجوه للحى القيوم، حيث لا يقبل من أحد قولاً ولا تنفع شفاعة شافع إلا لمن أذن له الرحمن ورضي له قولاً، وكانت الشفاعة لمن أراد الله تعالى رحمته ونجاته، وسبقت كلمته سبحانه بالصفح عنه. وأين آلهتهم من هذا؟! إنها ليس لها منه شيء، فهي لا تسمع دعاء ولا تبصر داعياً وعلى فرض أنها سمعت فإنه أعجز من أن تلبى أو تستجيب إذ ليس لها من الأمر شيء، وليس لها من المكانة شيء إنما هي ومن عبدوها حصب جهنم هم فيها خالدون. ومن كان له عند الله من (المعبودين باطلا) مكانة ومنزلة كالأنبياء والملائكة فإنه يبرأ إلى الله تعالى منهم. وإنا لنقرأ هذا واضحا في قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ. إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَشْرُكُمْ وَلَا يَنْتَفَعُ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

وإذ كانت الشفاعة بعد الإذن وهو التي أشارت إليها الآية الكريمة من السمعيات التي يجب الإيمان بها، ويعتبر منكرها وجاحدها بإطلاقها كافرا مرتدا والعياذ بالله. فإننا نرى استكمالا للفائدة، وتتيوira للأذهان في هذه الناحية من العقيدة، أن نتناول موضوعها بالتفصيل، ونبين متى تكون وللمن تكون؟ وعلى أي وضع تكون؟ وما نتائجها وآثارها المختلفة التي سبق علم الله بها وتعلقت إرادته بترتيبها عليها فنقول:

(أولاً): سيد الشافعين وأول من يأذن له الرحمن جل جلاله، ويرضى قوله هو نبينا ﷺ، وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام: "أنا أول شافع وأنا أول مشفع". كما يؤذن بها أيضا للمرسلين والأنبياء والملائكة والصحابة والشهداء والصديقين والأولياء، على اختلاف درجاتهم وتفاوت مراتبهم عند ربهم يشفعون، وبقدر جاههم ووجاهتهم يشفعون. وفي ذلك يقول الرسول الكريم كما أخرجه بن ماجة والبيهقي: "يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء" وأخرجه البزار وزاد "ثم المؤذنون" وفي آخر أخرجه البيهقي عن جابر: "يجاء بالعالم والعابد فيقال للعابد ادخل الجنة، ويقال للعالم قف حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم" وفي آخر أخرجه الحاكم والترمذي وصحاه: "ليدخلن الجنة بشفاعه رجل من أمتي أكثر من بني تميم قالوا سواك يا رسول الله؟ قال: "سواي".

(ثانياً): للرسول ﷺ شفاعات:

(أولاًها): وهى أهمها وأعظمها: شفاعته ﷺ لأهل الموقف في الانصراف منه، والراحة من شدته وهوله. روى الترمذي عن أبى سعيد الخدري رضي الله عنه النبي ﷺ: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وييدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي. وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر. قال فيفزع الناس ثلاث فزعات. فيأتون آدم عليه السلام فيقولون: أنت أبونا آدم فاشفع لنا إلى ربك. فيقول إني أذنبت ذنباً أهبطت منه إلى الأرض، ولكن ائتوا نوح، فيأتون نوحاً عليه السلام فيقول: إني دعوت على أهل الأرض دعوة فأهلكوا ولكن اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم عليه السلام. فيقول: إني كذبت ثلاث كذبات. ثم قال رسول الله ﷺ: ما منها من كذبة إلا ما حل بها عن دين الله تعالى. ولكن ائتوا موسى. فيأتون موسى عليه السلام فيقول: إني قتلت نفساً. ولكن ائتوا عيسى عليه السلام، فيأتون عيسى، فيقول: إني عبدت من دون الله، ولكن ائتوا محمداً ﷺ فيأتوني، فأنطلق معهم. قال أنس: فكأنني

أنظر إلى رسول الله ﷺ. قال: فأخذ بحلقة باب الجنة فَأَقْعَقُهَا، فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد. فيفتحون لي ويرحبون فيقولون: مرحبا، فأخر ساجدا، فيلهمني الله من الثناء والحمد. فيقال لي: أرفع رأسك. سل تعط، واشفع تشفع، وقل يسمع لقولك، وهو المقام المحمود الذي قال الله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ وفي الحديث نقاط خلاصتها:

(١) **قوله:** "ولا فخر" أى لا أقول ذلك افتخارا وتعاليا، وإنما هو من باب التحدث بنعمة الله تعالى، وتبيان ما سيكون مما خصني الله به تفضلا ومنة.

(٢) **قال القرطبي:** قوله: "فيفزع الناس ثلاث فزعات" إنما ذلك والله أعلم حين يُؤْتَى بالنار تُجَرُّ بأزمتها، فإذا رأت الخلائق فارت وشهقت. أ.هـ.

(٣) دعوة نوح عليه السلام ذكرت في القرآن: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِيَ فَرْسًا وَلَا قَرْصًا﴾ اعتبر عليه الصلاة والسلام صدور ذلك منه تسرعا، وأن الصبر كان أجدر به. وهكذا كان إحساسه عليه السلام. وإلا فقد طاول قومه تسعمائة وخمسين عاما، وهم لا يزدادون إلا عتوا.

(٤) كذبات إبراهيم عليه السلام التي شهد الرسول ﷺ أنها كانت لله وفي الله ودفاعا عن دين الله، لم تكن كذبات بالمعنى المتبادر. إذ أنها كانت من قبيل المعاريض، ولم تكن لها من الكذب إلا الصورة الظاهرية فقط. فقوله: (إني سقيم). أراد به سقم النفس من إصرار قومه على الشرك. وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَيْدُ هَٰؤُلَاءِ﴾ أراد به الاستهزاء بهم، والتعريض بغبائهم، إذ ليس بينهم من ينكر على تلك الأحجار مكانتها المزيفة إلا هو. وقوله في حق سارة: (هذه أختي). أراد بها أخوة الإيمان. وقد سمي الله المؤمنين أخوة.

(٥) قتل موسى ﷺ للقبطي. كان في موطن الحيلولة بينه وبين الاعتداء على أخيه الاسرائيلي. وهو عمل مشروع، ولكنه اعتبر قوة الدفعة التي صرعه تقصيرا لا يجمل منه، ومن ثم بادر بالاعتذار إلى الله.

(الثانية): شفاعته في إدخال قوم من أمته الجنة بغير حساب، وهذه قد وردت في حديث أبي هريرة عند مسلم وفيه: "أرفع رأسي فأقول يارب أمتي يارب أمتي، فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة"، والأولى خاصة بالرسول الكريم باتفاق، والثانية جزم بالاختصاص بها للرسول الحافظ السيوطي والقاضي عياض والنووي.

(الثالثة): شفاعته ﷺ في قوم استوجبوا النار بأعمالهم فيشفع لهم فلا يدخلونها، وهذه جزم القاضي وابن السبكي بعدم اختصاصها به ﷺ، ودليلها قوله عليه الصلاة والسلام: "خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى، أترونها للمتقين؟ ولكنها للمذنبين الخاطئين المتلوثين". أخرجه الإمام أحمد والطبراني عن أنس.

(الرابعة): شفاعته ﷺ لإخراج العصاة من النار بعدما دخلوها وهذه لا تختص به ﷺ بل تكون أيضا لغيره من الأنبياء والصالحين ودليلها ما رواه البخاري عن عمران بن حصين مرفوعا: "يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة ويسمون الجهنميين". وفي حديث أبي سعيد عند البخاري ومسلم: "فما أنتم أشد مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار إذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم فيقولون ربنا كان يصومون معنا ويصلون ويحجون، فيقال لهم: أخرجوا من عرفتم وتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذته النار إلى نصف ساقه وإلى ركبته، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحدا ممن أمرتنا به فيقال: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا. ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا، ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من

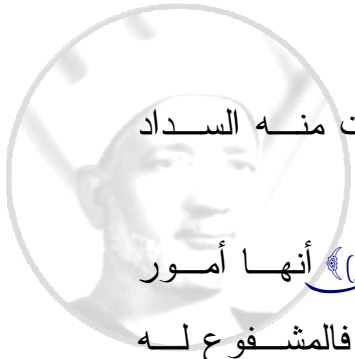
خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً. ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً. ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيراً. فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون ولم يبق إلا أرحم الراحمين. فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما من النار لم يعملوا خيراً قط" الحديث.

(الخامسة): شفاعته ﷺ في رفع درجات أناس في الجنة، وزاد بعضهم سادسة وهي شفاعته عليه السلام في تخفيف العذاب عن بعض الكفار كأبي طالب.

وتتكرر طائفة المعتزلة من أقسام الشفاعة الثالثة والرابعة والدليل ضدهم، ومن كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما أخرجه البخاري في خطبة له، أنه سيكون في هذه الأمة قوم يكذبون بالرجم وبالرجال ويكذبون بطلوع الشمس من مغربها ويكذبون بعذاب القبر ويكذبون بالشفاعة ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا. وخرج البيهقي عن أنس رضي الله عنه أنه قيل له: أن قوما يكذبون بالشفاعة، قال: لا تجالسوا أولئك.

(ثالثاً): لغير المقربين من بني آدم شفاعة. فالقرآن يشفع لأهله. والحجر الأسود يشفع لمستلمه. وفي الحديث: "إن الصيام والقرآن يشفعان للعبد، يقول الصيام: رب منعتك الطعام والشراب بالنهار فشفعني فيه. ويقول القرآن: يا رب أسهرته ليلاً فشفعني فيه، فيشفعان".

(رابعاً): وهنا دقيقة ينبغي التنبيه إليها وهي أن الشفاعة الثابتة لمن اختصهم الله بالإكرام من عباده ليست من طراز الشفاعات المتعارفة بين البشر. بيان ذلك: أن الشفاعة بمعناها المتداول: قوامها رجاء من ذي منزلة إلى آخر اتجهت نيته وانعقدت عزمته على أمر من الأمور أو تصرف من التصرفات ينطوي على منع خير أو إلحاق ضرر بآخر، فلا يزال الشافع بالمشفوع عنده حتى يحوله عن عزمه، ويصرفه عن نيته بالنسبة إلى المشفوع له. وبدهي أن هذا المعنى بالنسبة إلى الله تعالى لا يليق، لأن أقل ما يترتب عليه أنه يظهر



الحق (تقدس وتنزه) بمظهر من تخفى عليه أوجه الحكمة ويفلت منه السداد فيما يريد، سبحانه وتعالى عن ذلك.

إذن فحقيقتها، وهى مقتضى قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ أنها أمور علمها الله تعالى وسبقت بها إرادته أزلاً، ولا جديد فى الأمر. فالمشفوع له كتب الله له النجاة والسلامة مع إساءته لحكمة يعلمها سبحانه وجعل السبب الظاهر في نجاته شفاعة الشافع إكراماً له وإظهاراً لمكانته عنده، وعظيم رضاه عنه، والكل منه وإليه سبحانه.

وبعد أن قرر الحق سبحانه وتعالى أن له وحده ملك السموات والأرض وما فيهما وما بينهما، وأن له سبحانه وتعالى وحده القول الفصل والحكم العدل يوم القيامة، بحيث لا تكون ثمة شفاعة في مذنّب أو مقصر إلا بإذنه مهما بلغت منزلة الشافع. بعد ذلك أثبت لذاته المقدسة العلم الواسع الشامل الذي لا تحده حدود، ولا يخرج عن نطاقه شيء مما كان أو يكون. فقال تعالى:

﴿عَلَّمَ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

والمُتَخَدِّثُ عنهم الذين يعود عليهم الضمير هم الداخلون تحت قوله سبحانه: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بتغليب العقلاء على غيرهم. وليس المعنى المتبادر لقوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ بمراد. بل إن المعنى: ما بين أيديهم: ما كان قبلهم من أمور الدنيا. وما خلفهم: ما يكون بعدهم من أمر الآخرة. وقيل عكس ذلك، وإن ما بين أيديهم الآخرة لأنهم يقدمون على ذلك، وإن ما بين أيديهم الآخرة لأنهم يقدمون عليها، وما خلفهم الدنيا لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم. ويسند هذا قوله سبحانه: ﴿وَرَكُّنَكُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ وقيل ما بين أيديهم: ما بين السماء والأرض مما تتناوله الحواس الإنسانية، وما خلفهم: ما احتوته السموات من أمور غابت عنا. وقيل غير ذلك. وأياً ما كان فالغاية

واحدة، والنقطة التي تلتقي عندها جميع الأقوال هي شمول علمه سبحانه لما كان وما يكون، وإحاطته بما عليه عباده، وإحصاؤه لجميع أعمالهم خيرها وشرها طيبها وقبيحها. وإذا كان علم الله تعالى الشامل يتناول فيما يتناوله الإحاطة بأحوال الشافع والمشفوع له، التي تجعل الأول خليقاً بأن يحله الله هذه المنزلة وتجعل الثاني محلاً لأن يتفضل الله تعالى عليه بهذه النجدة، وينفس عنه تلك الكربة، كان التناسب بين هذا الجزء من الآية والذي قبله في غاية الظهور وفي هذا يقول العلامة الفخر في تفسيره:

"اعلم أن المقصود من هذا الكلام أنه سبحانه عالم بأحوال الشافع والمشفوع له فيما يتعلق باستحقاق العقاب والثواب، لأنه عالم بجميع المعلومات لا تخفى عليه خافية، والشفعاء لا يعلمون من أنفسهم أن لهم من الطاعة ما يستحقون به هذه المنزلة العظيمة عند الله تعالى ولا يعلمون أن الله تعالى هل يأذن لهم في تلك الشفاعة، أم أنهم يستحقون المقت والزجر عن ذلك. وهذا يدل على أنه ليس لأحد من الخلائق أن يقدم على الشفاعة إلا بإذن الله تعالى" انتهى. وإذا كان الحق سبحانه هو المنفرد وحده بالعلم الذاتي المنزه عن الوسائط، وليس لأحد غيره من ذلك شيء انتقل القرآن يبين ذلك ويقرره بقوله:

﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾.

والعلم هنا المقصود منه المعلومات. إذ علمه سبحانه الذي هو صفة ذاته لا يتبع بعض. والمتحدث عنهم بعينهم السابقون. والمعنى: إن أهل الأرض وسكان السموات بما فيهم الأنبياء والمرسلون كلهم يستمد ما عنده من علم قل أم أكثر من محض فيضه تعالى وفضله، وعلى مقتضى ما سبقت به إرادته. إن شاء سبحانه فتح لعبده مغاليق الأمور، وهدى ذهنه إلى حل المعضلات، وكشف المعميات، واستخراج النتائج الصادقة من المقدمات. وأن شاء نحى عنه عنايته، وحرمه معونته فضل طريقه، وتاهت منه البدهيات، وتخطب في

الضروريات، ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ

شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ وبدهي أنها أسباب العلم ووسائله. وإنما يكشف الله تعالى من معلومات لمن أراد من خلقه، ما به تتحقق عمارة الكون وتنظيم شئونه وإفراغه في الوضع الذي سبقت إرادة الله تعالى بأن يكون عليه من خير حتى يبلغ الأمد المقدر له أن يبلغه، ويحين حين فناءه وتلاشيته.

ثم إن هذا الجزء من المعلومات الذي كشف الله تعالى عنه لمن شاء من خلقه وإن كان في ذاته كثيرا وكثيرا جدا، إلا أنه بالنسبة إلى علم الله تعالى لا يكاد يذكر. وأين القطرة من البحر؟ وشتان بين الجبال الشامخة والذر!! ومن ثم قال الخضر لموسى عليهما الصلاة والسلام حين نقر العصفور بمنقاره ماء البحر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

هذا وفي كلام بعض الكاتبين اتجاه إلى قصر المعنى على الأمور الغيبية فقط، وجعلها من باب قوله سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى

مِنْ رَسُولٍ﴾ وعليه يكون المعنى: ولا يحيطون بشئ من علم الغيب إلا ما شاء الله أن يطلع عليه بعضهم. وهذا الغيب هو الذي تضمنته الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾. وهذا في نظري غير متجه. لأنه يؤدي إلى قصر اللفظ على بعض ما يدل عليه من غير أن يكون ثمة ما يتطلب ذلك. بل لو قلنا أن التعميم هو الذي يقتضيه المقام لما كنا متجاوزين. إذ المقام مقام تمجيد الله تعالى، وإشادة بما له سبحانه من جلال وعظمة، وكمال لا يدانيه كمال.

ثم قال سبحانه:

﴿وَسِعُ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ : يقال وسع فلان الشيء إذا احتمله وأطاقه وأمكنه القيام به، ولا يسعك هذا أي لا تطيقه ولا تحتمله. ومنه الحديث: "لو كان موسى حيا ما وسعه إلا إتباعي" أي لا يحتمل غير ذلك. والكرسي هو ما يجلس عليه ولا يفصله عن مقعد القاعد شيء ﴿وَلَا يَبُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ يقال، آداه يؤوده إذا أثقله وأجهده. فالمعنى: ولا يتقله حفظهما.

المعنى: لفت الحق سبحانه وتعالى عباده إلى ناحية من نواحي عظمته، وقرر أن له سبحانه كرسيًا وسع السموات والأرض واحتواهما واحتملتهما وأطاقهما وتكفل بحفظهما من غير أن يكون لذلك أدنى تأثير عليه، أو أقل إجهاد له.

وإذ كانت السموات والأرض أعظم ما أدركته حواس الإنسان من الموجودات، وأروع ما وقعت عليه العين من الكائنات، وكان الحق سبحانه وتعالى قد أثبت لذاته الكريمة ملكها والتصرف المطلق في شئونها، فإن في إثباته لذاته ملك ما هو أعظم منها، وما تتضاءل بجانبه إذا قيس به؛ تنبيهًا أيما تنبيه إلى أن عظمته سبحانه لا تحدّها الحدود، ولا تدرك مداها الأذهان.

وسواء قلنا بعود الضمير في ﴿يُبُودُهُ﴾ على الله أو على الكرسي، فإن المعنى مستقيم لا مأخذ عليه، بل أن إعادة الضمير على الكرسي تجعل المعنى أبلغ. لأنه إذا كان الكرسي وهو مخلوق من مخلوقات الله، وأثر من آثار قدرته يطبق السموات والأرض ويحتملهما، ولا يتقله حفظهما، فكيف بخالقه وممده بأسباب القوة والمتانة وهو الله جلت قدرته.

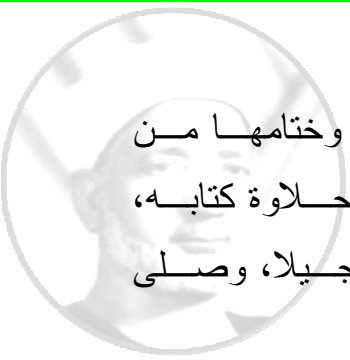
وقد ذهب العلماء في تحديد معنى الكرسي المتحدث عنه مذاهب مختلفة، مع إجماع الكل على أن المعنى اللغوي المتبادر من اللفظ، وما يستتبعه من لوازم غير مراد، لاستحالة نسبة ذلك إلى الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. تقدست ذات الله عن مشابهة الحوادث.

فمنهم من قال: كرسية: علمه. ونسب هذا القول إلى ابن عباس رضي الله عنهما. ومنهم من قال: كرسية: قدرته التي يمسك بها السموات والأرض. ومنهم من قال: إن هذا تمثيل لعظمة شأنه عز وجل وسعة سلطانه، وإحاطة علمه بالأشياء قاطبة، وإن الحق سبحانه خاطب عباده في تعريف ذاته بما ألفوه واعتادوه في ملوكهم، وعظمائهم. ومن ذلك قوله سبحانه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ يَمِينِهِ﴾.

بينما لا قبضة ولا قابض ولا يمين بالمعنى المألوف المعروف إنما كله تقريب للمعنى المراد غرسه في الأذهان، واستعانة بالشاهد على الغائب على مقتضى الأسلوب العربي.

ومنهم من قال: إن الكرسي جسم عظيم بين يدي العرش يسع السموات والأرض ويحتويها في جوفه، وهو الفلك الثامن وهو رأى الأكثرين. وروي أيضا عن ابن عباس وفيه الحديث: "يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة"، أخرجه الآجري والبستي في صحيح مسنده. ويقول الفخر في تفسيره: إن القول بهذا الوجه الأخير أولى، ولئن كان لما قبله وجه قوي إلا أنه لا يعدل عن الظاهر إلا الدليل وقرينة صارفة وليس هنا ما يستوجب ذلك. انتهى معناه.

وقد اختتم الحق سبحانه الآية الكريمة باسمين من أسمائه، انطويا على صفتين من صفاته. وهما ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ وبدهي أن العلو والعظمة بمعناها الحسي المألوف مستحيلان على الله تبارك وتعالى، وذلك من أوليات العقيدة الإسلامية ومن ثم فمعنى: ﴿الْعَلِيُّ الْمَتَعَالَى﴾ عن الأشباه والأنداد. فهو صفة تنزيه وتقديس. وقيل المراد علو القدر والمنزلة. و﴿الْعَظِيمُ﴾ ذو العظمة. أي صاحب المهابة والقهر والغلبة والكبرياء الذي يستحق كل شيء بجانب



عظمته جل جلاله. هذا وإن روعة التناسق بين صدر الآية وختامها من
الظهور والوضوح بمكان، وإننا لنرجوه سبحانه أن يذيقنا حلاوة كتابه،
ويقذف في قلوبنا روعة تنزيله، ويملاً مشاعرنا تعظيماً له وتبجيلاً، وصلى
الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أخف الأضيق الشيخ محمد سليمان سليمان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
﴿س﴾ وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٤﴾

تمهيد

(أولاً): سورة يس من السور المكية التي أنزلت على الرسول ﷺ وهو بمكة المكرمة. وهذا شبه إجماع لم يشذ عنه إلا طائفة قالت: إن آية (ونكتب ما قدموا وآثارهم) مدنية نزلت في حق بني سلمة من الأنصار حينما هموا بترك منازلهم بأطراف المدينة والانتقال إلى جوار المسجد النبوي.

(ثانياً): تميزت السورة المكية عامة بطابع خاص في أسلوبها وأهدافها وقضاياها التي تولت معالجتها، وإبراز الحق فيها. وهو طابع تجاوب فيه التنزيل مع مقتضيات الظروف والملابسات التي واجهتها الدعوة المحمدية إذ ذاك.

فمكة كانت الموطن الأول للدعوة كما هو معلوم. وعلى أديمها دارت معاركها الأولى، وبين جنباتها كان اصطرار التوحيد والوثنية، ومغالبة الحنيفية الجاهلية، من بدء الدعوة حينما صدع النبي الكريم بأمر ربه، إلى أن أذن له بالهجرة، ونقل موطن الدعوة إلى المدينة، إلى حيث أوت إلى ركن شديد، وتفرغ الرسول إلى تقرير مبادئ دينه الحنيف وفروعه بعد توطيد دعائمه الأولية.

وفي مكة كانت العقيدة الإسلامية بما انطوت عليه من تقرير التوحيد، وانتزاع جذور الوثنية، والمناداة بالبعث والنشور، وما يتبعه من حساب وثواب أو عقاب، كان ذلك أول ما عنى به الرسول ﷺ وتركزت جهوده حوله باعتباره الأساس الذي سيبني عليه صرح الإسلام والذي لا بقاء لغيره بدونه ولئن كان قد عنى في هذه الحقبة من تاريخ الدعوة بغير العقيدة من نواحي الإصلاح الخلقي الاجتماعي، وحارب الكثير من سيء العادات وقبيح التقاليد

التي كانت تحفل بها الحياة في الجاهلية، إلا أن عنايته بالأولى كانت أبرز وأظهر، ولذا كانت ثورة المشركين بإزائها، وجهودهم في مناهضتها أشد وأضخم.

بذلك كله كان الحديث عن العقيدة الإسلامية بأقسامها الثلاثة: الإلهيات والنبوات والسمعيات، هو اللون الغالب على القسم الذي نزل بمكة من القرآن الكريم. بينت فيه أتم التبيين، وفصلت أكمل التفصيل، كما صنعت حججها القاطعة، وبراهينها الدامغة، وفندت الشبهات التي أثيرت حولها في أروع الأساليب وأحكمها، وأدقها وأوفاهها، وأسرعها نفاذاً إلى الوجدان، وأقواها تأثيراً على القلوب.

(ثالثاً): وعلى هذا النسق الكريم نزلت سورة يس. فأياتها تدور وتلتقي حول هذا الهدف الأسمى، تركز أسسه، وتدعم قواعده. بدأت بالرسالة تثبتها وتحدد شخصية الرسول المختار لحمل أعبائها، ثم بمعجزته الكبرى التي تمثلت في كتابه الكريم، تنفي حوله ما حاول المضللون أن يلصقوه به، كما تعرضت لبيان أثر هذه الرسالة، وانقسام الناس بإزائها إلى قسمين. ثم انتقلت تقص أنباء أمة من الأمم السابقة، وقفت من رسلها موقف المشركين من نبيهم مبنية ما جره عليها اللجاج والعناد من وخيم العواقب، ثم ذهبت تلفت الأنظار وتوجه الأذهان إلى ما نصبه الله تعالى في الأنفس والآفاق من الآيات البينات التي تهدي إليه، وتدل عليه، وتزيل اللبس، وتدفع الريب عن عقيدة البعث التي قام لها المضللون وقعدوا، ونشروا حولها من ظلال الشكوك ما نشروا، وظنوا بإزائها أنهم قد وقعوا على ما به يهون عليهم إفحام محمد ﷺ وإسكات صوته نهائياً.

وهكذا تسير آيات السورة الكريمة متوخية هذا الهدف، متعرضة في غضون الحديث عنه، وإقامة الأدلة عليه إلى دحض ما يثيره ويهرف به قالة السوء من أولئك الأفاكين، مفصلة الحديث عن بعض المواطن الأخروية التي

يشتد فيها الهول على المكذبين، وتحف فيها ألوان التكريم بالمؤمنين المصدقين، إلى أن تنتهي بتقرير السلطان المطلق لله تعالى، ورد الأمور كلها إليه، والتذكير بأن المرجع إليه وحده حيث يجزى كل امرئ بما قدمت يداه.

(رابعاً): ولهذا نجد الرسول الكريم ﷺ يوجه أنظار المؤمنين إلى السورة الكريمة، ويدعوهم إلى الإكثار من تلاوتها، وتغذية القلوب بها، مبيناً ما لهم عند الله على ذلك من عظيم الأجر وكبير المثوبة، فيقول ﷺ: "قلب القرآن يس لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر الله له. أقرءوها على موتاكم" رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن معقل بن يسار. ويقول أيضاً: "من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له" رواه مالك وابن السني وابن حبان في صحيحه عن جندب. وفي رواية الترمذي عن أنس عن رسول الله ﷺ: "إن لكل شئ قلباً، وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات". زاد في رواية "دون يس" وفي مسند الدارمي عن شهر بن حوشب قال: قال ابن عباس: "من قرأ يس حين يصبح أعطى يسر يومه حتى يمسي، ومن قرأها في صدر ليلته أعطى يسر ليلته حتى يصبح" وغير ذلك آثاره كثيرة في فضلها.

(خامساً): وغير خاف أن مرد ذلك الفضل الكبير ليس الألفاظ والحروف فحسب، وإنما مرده ما انطوت عليه السورة الكريمة من معان بها تزكو النفس، ويظهر القلب، ويتصل الوجدان بالله رب العالمين. ومن ثم فمن المستبعد أن يدرك هذا الخير العظيم من وقف في تلاوته عند حد ترديد الألفاظ، وتحريك اللسان بالكلمات من غير فقه لمعناها وتيقظ لمغزاها. وهذه من ناحية هامة ينبغي أن يتنبه إليها أولئك الذين يأخذون من الأحاديث ظواهرها، ويقنعون من القرآن بتلاوة الغافلين ظناً بأنهم تكفيهم. والله يتولى هدانا أجمعين.



المفردات

(س): قيل فيها ما قيل في مثيلاتها من فواتح السور:

فريق ذهب إلى أنها كلمات تعبدنا الله بها، وستر عنا علمها، وحجب سرها وأن موقفنا منها ينبغي أن يكون موقف التفويض والتسليم: نؤمن بأنها من كتاب الله تعالى المنزل على عبده محمد ﷺ، ونتلوها تعبدًا وتقربًا، ونكل علم معناها إلى الله، ولا نحمل أنفسنا عناء التفكير فيه، ما دام لا سبيل لنا إليه. وفي هذا يقول أبو بكر ﷺ: "في كل كتاب سر، وسره في القرآن أوائل السور"، كما يقول علي ﷺ وكرم الله وجهه: "إن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي" كذلك سئل الشعبي عنها فقال: "سر الله فلا تطلبوه".

ومن رأى العلامة الفخر الرازي: أن فواتح السور تمثل الجانب التعبدية المحض من العبادة اللسانية، وأن من حكمتها أن يجمع لهم ذلك في العبادة البدنية. وفي ذلك يقول رحمه الله: إن الأفعال التي كلفنا بها قسمان: منها ما نعرف وجه الحكمة فيها على الجملة بعقولنا كالصلاة والزكاة والصوم. فإن الصلاة تواضع محض وتضرع للخالق، والزكاة سعي في دفع حاجة الفقير، والصوم سعي في كسر الشهوة. ومنها ما لا نعرف وجه الحكمة فيه كأفعال الحج فإننا لا نعرف بعقولنا وجه الحكمة في رمي الجمرات والسعي بين الصفا والمروة والرمل والاضطباع، ثم اتفق المحققون على أنه كما يحسن من الله تعالى أن يأمر عباده بالنوع الأول فكذا يحسن منه الأمر بالنوع الثاني. لأن الطاعة في النوع الأول لا تدل على كمال الانقياد لاحتمال أن المأمور إنما أتى بما أمر به لما عرف بعقله من وجه المصلحة فيه. أما الطاعة في النوع الثاني فإنها تدل على كمال الانقياد ونهاية التسليم لأنه لما لم يعرف فيه وجه مصلحة البتة لم يكن إتيانه به إلا لمحض الانقياد والتسليم. فإذا كان الأمر كذلك في الأفعال فلم لا يجوز أيضا أن يكون الأمر كذلك في

الأقوال، وهو أن يأمرنا الله تعالى تارة أن نتكلم بما نقف على معناه، وتارة بما لا نقف على معناه، ويكون المقصود بذلك ظهور الانقياد والتسليم من الأمور للآمر. بل فيه فائدة أخرى وهى: أن الإنسان إذا وقف على المعنى وأحاط به سقط وقعه على القلب، وإذا لم يقف على المقصود مع قطعه بأن المتكلم أحكم الحاكمين فإنه يبقى قلبه ملتفتا إليه أبدا ومتفكرا فيه أبدا، ولباب التكليف إشغال السر بذكر الله تعالى أن في بقاء العبد ملتفت الذهن مشغول الخاطر بذلك أبدا مصلحة عظيمة فيتعبده بذلك تحصيلًا لهذه المصلحة. انتهى كلامه رحمه الله وهو وجيه جداً، ويعززه مدح الله تعالى للمنطبعين بهذه الصفات في قوله عز وجل ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

ويقابل هذا الفريق المفوض المسلم فريق آخر أبى أفراده أن يقفوا عند هذه النظرة إلى فواتح السور، واعتبروا ذلك قصورا في الفهم وتقصيرا في حق القرآن بل مخالفا من جهة نظرهم لبعض نصوصه المصرحة بأنه عربي مبين وهدى للناس ونور وكتاب مبين وشفاء لما في الصدور إلى آخر ما عززوا به موقفهم مما يطول الحديث عنه. وهؤلاء اختلفوا فيما بينهم في المعنى المراد منها، وليس بغريب أن يختلفوا ما دام لم يرد في الموضوع نص يقطع مادة الأخذ والرد.

وأبرز هذه الأقوال وأقواها في نظر الكثيرين: أن هذه الفواتح أسماء للسور التي صدرت بها، وهو رأى الخليل وسيبويه. قالوا سميت بها إيذانا بأنها كلمات عربية معروفة التركيب من مسميات هذه الألفاظ، ويقرب من هذا ما قاله الكلبي والسدي وقتادة من أنها أسماء للقرآن. كذلك قيل أن كل حرف منها يشير إلى اسم من أسماء الله أو صفة من صفاته. فمثلا: الألف أحد أو الله، واللام لطيف، والميم ملك وهكذا. وقيل أنها أحرف مسرودة

وردت مورد التحدي تنبيهها للجاحدين على أن القرآن الذي عجزوا عن الإتيان بمثله أو ببعضه ليس إلا من هذه الحروف التي منها نظم كلامكم، وعليها قوام لغتكم، فعجزكم عن ذلك دليل على أنه من عند خالق السموات والأرض لا من عند محمد ﷺ كما تزعمون.

وفى (يس) خاصة، قيل معناها: يا إنسان، وقيل يا سيد البشر. والمنادى على كلا القولين هو محمد ﷺ. كذلك قيل هو اسم من أسماء النبي ﷺ. وذكر القرطبي في هذا المعنى حديثاً مروياً عن علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول "إن الله تعالى أسماني في القرآن سبعة أسماء، محمد وأحمد وطه والمزمل والمدثر وعبد الله" فإن صح وروده كان مرجحاً للرأي الأخير، بل نصاً فيه. والله أعلم.

(الحكيم) ذو الحكمة: لأنه انطوى عليها ونطق بها، فهو كالحكي المتكلم، أو معناه: المحكم، بفتح الكاف، أي المبرأ من التناقض والبطلان ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الصراط: الطريق، والمراد الطريق المعنوي وهو الشريعة والدين. والمستقيم: المعتدل الذي لا اعوجاج فيه، ومعلوم أنه أقرب المسالك توصيلاً إلى الهدف والغاية. والدين كذلك فإنه توجه إلى الله تعالى وتوّل عن غيره، والمقصد هو الله، والمتوجه إلى المقصد أقرب إليه من المُوَلِّي عنه والمنحرف في سيره.

﴿الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ العزيز: الغالب الذي يخضع الكل لسلطانه وقهره. والرحيم ذو الرحمة، وهي بالنسبة إلى المخلوق الرقة والتعطف، وبالنسبة إلى الخالق عز وجل الإحسان والمنح والعطاء.

المعنى: صدع النبي ﷺ بأمر ربه ورفع الصوت عالياً يدعو قريشاً إلى توحيد الله وإخلاص العبادة لذاته الكريمة فقط ونبذ تلك الأصنام والأوثان التي لا

تسمع ولا تبصر ولا تغنى عن عابديها شيئا، وأعلم قومه بأنه مرسل إليهم من الله عز وجل خالق السموات والأرض وأن لهم أن يختاروا بين أمرين: إما الاستجابة إليه ووراءها عز الدارين وسعادة الحياتين وإما الإعراض عنه ورفض دعوته، وعندئذ ستحق عليهم الكلمة وتدور عليهم الدائرة ويذيقهم الله أليم العذاب.

وقد كان نصيبه ﷺ من قومه وهو يدعوهم إلى الخير والسعادة، ويعمل جاهدا على النهوض بهم دينيا وخلقيا واجتماعيا، طرازا من نصيب إخوانه المرسلين من أقوامهم، لم يستجب له إلا القليل الذين لا خطر لأكثرهم ولا شأن، بينما وقف الباقون موقف التعالي والمكابرة واللجاج يرمونه بالكذب والافتراء على الله وقد كانوا بالأمس القريب يلقبونه (بالصادق الأمين) ويقولون له كما حكى القرآن لست مرسلا. فيجيبهم بما أمر أن يجيبهم به: ﴿كَلِمَةً بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ثم يحاولون التشكيك في كتابه المنزل عليه، ويزعمون مرة أنه إفك افتراه، وأخرى أنه أساطير الأولين، وثالثة أنه كهانة أو سحر، بينما كانوا هم أول من أقام الدليل القاطع (في نظر المنصفين) على تخطيهم وكذبهم وتهريجهم، حينما تحداهم بأن يأتوا بمثله أو ببعضه فعجزوا عجزا تاما مع مزيد حرصهم على ذلك إنقاذا لموقفهم.

لا جرم. انتصر الله لنبيه، ورد على المفتريين فريتهم وفند مزاعمهم، وخطب نبيه خطابا معززا بالقسم، مؤكدا مضمونه بأداتي تأكيد. هي إن واللام الداخلة على خبرها، وشهد له ﷺ:

(أولا): بأنه رسول اختاره سبحانه واجتباها كما اختار واجتبا قبله إخوانه المرسلين، وأنه سبحانه أقامه ناطقا بوحيه متحدثا بكلامه، مبلغا أوامره موضحا هدية وشرعته.

(ثانيا): بأن سبيله وخطته ونهجه ومبادئه التي يلتزمها ويأخذ نفسه بها، ثم يدعو الناس إليها، ويحاول جاهدا حملهم جميعا عليها، هي الطريق الحق،

والنهج الأقوام الذي شخص الداء، وحدد عناصر الدواء، ورسم سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، وذلك قوله سبحانه **﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾** وإذ قد كان ﷺ لا ينطق عن الهوى ولا يصدر في حركاته وسكناته وأعماله وأقواله إلا عن هدى الله تعالى ووحيه، وما أعماله وأقواله إلا صورة صادقة لما جاء به الكتاب الكريم من أوامر ونواه وتوجيهات رشيدة سديدة محكمة، لذلك شهد له ربه.

(ثالثاً): بأن ما هو عليه، ما جاء به، وما بلغه للناس إنما هو تنزيل من الله تعالى، نزل به الروح الأمين عليه لإنقاذ البشرية مما تردت فيه، وتخليص الجزيرة العربية من أغلال التقاليد المستهجنة، والعادات المردولة المتوارثة التي زرعتها في البيئة العربية قرون الجهالة والتخبط والظلمة. و**﴿تَنْزِيلٌ﴾** قرئت بفتح اللام وبضمها. والتقدير على الرفع هو تنزيل العزيز الرحيم، وعلى النصب: أمدح تنزيل العزيز الرحيم، والمآل في القراءتين واحد، وهو الإشادة بمكانة القرآن، والرد على ما يرميه به المكابرون من فرى وأكاذيب.

ولعلك تشعر معي أيها القارئ الكريم بأن اختيار الاسمين الكريمين **﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾** دون غيرهما من الأسماء الكريمة للإضافة إلى كلمة **﴿تَنْزِيلٌ﴾** لا بد وأن يكون منطوياً على حكمة. وأرى، والله اعلم بأسرار كتابه، أنها في الأولى وهى تحمل معنى الغلبة والقهر: البشارة للنبي ﷺ ومن اتبعه بالنصرة والتأييد، وأن كلمته ستعلو ولا بد من ودينه سيظهر حتماً، والإنذار للمعارضين بأن معارضتهم ستبوء بالخيبة والفشل، وأن الدائرة ستدور ولا بد عليهم. ذلك لأن القانون والدستور الصادر من عزيز غالب لا بد وأن يعز ويغلب مهما تآزرت ضده قوى الفساد. أما الثانية ففيها إشارة إلى أن القرآن وهو كتاب الوجود ودستور الحياة، وأساس السعادة الحققة، إنما صدر فيضاً من ينبوع

الرحمة الإلهية، وصوبا من سحائب الجود الرباني ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُسَمِّيَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿تَنْذِرُ قَوْمًا مَّا أَنْذَرِ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ. لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ، وَسَاءَ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْنَاهُمْ أَمْ لَمْ تَنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿تَنْذِرُ﴾ الإنذار كالتبشير كلاهما إخبار بأمر. غير أنه في الأول إخبار بما يثير في النفس الخوف والرعبة عادة وفي الثاني بما يحيي فيها الأمل ويوجد حالة من السرور والابتهاج.

﴿فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ الغفلة غيبة الشيء عن بال الإنسان وعدم تذكره له. وقد استعمل اللفظ فيمن تركه إهمالا وإعراضا، كما في قوله عز من قائل ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾.

﴿حَقَّ الْقَوْلُ﴾: حق الشيء ثبت ووجب والقول: هو ما تضمنته الآية الكريمة: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿أَغْلَالًا﴾ الأغلال جمع غل، وهو طوق من حديد يوضع في العنق ﴿مُقْمَحُونَ﴾ أي رافعو رعوسهم لا يستطيعون الإطراق. الأصمعي. يقال: أقمحت الدابة إذا جذبت لجامها لترفع رأسها. وعن عبد الله بن يحيى: أن على بن أبي طالب رضي الله عنه أراهم الإقماح فجعل يديه تحت وألصقهما ورفع رأسه.

المعنى: تكون هذه الآيات الكريمة والتي قبلها وحدة واحدة من ناحية الموضوع. إذ يجمعها إنها حديث عن الرسالة المحمدية، وتجلية لبعض نواحيها. ففي الآيات السابقة أيد الله تعالى نبيه، ورد فريضة أعدائه، وشهد له شهادة صريحة معززة بالقسم بأنه من عباده المصطفين الأخيار الذين اختارهم الله تعالى لحمل هدايته وتبليغ دعوته، كما شهد له بأنه يصدر فيما يأتي ويذر عن نهج قويم، وصراط مستقيم، منزل من الحكيم العليم. وفي الآيات يبين ويقرر ما يأتي:

(أولاً): هدف الإرسال وغايته، والمهمة التي نيط بالرسول ﷺ القيام بها. وفي ذلك يقول الحق سبحانه **﴿تُنذِرَ قَوْمًا..الآية﴾** والمعنى إنك مرسل من لدنا لتدعو إلى الحق والعقيدة السليمة قوما تباعدت بهم الأزمنة عن مصادر الهداية والرشد، وخلا قرنهم وقرون قبلهم من داع يدعو إلى الله، وينطق بوحى السماء. فهم لذلك فى جهالة عمياء، وغفلة مطبقة، تراكمت حججها على قلوبهم حتى أصمتها، وحالت بينها وبين الإحساس بالخير وإدراك الأمور على وجهها الصحيح.

والقوم المتحدّث عنهم فى الآية هم: العرب وأهل الكتاب. إذ أن كلاً منهما مرت به حقاب طويلة عرى فيها عن النذير، العرب من عهد إسماعيل، وأهل الكتاب من عهد روح الله عيسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام.

هذا. والحكمة فى جعل الإنذار فى الآية هدف الدعوة المحمدية، والغاية المقصودة من الإرسال، التنبيه إلى أن مهمة الرسول ﷺ فى دعوته تقف عند هذا الحد ولا تتخطاه، أما ما وراء ذلك من تكيف النفوس بالدعوة، ووقوعها منها موقع القبول المستتبع الانقياد والطاعة، وتوفر

الهمة على الإجابة، فهو خارج عن مهمة الرسول ﷺ، وليس في طوقه التدخل فيه، وهو بعد من اختصاص الحق سبحانه الذي استأثر به. ومن ثم خاطب نبيه بذلك صراحة في مواضع أخرى من الكتاب الكريم كقوله عز من قائل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وكقوله سبحانه: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقوله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾.

وإذا كان الأمر كذلك، وكان كل ما يطلب من الرسول ﷺ هو التبليغ والبيان، والتذكير بأيام الله، والتخويف من نعمته وسخطه على الخارجين المخالفين. فإن عليه أن لا يحمل نفسه عبء التفكير فيما وراء ذلك، وأن لا يدع الهم والغم والحزن والحسرة تتسرب إلى نفسه، وتسيطر على مشاعره، إذا ما وجد ممن يحرص على هداهم إعراضا ولجاجاً. ولذلك يوجهها الله إليه ﷺ صريحة رحمة به وترفيها عنه فيقول له ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

كما أن الحكمة في الاكتفاء بالإنذار عن مقابله وهو التبشير مع أن الاثنين من عمل الرسول ﷺ، وقد جعلنا غاية للإرسال في آية أخرى، أن الحديث عن قوم فعلت الغفلة فيهم فعلها فغلظ حجابهم وتحجرت أفئدتهم، وغلبهم الإلف على أمرهم، ومثل هؤلاء في احتياج إلى ملهب لعواطفهم، محرك لمشاعرهم، يقرع آذانهم وأذهانهم، ويهز حواسهم هذا عنيفا يكفل زحزحة ما ران على القلوب من أكنة، وما تجمع في جوها من سحب.

(ثانياً): صدق الدعوة المحمدية، وموقف الناس منها. وهذه نقطة تكفلت الآيات التالية بإيضاحها. فبينت أن نصيب هذه الدعوة الكريمة كان الإعراض والإدبار والاستتكار من الأكثرية التي عز عليها أن تفارق ما ألفت وأن تقاطع ما اعتادت، وأن تنتقل من إباحية مطلقة تدرك النفوس فيها كل ما تشتهي إلى حياة مقيدة بأوامره ونواه، ورسوم

وحدود، كما عز على الزعماء علاوة على ذلك أن يتنزلوا من عليائهم ويسلموا مقاليد الزعامة إلى شخص هو في نظرهم (مهما سما خلقه وطهرت نفسه) فقير يتيم ومن ثم فإنهم وقد ارتضوا لأنفسهم موقف المكابرة والعناد، يكونون ممن حق عليهم القول من أولياء الشيطان الرجيم الذين خسروا الخسران المبين. وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف بعبارة أصرح وأوضح في سورة فصلت. إذ يقول سبحانه حاكيا عنهم: ﴿فَاَعْرَضْ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ.

وعلى حسب نهج القرآن من الاستعانة بالمحسنات المرئية وسيلة إلى إيضاح المعاني الغائبة، وتقوية الشعور بها في النفس. سلك القرآن هنا هذا المسلك وعمد إلى التمثيل في بيان مدى حرمان هؤلاء، وإيضاح مبلغ تصميمهم على الكفر وتشبثهم بما هم عليه، وذلك في قوله سبحانه ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ الآيتين، فصورهم في صورة أشخاص غلت أعناقهم بالأغلال التي تراكمت حتى زاحمت الأذقان، وأجبرتهم على أن يظلوا رافعي الرعوس ناصبي الأعناق، مضافا إلى ذلك ما أقيم حولهم من سدود انتصبت بين أيديهم وخلف ظهورهم وارتفعت حتى حجبت عنهم الرؤيا فأصبحوا لا يكادون يحسون تقريبا بشئ مما حو اليهم.

والمقصود من هذا التصوير بيان حالتهم النفسية بالنسبة إلى الدعوة المحمدية، وأنهم وقد عطلت الأغراض أسمائهم وثلت الأهواء عقولهم، وسيطر اللجاج على مداركهم، أصبحوا صما بكما عميا، لا يرون الحق مهما كان أبلج واضحا ولا يعون مما يسمعون إلا ما يزيدهم ضلالا، ويملأهم غيا وفسادا، ومن ثم فلا ثمرة لمجهودات الرسول ﷺ بالنسبة إليهم. وهذا هو الذي تضمنته الآية الكريمة: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآية إذ هو تئيس من إيمانهم صراحة بعد التنبيه إليه تمثيلا. والمعنى: أن هؤلاء الذين أصموا عن الحق آذانهم وتشبثوا بما أملت عليهم أهواؤهم، مستو عندهم إنذارك إياهم وعدمه، ونتيجة الأمرين بالنسبة إليهم سواء كفر وضلال وجحود ومكابرة، وما كان

للدليل مهما كان قويا، ولا للبرهان مهما كان ناصعا أن يرد إليهم عقولهم، أو يقوم معوجهم، ﴿قَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ ، و﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

﴿الذِّكْرُ﴾: قيل هو القرآن. لما فى الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقيل: ما فى القرآن من آيات بينات وعظات بالغات. والقائل بهذا استند إلى الآية ﴿وَالْقُرْآنُ ذِكْرٌ﴾ فجعل القرآن صاحب الذكر لا نفس الذكر. وقيل البرهان فانه ذكر يكمل الفطرة الإنسانية، ويدفع بالعقل إلى الاقتناع بالحقائق والقضايا الصحيحة ما دام مجردا من لوث الهوى.

﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ الخشية: الخوف وهو باعتبار باعثه نوعان: خوف عقوبة، وذلك خوف العامة من المذنبين، وخوف تعظيم وإجلال، وذلك خوف الخاصة من المقربين، وإنما يكون حيث يقوى العلم بالله، ويكمل الإحسان بجلاله. وكلما ازداد العلم بالله تضاعف الخوف منه ولذلك قال ﷺ: "أنا أعلمكم بالله وأخوفكم منه".

﴿بِالْغَيْبِ﴾ كلمة وقعت حالا مما قبلها. وصاحبها إما الضمير المستتر في خشي، وإما المفعول وهو الرحمن والمعنى على الأول وصف من قامت به الخشية بالغيبه عن الله. أي خشي الرحمن حال كونه محجوبا عنه، غير مشاهد له لتعالیه وتقده عن أن تدركه الأبصار. والمعنى على الثاني وصف الحق سبحانه بالاحتجاب عن قامت به الخشية أي: خشي الرحمن حال كونه سبحانه محتجبا بصفات الجلال عن أبصار عباده، والنتيجة الخارجية بالنسبة إلى التقديرين مستوية. وهى انبعاث الخشية عن الإحساس الوجداني بالله. ومن كان كذلك استوي سره وعلائيته وحضوره وغيبته.

المعنى: هذه الآية تكملة للحديث عن الرسالة وأثرها بين الناس. وفيها بيان لماهية الطائفة التي انتفعت بدعوة الرسول ﷺ واجتنبت ثمار إرشاده وهدايته، والتي هي جديرة بأن يضاعف الرسول الكريم من عنايته بأفرادها، ويضفي عليهم من بحر فيضه وفضله الشيء الكثير، ويطمئن قلوبهم بالوعد الكريم المنبئ بما لهم عند الله تعالى من فضل وتعظيم.

ومصّب الحصر المستفاد من (إنما) وموقعه هو الإنذار الذي استتبع آثاره وآتى نتاجه، ومن ثم فلا تنافى بينه وبين ما تفيدده الآية السابقة ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ من العموم إذ المراد هناك الإنذار بمعنى توجيه الدعوة مصحوبة بإيضاح ما يترتب على الإعراض عنها من عقوبة، بصرف النظر عن الاستجابة إليها من عدمه.

والمعنى: إنما يثمر إنذارك، وينفع تذكيرك، من اتبع الذكر. أي أنزل القرآن الكريم من نفسه المنزلة اللائقة به، ونظر إليه النظرة التي يستحقها، فتلقى بالقبول كل ما جاء به، واتخذته مستشاره الأول، ومرجعه الأخير، وقانونه الأسمى، يرجع إليه في كل ما يعن له، ويصدر في تصرفاته عن أوامره ونواهيه.

﴿وَحَشِيَ الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ﴾ أي امتلأت نفسه إيماناً بالله الذي لا تدركه الأبصار، وانطوى قلبه على الإحساس بعظمته والشعور بهيمنتته وشمول رقابته، فاستوى سره وعلا نيته، وطابقت خلوته جلوته. فهو التقي حضر الناس أم غابوا، وهو العفيف رمقته الأنظار أم انصرفت عنه الأعين، وهو الأمين الوفي رجا أجرا ومكافأة أو لم يرج، وهو السخي الكريم في حالتي قبضه وبسطه، الحليم العفو في حالتي قوته وضعفه، وهكذا وهكذا، لأنه إنما يصدر عن إيمان ثابت ويقين راسخ، بمن لا تفتر رقابته، ولا تأخذه سنة ولا نوم.

لا جرم كان (وتلك حالته) خليقا بكل خير، جديرا بكل بر، حقيقا بعقبى الدار، فأحمل إليه البشرى تملأ قلبه غبطة، وفؤاده سرورا، وبلغه عن الله أن له عنده ما به تقر عينه، وتتعد عليه آماله: له المغفرة الشاملة لما عساه أن يكون قد فرط منه مما غالبته نفسه عليه فغلبته، أو غرر الشيطان به فيه حتى اقترفه، كما أن له الأجر الكبير والعطاء الجزيل على ما تقدم به من القربات. وتحلى به من المكرمات.

وفى نظم الآية الكريمة نجد الوصف بالخشية متأخرا عن الوصف بإتباع القرآن، وحكمة ذلك ظاهرة، وهى المطابقة للترتيب الخارجى. ذلك أن الخشية ثمرة العلم بالله والمعرفة بأيام الله. وذلك إنما يكون عن فقه القرآن والإلمام بما فيه، وتذوق معانيه. ومن ذلك الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

فقه الآيات وهدايتها:

(أولاً): أن ألمراء والتعصب للرأى، هما آفة العقل ودأؤه العضال الذي يسد عليه منافذ التفكير السليم، ويجعله مشلول الحركة محدود الأفق أسيرا لفكرة واحدة طاغية يلف حولها ويدور. وبعيد بل مستحيل على شخص هذا وضعه أن يهتدي إلى صواب. ومن ثم فلزام على من أراد بحث فكرة، أو وزن رأى، أن يجرد نفسه من التحيز إلى ما يضادها، وأن يمهد ذهنه ويعدده قبل النظر فيها لتقبل ما ينتجه بحثه من الحقائق أيا كانت. لأنه إن لم يكن كذلك كان في موقفه عابثا هازلا.

(ثانياً): ومن المستحسن لمن أراد مناقشة شخص فى أمر أو دعوته إلى مبدأ، أن يكون حريصا على استكشاف حالته النفسية، والتعرف على استعداداته الذهني للإقناع والافتناع، حتى إذا لمس منه تعصبا لرأيه، وتشبثا بآلفه، واتجاهها إلى التغلب والظهور على من أمامه من غير تقييد بقاعدة، أو خضوع

لاعتبار، إذا ما لمس ذلك فمن سداد الرأي أن يقطع حديثه، ويترك محاجته إلى ظرف أصلح وفرصة أنسب، احتفاظاً بقواه الذهنية والجسمية، وضناً بها أن تذهب هباء في غير ما فائدة.

(ثالثاً): وليذكر كل مؤمن أن القرآن الكريم هو النبع الصافي الذي تستمد منه العقائد السليمة والمناهج القويمية، وبدونه لا يستقيم للعبد مع الله حال، ولا تطيب له في الآخرة حياة. ومن ثم فمن واجبه الأول أن يجعله قائده وإمامه لا يزيغ عن هدية ولا ينحرف عن سننه، إن كان حقاً يرجو الله واليوم الآخر.

﴿إِنَّا نَحْنُ حَيُّ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ هذه الآية وثيقة الصلة جداً بما قبلها من الآيات، بل هي جزء متم لها بالنسبة إلى موضوعها. بيان ذلك: أن هذه الآية انطوت على تقرير أربعة أشياء من العقيدة الإسلامية هي: إحياء الموتى وكتابة الأعمال وكتابة الآثار وشمول العلم الإلهي لكل شئ. وهي حقائق يترتب على الاعتقاد بها تقريب الهدف المنشود المرجو من الإنذار والتبشير. فإن من يعمل ويتصرف ويمارس ما اعتاد وهو ممتلئ النفس بأن أعماله محصية مسجلة لا يمكن أن يتفلسف منها شئ مهما كان دقيقاً، ليس كمن يباشر ذلك ووجدانه خلو من هذا الشعور. إن إحساس الأول بما ذكر غالباً ما يكون قوة مانعة تحد من اندفاعه الشخصي وراء ميوله وشهواته التي يعلم أن عاقبتها المؤاخذه والعقوبة، كما يكون قوة حافزة دافعة إلى الخير، يغذيها الاطمئنان إلى عدم ضياع شئ من المجهود الخيري دق أم عظم، أما أول هذه الأربعة وهو: إحياء الموتى:

فإنه القضية الكبرى، قضية البعث والنشور التي احتدم الجدل حولها بين رسول الله ﷺ وأعداء دعوته والتي خيل للمشاركين أنها نقطة الضعف فيما جاء به الرسول الكريم، ومن ثم أكثروا من اللغط حولها، وركزوا أكبر قدر من مجهودهم الآثم في محاولة هدمها، ونسج الشكوك حولها، مستغلين

لذلك ما في القول بها من بعد عن المؤلف المعروف. ولنستمع إلى كتاب الله الكريم يحكى عنهم بعض ما قذفت به أفواههم، حيث يقول جل جلاله:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَبْعُوثًا﴾ كما يقول: ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ كذلك يقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُبْسِكُمْ إِذَا مِزْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ومن ذلك: ﴿بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ وغير ذلك من الآيات كثير وفي كل تصوير لما لغطوا به من شبه وأوهام.

وما كان الحق تعالى بالذي يدعهم يقولون ما يقولون، ويفترون ما يفترون. ومن ثم تعقبهم بنقض مزاعمهم، وتقنيد شبهاتهم في أسلوب قوى، ومنطق سليم سائغ لا التواء فيه ولا اعوجاج. فمن ذلك قوله عز من قائل: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَرَّةٍ ثَانِيَةً قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي كما أوجدكم أول مرة من لا شيء يعيدكم ثانية. فما وجه الغرابة؟ وما موطن الاستبعاد؟.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَرُ عَلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ؟﴾ أي ما عجزنا عن الخلق الأول الذي لا يمكنكم إنكاره وأنه كان من لا شيء فكيف نعجز عن الخلق الثاني ومواده موجودة وصورته قائمة إلى غير ذلك من الأدلة والبراهين القوية الواضحة التي لم تدع لقاتل قولاً، ولا لمعارض مستنداً، ولا لمنكر تكأة .

هذا والبعث والنشور كلمتان مترادفتان معناهما واحد هو: إعادة الله تعالى الحياة إلى الخلق بعد إيجاد الأجساد مشتملة على جميع الأجزاء الأصلية التي من شأنها البقاء من أول العمر إلى آخره، ثم بعد ذلك يساقون إلى محشرهم لفصل القضاء. قال عليه الصلاة والسلام: "يا أيها الناس أنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا" ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا

فَاعِلِينَ﴾ الحديث رواه الشيخان عن ابن عباس رضي عنهما.. وفى رواية من حديث أم المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها: "يبعث الناس حفاة عراة غرلا، قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الأذان" الحديث و"غرلا" بضم الغين وإسكان الراء جمع أغرل، وهو الأقف الذي لم تقطع منه الجلد إلى تغلف رأس القضيبي. وهذا من الرسول الكريم مقصود به بيان أن جميع أجزاء الإنسان تعاد بعد الموت كما كانت حتى التافه منها مثل القلفة إلى يقطعها الحلاق في الصغر.

وكيفية البعث والنشور على ما أخذ من عدة روايات: أن العالم يمكن خرابا بعد نفخة الصعق مدة قدرت بأربعين عاما كما في حديث: "إن بين النفختين أربعين عاما" ثم بعد ذلك يرسل الله سبحانه على الأرض مطرا كالظل أو كمنى الرجال يتوالى نزوله أربعين يوما، حتى يصير فوق الأرض اثني عشر ذراعا. وليس من الإنسان شئ إلا يبلى، إلا عجب الذنب وهو عظم صغير جدا كحبة الخردل في نهاية الصلب من الإنسان، منه يركب الخلق يوم القيامة. وفى حديث أبى هريرة عند الشيخين: "وليس من الإنسان شئ إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة" وفى رواية لمسلم: "إن في الإنسان عظما لا تأكله الأرض أبدا، فيه يركب الخلق يوم القيامة، قالوا: أي عظم هو يا رسول الله؟ قال: "عجب الذنب" فينبت الناس كما ينبت البقل ويجتمع لكل جسد ما تفرق منه في مختلف

الجهات وعلى أي الأوضاع كان: ما أكلته السباع أو حيوانات الماء، وما أحرقتة النيران أو أبلته الشمس أو ذرته الرياح، حتى إذا ما اكتملت الأجساد على ما كانت عليه قبل الموت أمر الله تعالى إسرافيل عليه السلام بأن ينفخ في الصور نفخة البعث فينفخ فتطير الأرواح من الصور وتدخل أجسادها، لا تخطئ روح جسدها الذي كانت فيه لما بينهما من الجاذبية والاتصال المعنوي. فيصيرون أحياء كما كانوا في الدنيا وتنشق الأرض عنهم فإذا هم قيام ينظرون.

وفى تفسير الثعلبي عن أبي هريرة رضي الله عنه في تفسير سورة الزمر مرفوعاً: "إن الله يرسل مطراً على الأرض فينزل عليها أربعين يوماً حتى يكون فوقهم اثني عشر ذراعاً، فيأمر الله تعالى الأجساد أن تثبت كنبات البقل، حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت قال الله تعالى: ليحيى حملة العرش، ليحيى جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه، ثم يدعو الأرواح فيؤتى بها، تتوهج أرواح المؤمنين نورا، والأخرى ظلمة، فيقبضها جميعاً ثم يلقها في الصور، ثم يأمره أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح كلها كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ثم يقول الله تعالى: وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى جسدها فتدخل الأرواح من الخياشيم ثم تمشي مشى السم في اللدغ، ثم تشقق الأرض عنهم سراعاً، فأنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون".

ثانياً: كتابة الأعمال: وهو المشار إليه بقوله سبحانه: ﴿وَنُكِّبُ مَا قَدَّمُوا﴾ ما قدموا: ما أسلفوا من عمل. ومن ثم، فكل ما ييدر من العباد من الأقوال أو الأفعال مهما كانت في نظر المتلبسين بها قليلة أو تافهة، كله مسجل أولاً بأول لا يهمل منه شيء كما هو صريح قوله تعالى: ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا

كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) ومن واجب كل مكلف أن يعقد قلبه على ذلك عقد لا يتطرق إليه الوهن والضعف ولا يتسرب إليه شيء من الشك والدخل. إجمالاً في المجمل منه، وتفصيلاً في المفصل على ما سيبين فيما بعد. وإليك ما ورد من الآيات والأحاديث متصلاً بالموضوع. مع بيان أهدافها، لتستطيع أن تلم بالموضوع وتحيط بأطرافه ونواحيه.

ففي أصل الموضوع يقول الله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ويقول عز من قائل: ﴿وَإِنْ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كَرَامًا كَاتِبِينَ * يَلْمُزُوكُمْ مَا تُفْعَلُونَ﴾ والآيتان تقرران بوضوح أصل الكتابة، ودقة الرقابة، وأن الذي يقوم بالتسجيل ملكان من الخيرة الكرام، لا يفلت منهم شيء، ولا يخفى عليهما عمل مهما كان دقيقاً إذ قد زودهما الله تعالى بكل ما يمكنهما من الإشراف الكلي والاطلاع التام على أعمال من وكلا به من بني آدم، ثم تدوين ذلك بالصحائف أولاً بأول. وقد ورد أنهما لا يفارقان العبد إلا عند كشف عورته في خلائه أو غسله أو اجتماعه بأهله، ولكنهما مع ذلك يعلمان ما يبدو منه في هذه الفترة من خير أو شر.

وفي بيان ما يكتب وكيف يكتب: يقول الرسول ﷺ: "إن الله كتب الحسنات والسيئات" (أي حددها وقدر مقادير تضعيفها في اللوح) ثم بين ذلك. فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها (أعرض عنها مع القدرة عليها نفورا منها لله) كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة) والهم بالشيء: ترجيح جانب الفعل على جانب الترك، أما العزم: وهو التصميم فإنه يكتب.

وروى الطبراني والبيهقي مرفوعاً: (كانت الحسنات عن يمين الرجل (أي على عاتقه الأيمن) وكاتب السيئات عن يساره، وكاتب الحسنات أمير

على كاتب السيئات، فإذا عمل الشخص حسنة كتبها صاحب اليمين عشرا، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر" وهذا من عظيم فضل الله تعالى ورحمته بعباده، فلو شاء لأمر بتعجيل الكتابة، فله سبحانه الحمد والمنة، كما أنه من ناحية أخرى قاطع لمادة الاعتذار بعد إذ حلم الله سبحانه على المفرطين هذا الحلم العظيم.

وقد اختلفت العلماء فيما يكتبه الملكان. فقال عكرمة رضي الله عنه: لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر عليه. وقال مجاهد والإمام مالك رضي الله عنهما: إنهما يكتبان أفعال العباد من خير أو شر أو غيرهما قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً همماً كانت أو عزمًا أو تقديراً، فلا يهملان من أعمال العباد شيئاً في كل حال وعلى أي حال حتى الأنين في المرض. وظاهر النص يؤيد الرأي الأخير إذ أن لفظ قول في الآية ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ نكرة وقعت في سابق النفي فتفيد العموم. ونقل هذا الرأي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية الكريمة، إلا أنه زاد أن المباح يحذف من الصحائف عند العرض كل يوم اثنين وخميس.

وأخرج الطبراني عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما مرفوعاً "ما من حافظين يرفعان إلى الله تعالى ما حفظا" فيرى الله تعالى في أول الصحيفة خيراً وفي آخرها خيراً إلا قال للملائكة. اشهدوا أني قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة" وإنها لبشارة عظمى ورحمة كبرى تحمل كل مؤمن حريص على حسن العاقبة على أن يفتتح أيامه بالخير ويختتمها بالخير ليكون له من هذه البشارة والرحمة نصيب.

أما مصير هذه الصحائف التي تسجل فيها الأعمال، ومنتهى أمرها، ومبلغ تأثيرها في نفس صاحبها عند اطلاعه عليها. وفي مستقبله الأخروي فإننا نتبينه من قوا الله عز وجل: ﴿وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٠٦﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٠٧﴾ فالصحائف تكون مودعة في خزائن تحت العرش فتأتي ريح فتثيرها بأمر الله وتحملها كأنها الطائر بحيث تسقط كل صحيفة في عنق صاحبها، ثم ترفعها الملائكة، وتناولها لأصحابها بالإيمان أو الشك على مقتضى حال الشخص من كفر أو إيمان، وعندئذ يطلع كل إنسان على صحيفته، ويقرأ ما فيها ولو لم يكن في دنياه قارئاً. وتكون العاقبة بعد ذلك ما نطق به الكتاب الكريم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا. وَنُقَلِّبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٠٨﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ- بشماله-. فَسَوْفَ يَدْعُو بُرًّا ﴿١٠٩﴾ وَيَضْلَىٰ سَعِيرًا﴾ ويقول كما حكى القرآن: ﴿بِالَّتِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ ﴿١١٠﴾ يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿١١١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ﴿١١٢﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴿١١٣﴾ وَفِي آيَةٍ أُخْرَىٰ: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ قَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ﴿١١٤﴾ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُوا يَا وَيْلَنَا مَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿١١٥﴾﴾.

ثالث الأربعة: كتابة الآثار.

إذ كما تكتب الأعمال تكتب الآثار. والآثار قيل: هي آثار المشاعين إلى المساجد. وعلى هذا المعنى تأول الآية عمر وابن عباس وسعيد ابن جبير. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد. قال: والبقاع خالية. قال فبلغ ذلك النبي ﷺ: فقال: يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم. أي ألزموا دياركم. فقالوا ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا.

وقيل هي أعمال من الخير أو الشر ليست من عمل المكلفين المباشر، ولكنها سجلت عليهم أو لهم نظرا لتسببهم فيها، وذلك كالسنن الحسنة والسيئة التي ظهرت أول ما ظهرت على أيدي بعض المكلفين ثم أصبحت لغيرهم نهجا مرسوما يحتذى ويحاكى، أو كبعض المنشآت ذات الصبغة العامة التي

خلفها منشؤها بعد مفارقة الحياة مصدر نفع أو ضرر. ولئن كانت أعمال هؤلاء الشخصية قد انقطعت بمفارقة الحياة، إلا أن صلتهم بآثارها التي بينها باقية، ومسئوليتهم عنها مستمرة، يضاف خيرها إليهم، ويحسب شرها عليهم، إلى أن تتلاشى من الحياة صورها أو تنعدم من الوجود أعيانها.

ويبدو من صنيع أكثر المفسرين إيثار هذا الأخير وترجيحه، وهو ما نختاره لأنه أقرب وأوثق اتصالا بسياق الآية وسبقها الذي يتجه إلى تحديد الموقف العام للمكفين والحكم على أعمالهم جملة. وهو بعد، يعطينا فائدة جديدة لا وجود لها مع التأويل الأول.

وفي موضوع الآية على التأويل الأخير قوله عليه الصلاة والسلام "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء" وقوله ﷺ: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا" وقوله ﷺ: "ليس من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل". الكفل: النصيب.

وتتمثل آثار الخير في العلم النافع مدارس أو تصنيفا، "قلل علم نصيب في عمل المنتفع بعلمه الصادر عن إرشاده". والتقاليد الصالحة والعادات النافعة التي تستند في مصدرها ونشأتها إلى نص ديني، أو قاعدة شرعية عامة، أو خلق فاضل كريم، وهي المسماة في عرف الفقهاء بالبدع الحسنة يثاب مستنها ما اهتدى الناس بهديه فيها. ومن ذلك المرافق العامة المشيدة لنفع المسلمين، ودينية كانت كالمساجد والربط والأحباس الخيرية. أو دنيوية كالقناطر والمستشفيات والأسبله والآبار والترع وما أشبه ذلك، فللمؤسس

ثوابها ما انتفع الناس بها فى دينهم أو دنياهم ما دامت باقية ولو إلى أن تقوم الساعة.

وفى الحديث: "إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره، أو ولدا صالحا تركه، أو مصحفا ورثه أو مسجدا بناه، أو بيتا لابن سبيل بناه، أو نهرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته، ولدا صالحا أي يعبد الله ويستقيم على الهدى بسبب تربية والده له فله نصيب من صالح عمله بيتا لابن سبيل، أي كدور الضيافة التي شيدها بعض الخيرين ليأوي إليها العاجز والمسافر الذي لا مأوى له. صدقة أخرجها.. الخ. وذلك كالأعيان التي أوقفت ليصرف ريعها فى مصارف خيرية كسد حاجة المحتاج أو النهوض ببعض البائسين.

كذلك تتمثل آثار الشر فى بعض القوانين المالية. كالمكوس والضرائب الجائرة التي ترمى إلى امتصاص أموال الشعوب من غير وجه حق، ومثل آلات الملاهي وصور الحياة الاجتماعية الشاذة التي تنزع إلى التقليد الأعمى للمدنية الغربية الماجنة الخليعة، كالسفور والتبرج والحفلات المختلطة الداعرة الخبيثة، وفضائح الشواطئ والمصايف وما أشبه ذلك من صور الحياة الاجتماعية التي تتنافى مع الدين والفضيلة. كما أن منها القوانين الوضعية التي تقرر الحكم بغير ما أنزل الله، والمؤلفات المضلة التي تروج للزيغ وتدعو إلى الإلحاد، وتهون من شأن المبادئ الإسلامية وتحبذ غير سبيل المؤمنين.

فأولئك وهؤلاء الذين نبت بمجهودهم ما ذكر، ووجدت صوره أول ما وجدت من صنعهم يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم، وتتضاعف سيئاتهم كلما قلدهم فى إجرامهم مقلد، واتبع نهجهم السيئ متبع، أو غر بدعايتهم غر ساذج.

وبعد فهل نطمع أن يذكّر هذا، وينزجر به، أولئك الأغرار الذين جعلوا من أنفسهم أبواقاً تروج للمجون والفسق، والنكبات الأخلاقية باسم الرقي والمدنية؟! ألا فليذكروه؟! وليذكروا يوماً عبوساً قمطيراً لا يجدون لهم فيه من دون الله ولياً ولا نصيراً؟! اللهم إنا ندعوك ونرجوك ونضرع إليك بقلوب ألمها وأدامها ما تحس به من تدهور وانحطاط في معنويات الأمة. أن تهدي أولئك الأغرار إلى طريق الصواب، أو أن تأخذهم أخذ عزيز مقتدر وقاية لدينك وغيره على شرعك إنك سميع قريب على كل شيء قدير.

بقي الكلام على قوله سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾.

وهو رابع الأربعة: وفي بيان الإمام: تقول كتب اللغة: الإمام الذي يقتدي به وجمعه أئمة. وهذا هو معناه العام. أما هنا فيقول المفسرون: الإمام الكتاب المقتدى به الذي هو حجة. وقيل إمام: أصل عظيم الشأن مظهر لجميع الأشياء ما كان وما يكون، ويقول مجاهد وقتادة وابن زيد: أراد اللوح المحفوظ، وفي موضوع الآية قوله عز من قائل: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا نَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وقوله تقدس اسمه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّيْرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَرْسِرٌ﴾.

وكلما تقرر وتثبت علم الله تعالى الشامل الذي لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ولا يخفى عليه كائن مهما دق وصغر، كما تثبت أن جميع ذلك كله قد دون وسطر وسجل في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ. سطرت فيه الأعمال والأقوال والحركات والسكنات والأوضاع التي تكون عليها المكونات، وما يطرأ عليها فيما بعد من تطورات. إنساناً كان الكائن أو حيواناً أو من جنس الجماد فلا تتحرك ذرة في السموات ولا في الأرض ولا

تسكن إلا بسابقة، ولا يبرز من العدم كائن، إلا وله في سجل الله العام جريدة خاصة تتناول مبدأه ومنتهاه، أدوار وجوده وما يتعاقب عليه فيها من أطوار، وسبحان من أحاط بكل شيء علما.

ومن ثم يكون الحق سبحانه وتعالى قد أعلن عباده بهذا تنبيهها لهم إلى أن إحاطته بهم، وهيمنته عليهم، لن تقف عند حد كتابة الأعمال وتدوين الآثار فقط، بل تتعدى ذلك كله إلى تدوين ما سيبدو منهم أو من غيرهم من حركات وما يحيط بهم أو بغيرهم من ظروف وأحوال تدوينا سابقا الخلق متقدما على الوجود. فما يكتب عليهم الآن واقعا ليس إلا صورة مما كتب في لوح الأزل مقدر الوقوع. ومن نافلة القول التحدث عما يحدثه هذا البيان من تعزيز الشعور بهيمنة الحق سبحانه، ورقابته على أعمال عباده، وإحاطته بما يبدو منهم في السر والعلن، لاسيما وقد نعت الإحصاء والتدوين بأنه واضح بين مفصل لا خفاء فيه ولا لبس.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اشْنُفَ فَكَذَّبُوهُمَا فَغَرَزْنَا بِالنَّارِ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿٢﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿٣﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَكَ مَا هُمْ بِغَائِبِينَ ﴿٤﴾ قَالُوا إِنَّا نَطَّيْرُنَا بِكُمْ لَزَلٍ كَثِيرٍ وَنَارٍ جَمِيعَةٍ وَلَيْمَسَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ الْوَطَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَنْزَلْنَاهُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ ضرب المثل يستعمل تارة في تطبيق حالة بحالة أخرى مثلها كما في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَةُ لُوطٍ﴾ وأخرى في ذكر حالة غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تطبيقها بنظيرها لها، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ على أحد الوجهين، أي بينا لكم أحوالا بديعة

هي في الغرابة كالأمثال. فالمعنى على الأول: اجعل أصحاب القرية مثلاً لهؤلاء في الغلو في الكفر والإصرار على تكذيب الرسل أي طبق حالهم بحالهم. وعلى الثاني: اذكر وبين لهم قصة هي في الغرابة كالمثل. انتهى من أبي السعود.

﴿الْقُرْبَى﴾ هي أنطاكية بإجماع المفسرين ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ قوينا وشددنا ﴿مَثَلْنَا﴾ المثل: المساوي. فمعناه متساوون معنا في الصفات والخصائص فلا مزية لكم علينا تستوجب إثارتكم بالرسالة دوننا ﴿طَيَّرْنَا﴾ التطير: التشاؤم يقال: تطير من الشيء وبالشيء، ﴿طَائِرُكُمْ﴾ أي سبب شؤمكم ﴿مُسْرِفُونَ﴾ الإسراف: تجاوز الحد في الشيء ومعناه: أنتم متجاوزون الحد المألوف في شرككم وشهواتكم ومن ثم لا تطيقون ما يهدف إلى الحد من اندفاعكم في ذلك.

المعنى: للقصص الواردة في القرآن الكريم أهداف.

منها: تثبيت قلب الرسول ﷺ، والترفيه عنه والتخفيف من وقع ما يلقاه من تعنت المشركين ومكابرتهم، ثم طمأننته ومن اتبعه من المؤمنين إلى ظهور حقهم على باطل عدوهم، وإلى أن كلمة الله ستكون هي العليا، وفي ذلك يقول الحق سبحانه للنبي ﷺ: ﴿وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيْنِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَبِّئْتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومنها وعيد المعارضين، وإنذارهم بأن الدائرة ستدور ولا بد عليهم، كما دارت على الذين من قبلهم ممن كانوا مثلهم، وأن موقفهم من الرسول سيقودهم حتماً إلى المصير الذي ذاق مرارته أولئك الذين كانوا سلفاً لهم في اللجاج والمكابرة، وفي ذلك يقول الحق جل جلاله بعد أن بين ما وقع بقوم لوط من العذاب ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ كما يقول تقديس اسمه في سورة

القمر بعد إذ قص نبأ قوم نوح وعاد وشمود وقوم لوط وآل فرعون ﴿أَنفَارِكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلَئِكَمُ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾... إلى آخر الآيات.

والمتبادر من الآيات التي معناها أنها من النوع الثاني، وأنها سيقّت لوعظ المشركين المناهضين للدعوة، ومحاولة صرفهم عن موقفهم من الرسول ﷺ، بتوجيه أذهانهم إلى ما جره العناد على أقوام انطبق حالهم على حالهم، وحاكت خطتهم خطتهم، وكان موقفهم من رسلهم ودعوة ربهم موقف أولئك من رسول الله ﷺ، وكيف انتهى أمرهم إلى دمار وفناء.

وخلاصة القصة: أن عيسى عليه الصلاة والسلام أرسل اثنين من حواريينه (اختلف في تعيين شخصيهما) إلى إنطاكية ليدعوا أهلها إلى التوحيد، ونبذ ما هم عليه من عبادة الأصنام. فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له، وهذا الشيخ هو حبيب النجار صاحب يس. فلما اقتربا منه وتحدثا إليه سألهما عن أمرهما وما أقدمهما؟ فأخبراه بما جاء لأجله فقالا.

أمعكما آية؟ (إذ الرسالة دعوى لا تنهض إلا على سند من الآيات) قالوا: نعم! نشفى المرضى ونبرئ الأكمه والأبرص، وكان له ولد مريض منذ سنتين فمسحاه ودعوا الله فقام سليماً معافى. فآمن حبيب.

وقد كان لهذا الحديث أثره المنشود، فذاع خبرهما، وانتشر أمرهما وقصدهما بعض الناس، وشفى الله على أيديهما خلقا كثيرا. وأخيرا بلغ نبأهما الملك فدعاهما واستطلع خبرهما، وفي فورة من فورات العاطفة، والحمية للعقيدة المتوارثة أمر بسجنهما فألقيا في السجن.

انقطعت أخبارهما عن عيسى عليه الصلاة والسلام، فأرسل على أثرهما شمعون، وكان رجلا كيسا فطنا حاذقا لبيبا، فدخل المدينة متكررا وعمل حتى اتصل بحاشية الملك وعاشرهم فأنسوا به ورفعوا خبره إلى الملك فاستدعاه وحادثه فأعجب به وضمه إلى حاشيته، وبعد فترة قال له: بلغني

أيها الملك أنك حبست رجلين فهل ناقشتهما وسمعت ما يقولان؟! قال: لا، حال الغضب بيني وبين ذلك. فدعاهما وتولى شمعون مناقشتهما. قال: من أرسلكما؟ قالوا: الله الذي خلق كل شيء وليس له شريك. فقال: صفاه وأوجزا. قالوا: يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. قال: وما آيتكما؟! قالوا: ما يتمنى الملك. فدعا بسلام مضموس العينين فدعوا الله حتى انشق له بصره فأخذا بندقتين فوضعاهما في حدقتيه فصارتا مقلتين ينظر بهما. فقال له شمعون: رأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا فيكون لك وله الشرف. قال: ليس لي عنك سر. إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع. ثم قال: إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنت به. فدعوا بسلام مات من سبعة أيام فلما أحضر. قام الرسولان يدعوان الله علانية وشمعون يدعو سرا فقام بسلام حيا وقال، إني دخلت بعد موتى سبعة أودية من النار، وإني أحذركم مما أنتم فيه فارجعوا عنه، وآمنوا، كما قال: فتحت أبواب السماء فرأيت شابا حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة. قال الملك: من هم. قال شمعون وهذان. فتعجب الملك. وعندئذ أظهر شمعون شخصيته عندما وصل الأمر إلى هذا الحد، وانضم إلى زميليه علانية وبذل النصيحة للملك وقومه. وهنا تختلف الروايات. فمن قائل: أنه ظل على ما هو عليه ومن قائل: أنه آمن وآمن معه الحاضرون والقائل بهذا وفق بينه وبين سياق النظم المشعر بأنه لا استجابة ولا إيمان. بأنه كتم إيمانه ولم يظهره خوفا من ثورة قومه عليه وبطشهم به لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد، ولا بُد في هذا، وسواء كان هذا أو ذاك، فإن موطن العظة من القصة ليس بمتوقف على أحدهما، وفي هذا يقول الكتاب الكريم.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ اذكر لقومك الذين ناهضوا دعوتك قصة هي كالمثل

في غرابتها. هي قصة ﴿أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ حينما بعث الله تعالى

إلهم رسلا من لدنه يدعونهم إلى توحيده والإنابة إليه ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾

وحيث كان تصرف الرسل من أمر الله لاسيما فيما يتصل بالدعوة لم يكن ثمة خلاف بين القصة وظاهر النص المقتضى أن المرسل هو الله عز وجل ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ وردوا عليهما قولهما، وأبوا تصديق دعوتهما ﴿فَعَزَّزْنَا بِآلِثِ﴾ فاجتمع ثلاثتهم، وتساندوا في تبليغ ما أمروا به ﴿فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ لإصلاح عقائدكم، وتقويم اعوجاجكم ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ

شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾. كان جواب أهل القرية لرسلم هو بعينه جواب كل أمة بعث إليها رسول. وهو هو بعينه ما واجهت به قريش رسول الله ﷺ: إنكار واستبعاد لأن يصطفى الله تعالى بشرا للرسالة، ويختصه من دون الباقين بوحى السماء، ومن ثم فما يستتبعه الاصطفاء من الوحي والتشريع لا وجود له، وما هم إلا قوم أدعوا هذه الدعوى توصلا إلى أغراض لهم ومآرب أخفوها في صدورهم.

ولم يجد الرسل إزاء هذه العقلية المظلمة، والتفكير المختل من جواب يجيبون به إلا أن يردوا الأمر إلى الله تعالى الذي لا يترك ولا يهمل من يكذب عليه، منضمنا إلى ذلك تحديد مهمتهم الحقيقية فقالوا: ﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ وقد أكدوا الخبر بمؤكدات متعددة ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ومن ثم فسواء علينا أصدقتم أم كذبتم ما دمننا قد أدينا ما كلفنا به وهو البلاغ المبين المعزز بالأدلة الواضحة والبراهين الساطعة.

ولما أعوز المكذبين الدليل، وسقط في أيديهم حينما ووجهوا بالرد المفحم. انقلبوا يلوذون بما يلوذ به كل جهول متعصب تسد عليه المنافذ، ويسقط صريح الحجة والبرهان فـ ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءمنا بكم، وتوقعنا الشر من دعوتكم. ولعل الباعث لهم على هذا توجسهم من أن تستجيب طائفة

منهم لدعوة الرسل، فتتفرق الكلمة وتتفتت الحدة، وتقع المدينة في الدماء. قالوا ذلك ثم انتقلوا يهددون ويتوعدون فقالوا للرسل ﴿لَنْ نَلْمَ تَنَّهُوَا﴾ عن الدعوة لدينكم، والتبشير بعقيدتكم ﴿لَنْ رَجُمَنَّكُمْ﴾ بالحجارة رجما لا هودة فيه، ولا رحمة معه، حتى ترهق أرواحكم وذلك مقتضى قولهم: ﴿وَلَيْمَسَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقد انبرى الرسل عليهم الصلاة والسلام يسفهمون قولهم، ويظهرونهم على ما في اتجاههم من خلل وشذوذ ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ أي أن ما تتوقعونه من مضار ليس مصدره نحن، ولا مبعثه قيامنا بالدعوة إلى الله إنما مصدره أنتم، وهو كفركم وجحودكم وعنادكم الذي تشبثتم به من غير سند ولا دليل. ثم أنبؤهم وقرعوههم على موقفهم الجاهل الأحمق بقولهم ﴿أَنْذَرْتُمْ﴾ وهنا يتم الكلام أي أن ذكرتم ووعظتم ودعيتم إلى ما فيه فلاحكم وسعادتكم تهددون وتتوعدون بالرجم والتعذيب من يحرص على خيركم ويعمل على أن ينير لكم السبيل.

ثم انتقل الرسل يبينون لم الحكم الصائب على موقفهم هذا الغريب فقالوا: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ والمعنى إنكم لم تستجيبوا في موقفكم هذا لعقل ولا لسداد رأي، ولكنكم قوم ألفتם الإسراف في كل شئ. ألفتם الإسراف في الشهوات فلذلك تعادون كل من يحاول صرفكم عنها، وألفتם الإسراف في الظلم والعدوان فلذلك تتوعدون بالرجم والتعذيب من كان يجب عليكم أن تكرمواهم وتتقربوا إلى خالق الكون بطاعتهم.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شِفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ﴾ ﴿إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿نِيَّامْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونَ﴾.

﴿أَقْصَى الْمَدِينَةِ﴾ أبعد مكان فيها. يقال قصي المكان بُعد ﴿يَسْعَى﴾ يعدو مسرعا. ﴿فَطَرَنِي﴾ خلقتني وابتدعني على غير مثال، من الفطر وهو: الابتداء والاختراع. قال ابن عباس رضي الله عنه: كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها ﴿لَا تُغْنِي﴾ لا تجزي عني ولا تنفعني.

المعنى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ وهو حبيب النجار الذي سبق الحديث عنه وعن إيمانه. جاء يهرول مشتدا بعد إذ فشا نばأ ما حدث بين الرسل وأهل المدينة، وتهديدهم إياهم بالقتل بعد إذ فلجوا عليهم بالحجة، وظهروا عليهم بالمعجزات والآيات البينات. جاء ليساهم بنصيب في هذا الجهاد المقدس، ويحاول أن يحول قومه عن موقفهم المتعنت، ويثنيهم عن موقف العداء والبطش الذي اتجهوا إليه بالنسبة إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام.

تلف مع قومه في حديثه إليهم إذ قال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وما داموا قومه وهو واحد منهم فهو لا يدعوهم إلا إلى ما فيه الخير والسعادة لهم. وفي نعتة الدعاة بالمرسلين إشعار لهم من أول الأمر بأنه مؤمن بهم، وأنه ما اختار لهم إلا ما رضىه لنفسه من قبل. ثم انتقل يعزز موقف الرسل، ويبين أنه ليس على مسلكتهم مأخذ، ولا في دعوتهم موطن ضعف يستند إليه من ناهضوهم وكذبوهم، بل إن جميع الظروف والملابسات تنادى بصدقهم وسلامة وجهتهم وتحتم طاعتهم والانقياد إليهم فقال:

﴿تَبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ حلل بكلمته هذه موقف الرسل وبين تساميتهم

في دعوتهم عن المآخذ والشبهات، وأنهم ما داموا قد تعففوا عن أموالكم ولم يقتضوكم شيئاً منها في مقابل ما يبذلون لكم من نصح وإرشاد فقد برهنوا على براءتهم من الأغراض الشخصية، والمآرب المادية، وأقاموا الدليل على أنهم إنما يصدرن في موقفهم عن روح شريفة، ورغبة صادقة في إخراجكم من الظلمات إلى النور، ومن ثم فلا مبرر لموقف العناد والمكابرة الذي تقفونه منهم. ولا مستند لكم في إغلاق قلوبكم عن التفكير بإخلاص فيما يدعونكم إليه، فاتبعوهم فإنهم مهتدون يسرون على نهج قويم وصراط مستقيم، ومن اتبع المهتدي اهتدى وفاز وربح.

وبعد أن عزز موقف الرسل بتحليل مسلكهم الشخصي ونفى الشبهات عنهم، تناول دعوتهم من الناحية إلى أثارت حفيظة أولئك السفهاء مخاطباً عقولهم في شخص نفسه، مثبتاً بالدليل والبرهان ما اختتم به كلمته الأولى من الشهادة للرسل بالاهتداء فقال:

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي توجيه الخطاب إلى نفسه نوع ظاهر من

التلطف في الإرشاد والنصيحة. إذ بين لهم أنه اختار لهم ما اختاره لنفسه، وأن جميع ما يحيط به يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، ويصرفه عن عبادة الأصنام، وأن من واجبهم نحو أنفسهم أن يكونوا كذلك. والمعنى: ليس ثمة ما يصرفني عن الإيمان بالله، وكيف يليق بي أن أعبد غيره وهو الذي فطرني وأوجدني من عدم؟ وأحسن خلقي ومنحني فضلاً منه ما أتمتع به من سمع وبصر وقوى وحواس؟ إنه لحتم واجب على أن أتوجه إليه بالعبادة لنعمه هذه المفاضة على، حتى ولو لم يكن ثمة غيرها. وإنه بهذا ليغمزهم ويكشف لهم عن شناعة موقفهم من الرسل، وتكذيبهم لهم وانصرافهم عنهم.

ثم غير الأسلوب. ووجه الحديث إليهم مذكرا إياهم بأن مرجعهم إلى الله ولا بد، وهنالك لا يكون لهم من دونه ولى ولا نصير، ولا شفيع ولا مجير، والحكمة في تغيير الأسلوب أنه لما كان قد استجاب وآمن، وأولئك ظلوا على الكفر والعناد، فقد خص نفسه بتقدير النعمة وشهود المنة، والاعتراف بالفضل ووجه إليهم التذكير بالمعاد المنطوي على التهديد. ثم انتقل (بعد أن قرر وأعلن أحقية المولى سبحانه بأن تخضع له الوجوه. وتسجد له الجباه وحده) يطعن عقيدتهم الخاطئة في الصميم، ويقيم البرهان القاطع المستند إلى الواقع، الدال على أن أوثانهم التي يعقدون الخناصر على التشبث بعبادتها، غير خليفة بذلك، وأنها أبعد من أن تستحق ذرة من التقديس والتعظيم الذي يمنحونها إياه جهالة منهم. فقال موجه الخطاب إلى نفسه:

﴿اتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْدِرُونَ﴾ سلك سبيل الاستفهام الإنكاري لأنه أبلغ وأعظم وقعا في النفس، وأقوى تنبيها على التبرؤ مما ينصب عليه الاستتكار. والمعنى: لا أتخذ من دون الله الذي فطرني، ولا أشرك معه فيما هو من أخص خصائصه، آلهة ليس لها من مقتضيات الإلوهية ومميزاتها إلا الاسم الذي خلعه عليها أولئك الذين لا عقل لهم. بينما هي فيما عدا ذلك أحجار وجمادات من صنع أيديهم لا تضر ولا تنفع ولا تشفع ولا تدفع، وهى أعجز عن أن تسوق إلى عابدها والمتفاني في خدمتها وتقديسها خيرا أو تدفع عنه ضرا، وكيف أعبد من دون الله آلهة إن تعلقت إرادة الله بضر يلحقني كانت بالنسبة إلى هي والعدم سواء، ولم يكن لها أي أثر في محاولة صرفه عنى فلا شفاعة لها (كما تزعمون كذبا) حتى يستجاب لرغباتها، على فرض أن لها رغبة، ولا قوة عندها تتقذني بها كما يفعل الأنصار والأولياء بل إنها لأعجز عن دفع شئ من ذلك عن نفسها. فأنى لها أن تكون آلهة وتلك حالتها وذلك مبلغ أمرها؟! إن من يتغاضى عن ذلك كله ويدين لها بالتقديس وتلك حالتها لهو شخص قد ألغى كلية عقله

وعطل مواهبه. وغرق في الضلال إلى قمة رأسه، وضلاله غنى عن البيان والتدليل ﴿إِنِ إِذَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

وبعد أن أقام الحجة بما لا يدع مجالا إلى اللجاج، ألقى بها كلمة صريحة، وأعلن إيمانه على رعوس الإشهاد وسجله عند الرسل ليكونوا شهودا له به يوم الدين وليختم حديثه إلى القوم وعظته لهم بمثال عملي خليق بأن يحتذي فتوجه إلى الرسل قائلا: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرِمِينَ ﴿٦٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٦٨﴾ إِنْ كُنْتَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾.

المعنى: في الآيات السابقة أظهر حبيب النجار إيمانه، وأعلن عقيدته، وأشهد المرسلين على ما وقر في صدره بعد أن أقام الحجة القاطعة والبرهان الساطع على فساد عقيدة قومه، وسقوط أوثانهم التي ألوهها عن مرتبة التقدير بل انحطاطها عن درجة الحيوان الأعجم. الأمر الذي يجعلها خليقة بالإهمال والترك. لا أن تكون آلهة تعبد وتقُدس.

وقد كانت هذه الصفة القوية منه لقومه سببا في ثورتهم عليه، واشتعال نفوسهم غيظا وكمدا ولم يجدوا لغيظهم وحردهم متنفسا إلا أن يتواثبوا عليه فيفتكوا به ويزهقوا روحه، وذهب هذا الرجل الكريم ﷺ شهيد الواجب، وضحية الثبات على المبدأ، والصدع بالحق، والاعتصام بحبل الله المتين.

لا جرم. وقد توجه ﷺ بكليته إلى الله، وفقد حياته في سبيل الله، حقق الله تعالى له وعده، وأنزله منازل الشهداء الأبرار، وأدخله الجنة دار السلام

يلقى فيها التحية والإكرام، ويجد فيها ما وعد الله به أمثاله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ فَرَحِينِ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾.﴾

ولقد كان صدق هذه البشارة في نفسه، وأثرها لديه من أكرم ما يمكن أن ينضح به طبع كريم، وخلق سام نبيل. لم تبهره روعة البشرية، ولم يأخذ بلبه ما تبدى له في الجنة من ضروب النعيم، وألوان التكريم، فيحمله ذلك على نسيان مهمته السامية التي جاء يسعى لها، والتي تسبب عنها قتله. ولم ينسها!! بل لم ينس قومه الذين عدوا ظلما على روحه فأزهقوها وعلى دمه فأراقوه بقسوة وعنف شديدين.

ذكر ذلك كله. ولم يكن ذكره لقومه تشفيا وضغينة بل كان إشفاقا ورحمة قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿أي يعلمون بتجاوز ربي عن ذنوبي، وصفحه عن إساءاتي، ومقابلتي فضلا منه بالإكرام. تمنى أن يعلم قومه أن إيمانه بالله وتصديقه بالرسول، ونبذه الأوثان قد أعقبه خير ما يتمنى امرؤ لنفسه من خير ونعمة. أكسبه مغفرة الله، وأدخله جنة الله، ومتع به بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. يا ليت قومي يعلمون ذلك عسى أن يفتح علمهم به مغاليق قلوبهم ويزيل عنها الران فتتهدي بعد ضلال وترشد بعد غي وسفه. وأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «نصح قومه حيا وميتا» ورفع القشيري فقال: وفي الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال في هذه الآية "إنه نصح لهم في حياته وبعد موته".

وفى يقيني أن ما انطوت عليه هذه الكلمة الكريمة التي نطق بها ﷺ، من سمو واتسام وإنكار للذات في سبيل الصالح العام، وإغضاء عن الأذى والعدوان في ظروف تثير كلها روح الانتقام، كل ذلك فيما أرى هو الذي

جعل هذه الكلمة خليفة بأن تصبح قرآنا يتلى على مر السنين والأحقاب. ليذكر بهذا الموقف الخالد الذي ينبغي أن يحتذي كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ولم يكن موقفه النبيل ﷺ بالذي يضيع حقه ويطل دمه. فإن الله سبحانه الذي يغار على عباده الذين أخلصوا وجهتهم له، لم يكن ليترك هذا الدم الزكي الطاهر يذهب هدرا، ولا ليدع أولئك الأشرار يعيشون في الأرض فسادا، ويصدون عن سبيل الله من آمن به، ويفتكون بمن هداهم الله، ولذلك عاجلهم سبحانه بالانتقام وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

أما كيف كان هذا الأخذ وعلى أي وضع كان انتقام الله تعالى منهم فإن صنيع القرآن في بيانه، وأسلوبه في التحدث عنه يحمل معنى الزرابة بهم والتحقير لهم ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ بين الله تعالى أن أولئك الذين كانوا يمطرون الرسل بالتهديد والوعيد، وينذرونهم بالرجم والعذاب الأليم، لم يكونوا من القوة ومناعة الجانب بحيث يستدعى الأمر في إهلاكهم وتدميرهم اتخاذ وسائل خاصة تغاير ما أهلك به من تقدموهم من الأمم المتمردة التي كذبت رسلها.

ما أنزلنا عليهم جندا من السماء، ولا كوكبة من الملائكة تتولى قتالهم واستئصال شأفتهم، وما كان ينبغي لنا أن ننزل فإن الملائكة أعز جانباً من أن يقاتلوا هؤلاء وأن يستنفروا لحربهم ﴿مُنْزِلِينَ﴾ **إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صِخْرَةً** جاءهم العذاب عن طريقها، والتدمير بسببها (واحدة) لم تتكرر، أخذهم صوته وصعقهم دويها **﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾** لا حراك بهم ولا حياة فيهم في مثل غمضة الطرف بعد أن كانوا يشتعلون فتوة ونشاطا ويفيضون قوة وحياة فسبحان القاهر فوق عباده.

وبدهي أن التعبير بالخمود أبلغ من التعبير بالموت في بيان أثر الصيحة، وأدق في تصوير مفعولها، وهو يعد أقوى وقعا على أذن المستمع وأشد تأثيرا في مشاعره، لاسيما وقد اقترن بإذا التي للمفاجأة والمشعرة بأنه لم يكن ثمة زمن ما بين الصيحة والخمود.

ولئن كانت هذه القصة قد سيقّت في عصر النبوة لما ذكرناه آنفا. فإن لنا الآن منها نصيبا لا يستهان به تهدينا إليه حوادثها، وتكشف عنه تطوراتها، لا يليق بنا بأن نخفله ونهمل الاستفادة منه، وتلمس الهداية عن طريقه.

(وَأول): ما يطالعنا منها موقف حبيب ﷺ في حالتيه، وقت أن كان على دين قومه، ثم بعد أن تفتحت مغاليق قلبه، وأشرق وجدانه بنور الإيمان. ومن موقفه هذا نأخذ أن الفكرة أو العقيدة تكون في أول أمرها وقبل اعتناقها ملكا للباحث يقلبها كما يشاء، وينقدها كما يحب، ويأخذ منها ويدع، ولكنه إذا ما اقتنع بها واعتنقها وانضوى تحت رايتها أصبح هو ملكا لها، وكان عليه أن ينافح عنها جهده، ويزود عنها طاقته. بل ويفنى في سبيلها ويستسهل الصعب ويستعذب الصاب والعلقم.

(الثاني): أن على الداعي أن يرسم أولا خطته، وينظم خطواته ويزن في دقة جميع الظروف المحيطة به، ويختار لدعوته أنسب الأوقات، وأصلح الظروف، وأن يعد نفسه للمصاعب تعترضه وللشدائد تواجهه في كل خطوة يخطوها. وليذكر أن الناس دائما أسرى لما ألفوا، وأعداء لما جهلوا، وأن زحزحتهم عن الفهم ليست بالأمر الهين. كذلك عليه أن يثق بأن الباطل مهما علا صوته، ونبه شأنه، فإن دولته إلى زوال قريب، وسيحق الله تعالى الحق بكلماته مهما تساندت قوى الباطل، وذلك ما يصوره لنا موقف الرسل عليهم السلام.

(الثالث): وجوب تغليب العقل على العاطفة فيما يأتي الإنسان ويذر، والاستجابة إلى ما يقضي به الرأي السديد والمنطق السليم، مهما تعارض

ذلك مع الميول الخاصة، والنزعات المتوارثة. فإن سيطرة العاطفة وتحكم الهوى في توجيه الشخص يجعل منه كائنا أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان تتسم أعماله وحركاته بالنزوة والاندفاع والتهور والتناقض في كثير من الأحيان بل ربما كان فيها القضاء على غرضه الذي يتوخاه منها. وهذا ما ينطق به موقف أهل القرية ومسلكتهم مع الرسل حينما دعواهم إلى الله، واحتكموا معم إلى العقل والمنطق.

(الرابع): أن من خير عباد الله وأكرمهم عليه أولئك الذين يؤثرون التجاوز والصفح ويغفرون عن طيب خاطر لمن أساء إليهم، ولا تجد شهوة الانتقام وروح التشفي مكانا لها من قلوبهم. وإن السعيد حقا من اتخذ له بينهم مكانا، وعمل على أن ينهج نهجهم. ويروض نفسه على مشربهم. ولئن كان مرقاهم هذا صعبا، والتحقيق به دونه عقبات. إلا أن العزيمة القوية والرغبة الصادقة كفيلة بتذليل هذا كله، وحسب المؤمن أن أجره في محاولته على قدر مشقته، ومنزلته عند الله تتضاءل بجانبها بل تتلاشى متاعبه مهما كانت شديدة الوطأة مرهقة.

(الخامس): إن من الحقم وسخف الرأي أن يغتر الباغي المعتدي بحلم الله عز وجل فيتمادى ويظن الإمهال إهمالا، والحلم تركا، وليذكر ذلك المغرور أن للإمهال حدا وللحلم آخرا ينتهي بالأخذ الشديد والعذاب الأليم والنكال المروع في الدنيا والآخرة. وليجعل بين عينيه قول الله عز وجل: ﴿وَسَكَنَ فِي مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ ليذكر ذلك أولئك الذين وضع الله في أيديهم بعضا من السلطان فاستغلوه أسوأ استغلال، ونسوا الله واليوم الآخر. ليذكروا ذلك لعل الذكرى تنفعهم إن كانوا مؤمنين.

ثم قال سبحانه:

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَامٍ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ الحسرة شدة التلهف والأسف والندم على أمر فات وتعذر استدراكه. ومعنى النداء: يا حسرة، هذا موطن حضورك وأوانه فاحضري. وأل في العباد. قيل للعهد. وعليه فهم أهل القرية، وقيل للجنس. وعليه فالمقصود بهم كل كافر أعرض ونأى.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا...﴾ الاستفهام في ﴿أَلَمْ﴾ تقريرى. ومقتضاه إثبات حصول ما يذكر بعده وتأكيده. والرؤية التي قررت بالاستفهام ليست البصرية بل هي العلمية، ومن ثم فالمعنى: علموا ذلك وأدركوه، و﴿كَمْ﴾: خبرية معناها: الكثير، وهى مفعول لما بعدها وهو أهلكنا. أبذل منها جملة: أنهم إليهم لا يرجعون لتأكيد معنى الإهلاك وإفادة أنه إفناء ومحو من عالم الوجود.

﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَامٍ جَمِيعٌ﴾ إن نافية معناها، ما، وتنوين كل عوض عن المضاف إليه، ولَمَّا بتشديد الميم بمعنى إلا، وجميع فاعيل بمعنى مفعول، أي مجموع، ومن ثم فالمعنى، وما كلهم إلا مجموعون لدينا محضرون.

المعنى: في الآيات السابقة بين الحق سبحانه كيف وقف أهل القرية من الرسل عليهم الصلاة والسلام موقفهم الشاذ الذي اندفعوا فيه مع تيار العاطفة، وجنود العناد. حتى أدى الأمر بهم إلى ارتكاب جريمتهم الشنعاء التي استنزلت غضب الله عليهم وسخطه. متمثلاً في الصيحة الصاعقة تدمرهم وتأتى عليهم ولا تبقى منهم أحداً.

والمعروف دينا عن حالة الاحتضار أنها من مواطن اليقظة الروحية، المصحوبة بالأسف والندم والأسى والألم عند أكثر المحتضرين، وتشدد مرارتها عند أولئك الذين استحوذت عليهم شياطينهم، وغلبتهم أهواؤهم على

أوامر ربهم، وأنستهم لذائذهم واجباتهم، حينما تتكشف الحقائق الأخروية لهم، ويتبدى أمام أعينهم ما أعد لهم جزاء إسرافهم وشذوذهم، وهو ما يشير إليه الرسول ﷺ فيما رواه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه "وإن الفاجر أو الكافر إذا حضر جاءه ما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقي من الشر، فكره لقاء الله فكره لقاءه". ومن غير شك أن صور السيئات والمعاصي التي اقترفوها، والتي كانت السبب المباشر لما يطالعهم من مفزعات، ستتداعى بعضها في أثر بعض مما يكون من نتائجه اشتداد الألم عليهم، وتضاعف الأسف والندم.

فإذا كان المفروض في هجوم الموت ما ذكر في أوضاعه العامة المألوفة، فكيف به إذا كان مصحوبا بالأخذ العاجل، والفناء الشامل، والتدمير العام، في ظروف كظروف أصحاب القرية جاءتهم الآيات البينات، والمعجزات الباهرات، التي لا تدع في نفس منصف ذرة من شك أو تردد ومع ذلك نبذوها ظهريا، وظلوا سادرين في ضلالهم وبغيهم وعدوانهم، حتى حقت عليهم كلمة الله، وأخذهم انتقامه، وتبدى لهم عيانا ومكابدة صدق ما كان الرسل يدعونهم إليه وينذرونهم به؟ إن الأسى سيكون ولا بد أعظم! وإن الندم سيكون أشد، وإن الحسرة ستكون أقوى!! ولا شك أنهم في تلك اللحظات الحاسمة قد ضموا إلى أسفهم وندمهم، تمنى أن لو استقبلوا من أمورهم ما استنبروا، وأن لو عادت حياتهم الدنيا سيرتها الأولى ليفتحوا صفحة جديدة، ويصلحوا من اتجاهاتهم ما اعوج وشذ، ولكنها أمان؛ أنى لها أن تتحقق؟!

وعلى مقتضى سنن القرآن من الحرص فيما يساق من أنباء الأمم السابقة على إبراز مواطن العبرة بالإشارة أو بالتصريح، فقد عقب الحق سبحانه على قصة أهل القرية بما يفيد ذلك بقوله سبحانه: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ وإذا كان من البدهية بمكان استحالة نسبة المعنى المتبادر من هذه العبارة إلى الله تعالى. فقد أجمع المفسرون على صرفها عن ظاهرها وإن اختلفوا في تحديد المعنى المراد.

فمنهم من قال: لا حسرة في الأمر ولا متحسر وإنما هو بيان لما ينبغي أن يكون، وتنبيه إلى أن حال هؤلاء البئيسة من الأحوال التي حق الحسرة أن تحضر فيها، فإن المستهزئين بالناصحين الذين نيطت بنصائحهم سعادة الدارين، وهناءة الحياتين، أحقاء وخليقون بأن يتحسروا هم على أنفسهم، ويتحسر عليهم المتحسرون، ومنهم من قال: إن العبارة إخبار من الله تعالى عن حالهم وتصوير لما سيطر على مشاعرهم، وترجمة لما بدا منهم، وفي معناه قول الله تعالى في موضع آخر ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ **﴿أَنْقُولُ نَفْسِي بِأَحْسَرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّآخِرِينَ﴾** الآيات. أما قوله سبحانه: **﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾** فهو بيان لسبب التحسر والعامل الأول فيه.

بعد ذلك انتقل القرآن الكريم يؤنب المشركين على تعاملهم عن هذه السنة الآلهية المطردة، وانصرافهم عن الاعتاظ بما فعل الله بالمكذبين قبلهم، في أسلوب الاستفهام التقريري بقوله جل شأنه: **﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾** والمعنى، لقد علم هؤلاء الذين ناوعوك وناهضوا دعوتك سننتنا المطردة في الأمم قبلهم الذين وقفوا من رسلهم موقفهم منك، وعاندوهم كما عاندوك، وكيف دمرناهم التدمير الشامل الكامل الذي خرب ديارهم، وأتى على آثارهم، وجعلهم في الغابرين، أفلم يكن لهم فيما علموه ما يرد عقولهم إلى رءوسهم، ويجنبهم التعسف والشذوذ؟ نعم! كان لهم، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى.

ولقد نفى القرآن عن أولئك المهلكين الرجعة في الحياة الدنيا في قوله: **﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾** ثم عاد وأثبت لهم رجعة أخرى في ضمن من خلق الله يوم يبعث الله تعالى من في القبور، ويعيد الناس خلقا جديدا في قوله عز من قائل: **﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾** **المعنى.** ما كل ممن ذكرنا من المهلكين وغيرهم ممن تقدموهم أو جاؤا بعدهم إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن

عليها، إلا محضرون جميعا إلى موقف العرض والحساب بعد الحياة الثانية حيث يقضى الله تعالى بين خلقه، ويثبت المحسن بإحسانه جنة عرضها السموات والأرض، ويجزى المسيء بإساءته نارا وقودها الناس والحجارة.

ولما كانت قضية البعث والنشور، من القضايا التي حركت عواطف المشركين أكثر من غيرها، واتخذوا منها سلاحا قويا لمهاجمة الرسول ﷺ والتشكيك فيما جاء به، مستغنين بعدها عن المؤلف، فقد أتبع الله تعالى الآية التي معنا المتضمنة للعود والحياة الثانية، بما يدعمها ويقطع مادة الشك فيها، ويقضى على مناورات المعاندين، مستندا في أدلته وبراهينه إلى الظواهر الكونية التي يحسها الجميع ويدركها الجاهل والمتعلم، فقال عز من قائل:

﴿وَايَةُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿١﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ ﴿٢﴾ لْيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣﴾﴾

وفى هذه الآيات وما بعدها يوجه الحق سبحانه أنظار عباده وينبه أذهانهم إلى بعض ظاهر قدرته وآثار رحمته التي أبرزها ونصبها لهم ليدلهم بها عليه، ويرشداهم إليه، وليكون لهم من دراستها بإنصاف وتجرد عن الهوى والغرض، ما يهديهم إلى العقيدة الصحيحة، والوجهة السليمة، والطريقة المستقيمة ويكشف عن بصائرهم ظلمات الشكوك وقد بدأ بالتحدث عن الأرض لأنها أقرب الأشياء إلى الإنسان فقال عز من قائل:

﴿وَايَةُ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ﴾.

الآية: العلامة التي ترشد إلى غيرها وتدل عليه. الميتة: الخامة الهامدة الجرداء القاحلة.. وهذا توجيه إلى موطن الدراسة، ومحط النظر والتأمل، ومكن الدليل ومظهر الحجة. فلينظروا نظر الدارس الفاحص المقتصي إلى الأرض الميتة. وليتابعوا ما يطرأ عليها من تطورات وتغيرات

نحن مصدرها وأصحاب التأثير فيها، وليحاولوا أن يصدروا حكما سليما صحيحا يعتمد على المنطق والعقل وسيهديهم هذا سواء السبيل. أما هذه التطورات التي عليها يتوقف الاستدلال فقد أشار سبحانه إليها بقوله:

﴿أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يُكْلُونَ﴾

أي توجهت إرادتنا إلى إحيائها، فأنزلنا عليها الماء من السماء فاهتزت وربت بعد خمودها وبيسها، وعادت إليها خاصية الإنبات فتفاعلت أجزاؤها وعناصرها مع ما نثر فيها من بذور، على مقتضى السنة الكونية، حتى أخرجت النبات خضرا ينتقل في أطواره وينتهي به الأمر إلى أن يصير حبا متنوع الأشكال والأحجام والخصائص، عليه قوام حياة الإنسان والحيوان، وبتناوله تحفظ بنيته، وتضان مهجته، ويستطيع أن يؤدي وظيفته في الحياة كاملة وافية.

فليرجع إلى العقل، وليرتض حكمه، أولئك الذين يكابرون في البعث والنشور وليسألوا أنفسهم: أيعجز من أحيا الأرض بعد موتها، وآتاها قوة الإنبات كاملة وافية عن إعادة الخلائق بعد الفناء إلى الحياة من جديد؟ ولعل ضمائرهم ستهتف بهم: أنه لا يعجز!! ومحال أن يعجز!! إذ لا فرق بين إحياء وإحياء ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ولكنهم لن يعترفوا بذلك من قريب، وقاتل الله اللجاج والمكابرة!! ثم قال جل جلاله:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾

الجنات: جمع جنة. والجنة: الحديقة ذات الشجر، وقيل ذات النخل، وسميت بذلك لأن التفاف الأشجار فيها واجتماعها يجن ما في داخلها من إنسان وحيوان ويستتره عن الأعين، وتلك ظاهرة أخرى من ظواهر إحياء الأرض، قصد بها التنبيه على أن الحياة التي أفيضت عليها لم تكن قاصرة على إنبات جنس دون جنس، بل حياة تامة كاملة شملت كل شيء، فأنبئت ما

به من قوام الحياة وهو الزرع المنتج لجنس الحب، كما أنبتت ما يعتبر عادة من الكماليات وهو النخيل والأعناب ومختلف الأشجار إلى تنتج الفاكهة. هذا وعموم الأنواع الذي ذكرناه هو الذي يقتضيه المقام ويسنده الواقع، أما الحكمة في الاختصار على ذكر النخيل والأعناب. فقل لعموم نفعها ولقيام ثمرهما مقام الغذاء عند فقده. ولو قيل إن الصراع إذ ذاك كان بين النبي ﷺ وبين العرب. ولم يكن يعرف العرب في حدائقهم غالبا إلا النخيل والأعناب، ولهذا كان الحديث إليهم بما يألون ويعرفون. لو قيل ذلك لم يكن مستبعدا.

﴿وَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾.

فجرنا: فتحنا. والتفجير والتفتيح معناهما واحد. فإذا أسند إلى الأرض كما معنا كان معناه تمزيق قشرتها العليا، وتشقيق جسمها لينبثق الماء فوارا غامرا يحيي موات ما حوله. وإذا كان تفجير العيون ليس عاما في بقاع الأرض كلها، بل هو في بعض المناطق دون البعض. لذلك أولت الآية على أن فيها حذف تقديره: بعضا من العيون وقد ذكر تفجير العيون تاليا لإنبات النخيل والأعناب لأنه من أسباب ومقدماته ولولاه لما تكامل له وجود. ذلك أن إنبات الحب قد يكفى فيه ماء السماء، وقد ينبت به وتتم عملياته بمرة واحدة، أما الحدائق فإن أشجارها لا تنفك تطلب الماء في أوقات متتالية حتى تؤتى أكلها وينضج ثمرها. ومن ثم فما لم تكن مادة حياتها (وهو الماء) مكفولة مضمونة انتهى أمرها وتلاشى وجودها. ولهذا أيضا وهو كون التفجير من أسباب إنبات النخيل والأعناب ومقدماته ذكر قوله سبحانه ﴿لِيَأْكُلُوا

مِنْ ثَمَرِهِ﴾ مفصولا بجملة: فجرنا...، عن متعلقه وهو: ﴿جَعَلْنَا فِيهَا ۝﴾

أما الهاء في ﴿ثَمَرِهِ﴾ فهي عائدة على المذكور من إنبات النخيل والأعناب، ومن ثم يكون المعنى: وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعنان،

ورتبنا لها مبادئ إثماره ومقدماته بتفجير عيون الأرض، ليأكلوا من ثمره بعد نضجه وطيبه.

وقد استطرد القرآن فذكر نتائج إحياء الأرض والآثار المترتبة عليه من إخراج الحب وإنبات الأشجار وتفجير المياه، ولم يكتف بالحديث عن الإحياء فقط مع كفايته فيما هو بسبيله من التدليل على صحة البعث وإمكانه، للتنبيه على أنه سبحانه كما أحيا الأرض إحياء كاملاً تاماً من جميع الوجوه بإنبات ما هو أصل في بقاء الحياة كالحب، وما هو مكمل لها وإن كان يتأتى الاستغناء عنه أحياناً كالفواكه ثم صانها من عدوان الجفاف بتفجير العيون، كذلك يعيد الإنسان بعد استحالاته تراباً وعظاماً خلقاً جديداً، ويرد إليه جميع خصائصه ومميزاته حتى ما كان منها كمالياً غير ضروري، وسبحان من لا يعجزه شيء. أما قوله سبحانه:

﴿وَمَا عَمَلُهُمْ أَبْدِيهمُ﴾

فقل إن ﴿مَا﴾ فيه نافية، وإن العبارة سيقّت لتقرير النعمة، وتأكيد المنّة وتنبية الغافلين إلى أن ما يتمتعون به من أنواع الثمار، وأصناف الفواكه، هو من صنع الله لا من صنع أيديهم، ومن فيض فضله لا من نتاج مجهوداتهم وأن عليهم أن يشهدوا لله تعالى في ذلك المنّة كلما طعموا من ذلك شيئاً، لعل تذكرهم لذلك يحفزهم إلى الشكر والإنابة، وينأى بهم عن أعمال الجاهلين، وأساليب الجاحدين، وفي معناه قوله عز من قائل: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾. وقيل إن ﴿مَا﴾ اسم موصول والواو قبلها عاطفة. والمعنى عليه: ليأكلوا من ثمره ومن الذي عملته أيديهم، ويقصد به ما دخلته الصنعة الإنسانية قبل تناوله، وأشكال ذلك في المصنوعات الزراعية كثيرة، ومن رأيي (والمقام لتعداد النعم الإلهية وتذكير المقصرين بما يجب عليهم لله من

الشكر، بجانب التنبيه إلى سلطان القدرة الإلهية وشمول تأثيرها) أن الرأي الأول هو الأوجه والأليق بالمقام.

ولما كان موقف أولئك المكابرين من هذه الآيات: (وهم الذين لموقفهم الشاذ نزلت هذه الآيات) موقف الأعمى الذي لا يبصر، والأصم الذي لا يسمع حيث ظلت عقائدهم زائغة، ووجهتهم فاسدة لا جرم اختتمت الآية الكريمة بما يندد بخطتهم، ويستتكر مسلكهم فقال جل شأنه (أفلا يشكرون) بلفظ الاستفهام الإنكاري التوبيخي والفاء بعد أداة الاستفهام عاطفة على مقدر يقتضيه المقام ويدل عليه: أي أيتعمون بهذه النعم فلا يشكرونها ولا يقدرون فضل الله تعالى عليهم فيها.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِمَّا أَنْفُسُهُمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

بعد أن عدد الله تعالى في الآيات السابقة نعمه وآلاءه القاضية بالإجابة إليه وحده، وسجل على المشركين جحودهم، وجمودهم على ما هم عليه من ضلال وغي، وإصرارهم على تأليه ما لا يضر ولا ينفع. انتقل يقرر الحق ويثبت، ويوجه عباده الوجهة السليمة، ويرشدهم إلى النهج القويم الذي يجب عليهم انتهاجه، وأخذ أنفسهم به عقيدة وقولا، وذلك بقوله عز من قائل:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾

سبحان: علم على التسبيح الذي هو التباعد عن السوء والنقص اعتقادا وقولا. من سبح في الأرض والماء إذا أبعد فيهما وأمعن. وانتصابه على المصدرية، ولا يكاد يذكر ناصبه معه، وهو مشرب معنى الأمر والتوجيه. ومعناه:

أما وقد ألغى أولئك السفهاء المكابرون عقولهم، واتبعوا أهواءهم، وتعاموا عن الحق، وجدوا قضية العقل والمنطق السليم، فتركوا لهم

أهواءهم، ولا عليكم من ضلالتهم، واتجهوا أنتم الوجهة السليمة التي يعترف بها الوجدان، وتنادي بها الأكوان ونزهوا خالقكم وقدسوه عن كل ما لا يليق به مما حاول أولئكم الأغرار أن يسندوه إليه زورا وبهتاناً، تعالى عما يقولون.

والأزواج: الأصناف والأنواع التي أفاض الله تعالى عليها من لدنه الوجود. سميت أزواجاً لاختلافها في الخصائص، المقومات: الألوان والأشكال والطعوم والحجوم وما إلى ذلك. وإنما أضيف التنزيه إلى خلقها، لأن اختلافها في الخصائص والمقومات هو دليل التنزيه وبرهانه. إذا الخصائص المتقابلة والمتضادة بالنسبة إلى الكائن سواء لا ترجيح لخاصية منها على غيرها، فبروزه وظهوره في بعض المتقابلات دليل صريح على أن وراء هذه الظواهر قوة مؤثرة مرجحة تفردت بالإيجاد والتخصيص. أما قوله سبحانه:

﴿مَّا تَنبَتْ الْأَرْضُ ۖ ۞﴾ الآية.

فهو توجيه للأذهان إلى موطن الدليل ومظهر الآية الذي منه ينبثق النور الهادي. وهو: الأرض وما تنبت البطون وما تحمل، والأرحام وما تقذف، فمن الأرض ينبت الحب والفاكهة وما إلى ذلك من مختلف الأصناف التي سبق الحديث عن بعضها والتي ليس منا من يجهل ما بينها من تفاوت بل من تباين من ناحية الطبيعة والطعم والشكل واللون والأثر المترتب على تعاطيها، والنتائج المتخلفة عن استعمالها، مع وحدة الأرض التي أنبتتها وغذتها، والماء والشمس والهواء الذين اشتركوا في إكمال نموها، ومع قابلية كل كائن منها لصد ما برز فيه من خصائص، وإنه لميدان واسع يجد فيه المنتبِع لظواهره آيات وآيات كل منها يدعو إلى العقيدة الحقّة وينادي بها. وهو بعينه ما هدفت إليه الآية الكريمة: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَبَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ

وَزَرْعٌ وَتَخِيلُ صُنُوفٌ وَغَيْرُ صُنُوفٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَتَفْضِلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

ومن البطون يبرز الذكر والأنثى والأبيض والأسود والأصفر والأحمر، والطويل والقصير والرّبعة، كما يبرز الذكي والغبي والمتوسط في ذكائه، وكثيرا ما تكون النطفة التي تكونت منها هذه الخصائص المختلفة من أب واحد، والبطن التي حملت واحدة، وكم يجد الباحث في هذه الناحية اختلافا لا يدركه الحصر في هياكل النوع الإنساني، ومميزات أفرادها وخصائص كل فرد على حدة. وحسبنا أن نذكر في هذا المقام أن التشابه الكلى بين فردين من بني آدم لم يوجد إلى الآن حتى التوائم، يقرر الباحثون أن التشابه الكلى بينها غير متكامل. بل إن فيما أثبتته الكشف الحديث عن بصمات الإنسان واختلافها في كل فرد عنها في الآخر واختلاف الرائحة المنبعثة من كل فرد كذلك، كل ذلك وغيره مما كشف عنه أو سيكشف لأقوى برهان على العقيدة الإسلامية الحقّة. وقرأ هذا كله في قوله عز من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّنِّكُمْ وَالْوِلْدَانِ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وصدق الله تعالى حيث يقول:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

ولما كان مجال القدرة الإلهية أوسع مما تناولته حواسنا وأدركته أبصارنا، وبدائع الصنع الإلهي فيما خفي عنا أكثر بكثير جدا مما بدا لنا، وكان الكل يجتمع في أنه برهان ودليل على ألوهية الحق سبحانه وتنزهه عما لا يليق به، لذلك قال سبحانه: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾. أي خلق الأزواج أيضا مما لا يعلمون. ومن ذلك ما احتوته السموات في جنباتها وأرجائها، وما بطن في الأرض واستكن في أحشائها، وما اشتملت عليه العوالم العلوية الأخرى التي لا اطلاع لملائكة السموات السبع عليها، بل إن فيما تناولته أبصارنا وحواسنا

من الكائنات في الأرض والسماء: حية أو غير حية، لأسرار مخفية لا يذكر بجانبها ما علمناه عنه وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وإذ كان الكل مخلوقا، ودليل حدوثه فيه، ولن يتجرأ كائن أن يزعم أنه أوجد نفسه، أو قام بالإيجاد لغيره لأن الواقع يكذبه ويفحّمه. فكيف يستقيم أن يزعم مافون للخالق الأعظم شريكا من خلقه.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ لَا يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾

وبعد. فإن علينا وقد وجهنا إلى تعظيم الله تعالى وتمجيده، وتقديسه وتنزيهه، وأُقيمت لنا الأدلة على ذلك في الأنفس والآفاق. علينا أن نغذى دائما هذه العقيدة وننميها ونقويها بتسريح الطرف بنظرات التأمل والاعتبار في المكونات علويها وسفليها، فإن تكرار النظر إليها مع اصطحاب التفكير في عظمة منشئها وباهر قدرته، مما يزيدنا إيماننا على إيمان ويقينا على يقين.

كذلك علينا أن نذكر أن كل آية من تلك الآيات وإن اعتُبرت من ناحية خلقها دليلا وبرهاننا، فإنها من ناحية آثارها تُعتبر نعمة إحسانا، فلنحرص على تعرف ما لله تعالى علينا من فضل في إيجاده وتسييقها وجعلها بحيث تسد الكثير من حاجاتنا الملحة، ولنتصور أنفسنا بدونها لنستطع عندئذ أن ندرك أهميتها. فإن اتجاه تفكيرنا إلى ذلك من شأنه أن يحدث في مشاعرنا أحاسيس خاصة تدفعنا إلى أن نقف من الله سبحانه الموقف الذي يجب علينا أن نقفه كمؤمنين حباهم الله بفضله، وغمرهم بآلائه ومنته. ثم قال سبحانه:

﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

من الحقائق المقررة، والمعلومة من الدين بالضرورة أن الله تعالى ما أنزل القرآن الكريم على محمد ﷺ إلا ليكون كتاب الوجود كله، ودستور العالم، ونبراس هدايته، من يوم أنزل إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وإن كتابا هذا وضعه، وتلك وظيفته في الحياة، لم يكن بالذي يحقق الهدف المرجو منه، ويقوم بنصيبه في الإصلاح المنشود كاملا وافيا، إلا إذا كانت أوامره وإرشاداته، ومبادئه وتوجيهاته، وبراهينه وآياته (وبخاصة ما يتصل منها بالكونيات والنظريات العلمية) بحيث يهضمها كل عقل، ويستسيغها كل لب، وأن يكون الحديث عنها مفرغا في أسلوب يجعلها بمنجاة من تطاحن العقول البشرية حولها، واختلاف الأنظار إليها، ويجد فيه الرجل المحدود الثقافة، والفيلسوف المتعمق البحاثة، حاجة نفسه وشفاء غلته واطمئنان ضميره. وعلى هذا كان القرآن الكريم. وما كان له أن يكون إلا هكذا ما دام تنزيل الحكيم الحميد بل لو قدر له أن يكون على غير هذا الوضع، لكان من المشكوك فيه أن ينجح هذا النجاح المنقطع النظير الذي سار برسالته مسار الشمس، وأجبر أعداءه على الإشادة به والاعتراف له بالفضل مرغمين.

أتقدم بهذا تفسير الآيات الكريمة التي معنا، والتي تناولت بالبيان آية كونية اختلفت فيها آراء علماء الفلك قديما وحديثا، وكان لكل فريق قول يضاد قول الآخرين، القدامى يقولون: إن الأرض هي الثابتة والشمس والقمر والنجوم تدور حولها، والمتأخرون يعكسون الوضع ويقولون بتحريك الساكن، وسكون المتحرك في قول من تقدموهم، ولسنا ندري بعد ما يأتي به الزمن. أتقدم به لأعلن أننا في غنى كلي عن محاولة ربط الآيات الكريمة بأحد الرأيين، وتنزيلها عليه، وقصر معناها على هذا الرأي أو ذاك، لأن القرآن الكريم لم يخاطب بها علماء الفلك وفلاسفة الكونيات فقط، إنما خاطبهم وخاطب غيرهم ممن لا تعرف أكثريتهم عن هذه العلوم شيئا، بل إن أولئك

الذين تحدث إليهم القرآن بهذه الآيات أول ما تحدث كانوا إذ ذاك أبعد الأمم عن العلوم والمعارف، وكان مستواهم العلمي مثلاً في الضعف.

إننا من غير شك في غنى عن ربط القرآن بدقائق النظريات العلمية، ونتاج المجهود البشري القابل للمد والجزر، والتحوير والتعديل، ومن الإساءة إليه أن نحاول ذلك ونربط بعض آياته ببعض الآراء ونجعله معناها المراد، لأننا بذلك نجعله هدفاً للاتهام بالقصور والخطأ (تتزهت ساحته عن ذلك) فيما إذا ثبت بالدليل القاطع مجانية هذا الرأي للصواب.

لنترك لرجال العلوم الكونية أبحاثهم ولندعهم يقررون من النظريات والآراء على ضوء تجاربهم الخاصة ما يقررون، ولنجنب كتابنا (وأكررها عامداً) هذا المعترك الذي ليس من مقاصده وأغراضه الخوض فيه (وليس ذلك بغاض من مكانته)، ولنتناول ما تعرض له من الآيات الكونية من الناحية التي تكفل الاستدلال على الله، والبرهنة على صفاته العالية، وهو القدر الذي لا يتأتى الخلاف فيه، والذي يقع في متناول جميع العقول البشرية.

إن القرآن الكريم حينما يذكر لنا السحاب وتجمعه ويتحدث عن الرياح وهبوبها، والأمطار ونزولها، ويوجه الأنظار إلى النبات واختلاف أصنافه، وتنوع خصائص كل صنف، وما إلى ذلك مما حفل القرآن بالحديث عنه، وإنه لا يريد بحال أن يتحدث عنها من حيث تكوينها وماهيتها واتحاد عناصرها، وأسرار ظهورها ونواميس وجودها، وإنما يحدثنا عنها من ناحية أحوالها الظاهرة المحسوسة التي تدل بتنوعها في هياكلها وخصائصها وأثارها وما إلى ذلك، على أنها لم تصدر عفواً، أو توجد اعتباطاً، أو عن طريق التكون الطبيعي، أو العلية المزعومة، بل صدرت عن ذات كاملة في وجودها وحياتها، حكيمة في صنعها وتقديرها، ومتفردة في ألوهيتها وسلطانها، لا يعجزها شيء ولا تغالب إرادتها.

بل هذا الكتاب الكريم نفسه يسند ما ذكرت، وهذا الرسول ﷺ يقف بالناس فيما يتصل بالناحية الدينية عند هذه الحدود، ويصرفهم عما عداها، ما دام ليس ضروريا في تقوية صلتهم بالله. وذلك عند ما سألهم من الصحابة عن الهلال يبدو صغيرا ثم يكبر، ثم يعود بالتدريج صغيرا كما كان. يسألونه فينتظر وحي السماء كعادته، ثم يجيء الوحي. فهل جاء بيان الأوضاع الفلكية للقمر، وهل تحدث عن دورانه حول نفسه، ومقابلة وجهه المصقول للشمس شيئا فشيئا الذي هو سبب الاستتارة كما يقرر علماء الهيئة؟ لا. لا. ما تحدث عن شيء من ذلك كله. إنما نقلهم إلى ميدان آخر، هو ميدان الآثار المترتبة على هذه الظاهرة وأثر ذلك في نظام حياتهم ومعاشهم ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ﴾، وهو قدر من البيان يشترك في إدراكه، والإحساس بفائدته الجميع.

فلنقف عند هذا الحد في الحديث عن الكونيات التي يتعرض لها القرآن الكريم. ولنترك ما عداه لمقام غير مقام تفسيره، أو إن جئنا به فعلى أنه بحث استطرادي قد لا ياباه النص، لا على أنه المعنى المراد.

وهذه الآيات توجيه آخر من الله تعالى لعباده، ولفت لأنظارهم إلى بعض آيات السماء الناطقة بوجوده وألوهيته وشمول قدرته، بعد توجيههم من قبل إلى بعض آيات الأرض. وجّه أنظارهم إلى السماء، ودعاهم إلى التفكير في كوكبيها النيرين، وفيما تستتبعه حركاتهما في فلكيهما، وتنتقلهما على مقتضى ناموسهما، من آثار وظواهر تمثلت في الليل والنهار والشهور والسنين، والفصول المختلفة الطباع، وكلها أمور استبانت حكمتها، وظهرت فائدتها، وأنه لولاها ولولا هذا النظام البديع لكانت الحياة على الأرض جحيما لا يطاق، وعبئا ثقيلا لا تحتمله قوى البشر، فله سبحانه الحمد والمنة.

تحدث الحق تعالى أولا عن الليل مشيرا إلى آيته بقوله عز من قائل:

﴿وَايَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ﴾ والليل موطن الآية ومصدرها ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ وهذا مظهر الآية الذي دعينا إلى التأمل فيه. وأصل السلخ ما بين جلد الحيوان ولحمه من الاتصال، والمراد منه هنا تمييز النهار من الليل وإزالته عنه. ومن ثمَّ كان في الكلام استعارة ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ﴾ أي داخلون في الظلام مفاجأة، فإذا ما سقط قرص الشمس، وتوارى وراء الأفق هجمت جيوش الظلام وأحاطت بالناس سرادقاته. ثم تحدث سبحانه عن قرين الليل وهو النهار، مترجما عنه بكوكبه وهي الشمس بقوله سبحانه ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ وجريان الشمس حركتها المرئية على سطح الأفق، والمستقر: موضع القرار، واللام بمعنى إلى، أي تجرى لمستقر لها، وإذا كان للشمس في رأي العين حركة أفقية يومية من المشرق إلى المغرب تختفي بعدها، وحركة رأسية تعلو معها في المطلع إلى حد مخصوص، ثم تهبط كذلك إلى حد مخصوص ثم تعود، وهكذا دواليك. لذلك اختلف العلماء لمعنى جريانها إلى مستقرها. فمنهم من قال: مستقرها: وقت الغروب الذي تختفي بعده من الأفق. ومنهم من قال مستقرها: أبعد منازلها ارتفاعا في الصيف وانخفاضاً في الشتاء، وهما المعبر عنهما في علم الهيئة بمدار الجدي ومدار السرطان، وعن ذلك تنشأ الفصول، واختار هذا القول الفخر الرازي. وثمة قول ثالث نزع أصحابه إلى المعنى المتبادر من اللفظ فقالوا مستقرها: هو يوم القيامة إليه ينتهي أمرها، وعنده تسكن حركتها ويزول سلطانها. والنفس تستريح إلى هذا الرأي لأن فيه الإشارة إلى نظام الشمس وناموس حركتها ومسيرها نظام محكم ثابت لا يتطرق إليه وهن ولا يتسرب إليه خلل حتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ذلك أي ما ذكر قبل من الليل والنهار والشمس، تقدير العزيز: وهو الغالب بكمال القدرة لا يعجزه شيء، العليم: الذي أجراها على هذه الوتيرة علما منه بما

يصلح لعباده، ويتطلب نظام حياتهم، وتقتضيه عمارة الكون إلى الوقت الذي قدر له ألا.

وبعد. فلقد تحدث الحق سبحانه عن الشمس مدبرة قد ضعف سلطانها، وهبطت من كبد السماء تجر برفق أذيالها، وتسحب من ذرات الهواء خيوطها حتى تختفي نهائيا، وتترك الكون للسكون يسوده، والظلمة تتغشاه، والرغبة تسيطر عليه كما تحدث عنها مقبلة تؤدي وظيفتها اليومية المعتادة: تنشر في الكون النور والضياء، وتملأه بالبهجة والرواء، وتحمل إلى سكان الأرض الخير في مختلف الأشكال، وتنثر بينهم الحركة والنشاط واعتبر ذلك كله آية تدلنا عليه، وتدعونا إليه، وتصل حبلنا وثيقا به، وتجعل منا مؤمنين بحق قانتين خاشعين، فكيف تكون هذه آية؟ ومن أية زاوية من زواياها ننظر؟ هل ننظر إليها من ناحية خلقها العظيم وما يدل عليه من بهر القدرة؟ أم ننظر إليها من ناحية سيرها المحكم وما يدل عليه من كمال الصانع جل شأنه وواسع حكمته؟ أم ننظر إليها من ناحية ما ينعم به العالم عن طريقها في رزقه وفي تسيير دفة شئونه المتنوعة، وما ينطوي عليه ذلك من عظيم الفضل وكبير المنة؟ إننا من جميع الزوايا سننظر، وما أجدر آيات الله بذلك.

إن النظر إليها من حيث أصل الخلقة يقود الناظر المنصف حتما إلى الإيمان بوجود بارئها سبحانه وألوهيته على أساس قوله سبحانه الذي ساقه في أسلوب التبكيت والتفريع للمشركين. ﴿أَمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا إِلَهُهُمُ اللَّهُ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ الآيات. كما تهديه عظمة خلقتها وكونها مصباحا واحدا أضاء الله به العالم الأرضي كله مع اتساع أرجائه وتباعد أطرافه تهديه إلى سعة القدرة الإلهية وشمولها وتقذف في قلبه الإيمان بالبعث والإعادة الذي كابر فيه المكابرون لأنه ليس أعظم من خلقها.

كما أن النظر إليها من ناحية دقة ناموسها، وإحكام نظام سيرها الذي ظل تلك الحقب الطويلة سليماً، ما تطرق إليه خلل، مضافاً إليه ما استتبعته حركتها في فلكها من آثار وظاهر لكل منها صدها في استكمال العالم نظام حياته، واستمداده عناصر بقائه. إن النظر إلى ذلك كله كفيل بأن يملأ القلوب إيماناً بكمال الخالق وسعة علمه، ودقة صنعه، وأنه حقاً (العليم الحكيم).

بقى النظر إلى هذه الآية من ناحية ما تنطوي عليه من نعم وآلاء، وإنه للميدان الواسع الذي ينبغي أن لا تنقطع أذهان المؤمنين عن الجولان فيه ليكسبها ذلك مزيداً من التعلق بالله، أو يردّها عن غيها إن كانت ممن غلبتهم أهواؤهم على أمرهم، واستحوذت عليهم شياطينهم. وإذ كانت النعم لا تدرك قيمتها على الوجه الحق إلا إذا حيل بين الإنسان وبينها. فإن علينا أن نفترض تلاشي هذا الكوكب وننظر ماذا تكون النتيجة، وما هو مبلغ الضرر الذي سيحيق بنا، وعندئذ سندرك مبلغ المنّة فيه.

ليغمض كل منا عينيه فترة، ويفترض أن الشمس في الكون، وإذا فالنتيجة لا نهار، وحيث لا نهار فلا حياة ولا سعادة بل شقاء عام وفقدان لجميع المنافع التي يستمدّها النوع الإنساني من وجود الشمس في كيانه ورزقه. أو ليفترض أنه لا غروب للشمس، وإذا فلا ليل، وحيث لا ليل، فلا راحة ولا سكون، ولا حساب ولا تاريخ ولا غير ذلك مما نستفيد من وجود الليل والنهار متعاقبين.

بل ليفترض أن حركة الشمس لزمت وضعا واحداً وكن مشرقها واحداً ومغربها واحداً من غير تنقل. وعندئذ لا يكون ثمة فصول ولا طيب للزرع، ولا نضج للثمر، وبالتالي لا حياة للإنسان لما هو مقرر من ضرورة اختلاف الفصول لحياة الإنسان والحيوان وتمام الإنبات. إنها لنواح من التفكير نقرأها واضحة في قول الله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

وكما تحدث القرآن عن الليل وعن الشمس كوكب النهار، كما تحدث
كذلك عن كوكب الليل وهو القمر بقوله عز من قائل ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾
وكلمة القمر في الآية منصوبة وناصبها فعل مقدر، بينه وحدّه ما بعده،
والتقدير وقدّرنا القمر قدرناه منازل، وفي قوله: قدرناه منازل حذف أيضا
تقديره: قدرناه ذا منازل، أو قدرناه مسيره في منازل.

ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلا، ينتقل القمر فيما بينها، وينزل
كل ليلة في منزل منها، يبدأ مسيره أول ليلة من الشهر هلالا رقيقا دقيقا
ضئيل النور، وكلما انتقل من منزل إلى آخر ازداد نوره ونما هيكله إلى أن
يتكامل بدرا ساطعا في تمام أربع عشرة ليلة، ثم يبدأ يصغر جرمه،
ويتضاءل هيكله كلما مرت عليه ليلة حتى يعود كما بدأ بعد ثمان وعشرين
ليلة دقيقا ضئيلا باهت النور، ثم يدخل في المحاق ويتلاشى أثره ليلة أو
ليلتين حسب عدة الشهر، ثم يبدأ مسيره في أول منازل هكذا دواليك. وذلك
معنى قوله عز من قائل: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾، والعرجون عود الشمراخ إذا
مضى عليه حول فأكثر، إذ أنه يدق ويتقوس إذ ذاك. شبه به القمر في آخر
منازله قبيل المحاق في الدقة والتقوس.

ذلك معنى الآية الكريمة على مقتضى ما تؤديه ألفاظها. أما موطن
الهداية فيها الذي وجّهنا إلى التفكير فيه، وتحريك الأذهان إليه، استجلاء لما
انطوى عليه من باهر القدرة، وجليل الحكمة، وجزيل النعمة. فإن في قوله
سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾

وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ، ما يكشف سبيله ويوضح منهجه ويرسم
لأفكارنا طريقها إليه.

نعم. فإن الاختلاف البين بين النيرين من حيث طبيعة كل منهما، وقوة
الإضاءة وحرارتها في الشمس، وضعفها ورطوبتها في القمر، ومن حيث
مجانسة الإضاءة وحرارتها في الشمس لما جعل له النهار من الحركة
والنشاط والانتشار والسعي، ومجانسة الإضاءة في القمر لما جعل له الليل
من الهدوء والسكون والنوم. ثم من حيث ما يترتب على هذا الاختلاف من
آثار لها أوثق الاتصال بعمارة الكون وتوفير أسباب الحياة لسكان البسيطة،
كل ذلك آيات بينات تقود الناظر المنصف إلى الحق، وتهدية سواء السبيل،
وتملأ نفسه إيماناً بأن مبدع الكون ومنظمه إله عظيم قدير عليم مدبر حكيم.

كذلك تتقل القمر بين منازلها واختلاف أشكاله تبعاً لذلك من استهلاله
إلى محاقه. هو: من حيث ثبات ناموسه على حال واحدة عجز الزمن مع
طول تقادمه أن يعدو عليها بالخلل، دليل سعة القدرة وإحكام الصنعة، ومن
حيث ما ترتب عليه من تحدد الشهور ومعرفة السنين وسهولة ضبط الأعمال
وانتظام شئون المعاملات نبعا لذلك، دينية كانت أو دنيوية، يعتبر موطن نعمة
ومبعث منة، الله تعالى علينا بالنسبة إليها حق الشكر. أما قوله عز من قائل
بعد ذلك:

﴿لَا الشَّمْسُ بِنَبْغِي لَهَا..﴾ الآية، فهو إيذان ببقاء النيرين كما هو لا يدركه تغيير،
ولا يتسرب إليه شيء من خلل حتى يأذن الله بفناء هذا العالم، ويرث الله
الأرض ومن عليها. ﴿يَنْبَغِي﴾ يصح ويتأتى، أي لا يصح ولا يتأتى للشمس
بمقتضى ناموس سيرها الذي قدره الله لها وفطرها عليه أن تدرك القمر
وتغالبه في سلطانه، مما يترتب عليه استمرار النهار أبداً.

﴿وَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ قيل المراد كوكب الليل وهو القمر، فهو مقابل لسابقه، وقيل لا تقدير.

والمعنى: إن الشمس تلزم مدارها ولا تخرج عن خط سيرها في فلكها، ولا تراحم في السلطان القمر. وكذلك الليل والنهار يتعاقبان منذ خلق الله الدنيا إلى أن تقوم الساعة: النهار هو النهار، والليل هو الليل، ووقت ظهور سلطان الشمس في مكاناً ما في يوم من أيام السنة هو بعينه وقت ظهورها في نظائره من السنين الأخرى، ومدته مدته لا يزيد ولا ينقص. ومثل ذلك أوقات ظهور القمر واختفائه لا تحوير في شيء من ذلك ولا تبديل ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي تَمُوتُ كُلُّ شَيْءٍ﴾.

هذا. وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال يوماً "أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يُقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجرى حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة ولا تزال كذلك حتى يُقال لها: ارتفعي ارجعي من حيث جئت فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجرى لا يستتكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش فيُقال لها ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها. فقال رسول الله ﷺ: أتدرون متى ذلكم؟ ذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً"، وفي البخاري بنحوه.

هذا الحديث ربما يطلع عليه بعض القاصرين في الفهم الذين درسوا ما ذكر في بعض المؤلفات المتصلة بعلم الهيئة والتي تتحدث عن الشمس فيحدث ذلك عنده بعض التشكك والحيرة تأثيراً بما استقر في ذهنه عن معنى السجود. والأمر من اليسر بمكان. فإن السجود قد يطلق ويراد به وضع الجبهة على الأرض. وقد يطلق ويراد به الخضوع والانقياد التام. ويعين أحد

المعنيين القرينة القائمة. وما معنا هنا من قبيل الإطلاق الثاني. فالمراد من السجود في الحديث، الانقياد التام لتدبيره تعالى، والخضوع الكلي لأمره إيدانا بأن هذا المخلوق العظيم خاضع في حركاته وسكناته لأمر الله تعالى وتدبيره، وهذا المعنى هو بعينه معنى السجود في آية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ ثم قال عز من قائل:

﴿وَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٦٦﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ، وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٦٧﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ الذرية مشتقة من الذرء بمعنى الخلق، ومن ثمَّ صحَّ أن يراد بها الأصول: الآباء، كما يراد بها الفروع الأنباء، وذلك الشائع المشتهر، والقرينة هي التي تجعل أحد الإطلاقين أولى من صاحبه ﴿الْفُلِّ﴾ كلمة تستعمل للواحد وللجميع، فمن جعل ﴿الْ﴾ فيه للعهد فسره بفلك نوح عليه الصلاة والسلام، الذي حمل فيه من كل زوجين اثنين، وأهله ومن آمن به، ومن جعلها للجنس فسره بالسابحات على سطح الماء، الماخرات في عبابه ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ الصريخ صوت المستصرخ، ويطلق أيضا على المغيث والمستغيث. وهو هنا محمول على المغيث الذي يسمع صوت المستغيث فيسارع إلى إنقاذه ﴿مَتَاعًا﴾ أصل المتاع، السلعة ويطلق أيضا على الانتفاع. ويحمل ما هنا عليه، أي تمتيعهم وانتفاعهم بمتع الحياة إلى أن يحين الوقت الذي قدره الله لهم.

المعنى: لفت الله سبحانه أنظار عباده، ووجههم إلى التفكير والاعتبار بآثار قدرته ومظاهر حكمته وألوان نعمه وآلائه في البحار، بعد إذ وجههم إلى

الاعتبار بما أودعه منها في الأرض والليل والنهار والشمس والقمر. وما آية البحار البارزة إلا تلك السفن التي تمخر عبابها، وتشق أمواجه، وتجري بتيسير الله تعالى وأطافه على سطحها تحمل الأرزاق والأقوات، وتنقل مختلف المصنوعات، وتقرب البعيد، وتربط أجزاء المعمورة بعضها ببعض، وبالتالي تحقق المنفعة المتبادلة بين أفراد النوع الإنساني على أعم وجه وأكمله، وقد تناول الحديث القرآني عن الفلك في هذه الآية ثلاث نواح: (أولها) حمل الذرية في الفلك المشحون، (ثانيتهما) هدايتهم إلى صنع للمماثل انتفاعا به، (ثالثهما) تمكينهم من الوصول إلى بر السلامة والأمان، وفي أولها يقول عز من قائل:

﴿وَايَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ وقد ذهب بعض المفسرين إلى حمل الفلك على الجنس وفسره بالسفن السابحة كما فسر الذرية بالمعنى الشائع وهو الأبناء وقال: إن سبب التصريح بالأبناء، أنهم كانوا يرسلون تجارتهم عادة مع أبنائهم وإن الله تعالى قد امتن عليهم بذلك تنبيهاً إلى أنه لولا حفظه ورعايته وفضله ومنته لما سلم أبنائهم وأموالهم ولا اتسعت مواردهم ونمت تجارتهم ومن قال ذلك اضطر إلى أن يفسر ما بعده ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ﴾ بسفن الصحراء وهي الإبل تحمل تجارتهم وأقواتهم ويعتلون ظهورها إلى حيث يقصدون، من أرجاء الأرض.

ولئن كان لهذا التفسير ما يبرره: من حمل الذرية على المعنى الشائع القريب، ومن بقاء معنى (الخلق) على أصله من غير تأويل. فإنه قد استبعد وضعف لما يؤدي إليه من تشتيت الضمائر والفصل بين أجزاء الكلام الواحد لما هو أجنبى عنه. وذلك: أن صدر الآية وعجزها. سيق الحديث فيهما عن البحار وآيتها، ومظهر المنة الإلهية على المسافرين فيها. ومن ثم يكون الحديث عن الإبل بين الصدر والعجز، وهي لا تمت إلى البحر وما فيه بصلة، إخراجاً للنظم القرآني عن الاتساق والانسجام الذي هو أبرز مميزاته

من غير ضرورة تدعو إلى ذلك، وهو كلام له قيمته ووجاهته، والنفس تستريح إليه.

أما الرأي فمقتضاه: حمل الذرية على الآباء وحمل الفلك على فلك نوح عليه الصلاة والسلام، وعليه تكون الآية الكريمة صالحة للإنذار عن طريق توجيه الأذهان إلى قصة نوح عليه الصلاة والسلام وطوفانه، وكيف أهلك الله تعالى به من كفروا ببنبيه وحاربوه، وأفناهم مع كثرة عددهم، وقلّة من آمن به واستجاب لدعوته وما كانت كثرة العدد ووفرة العدد بالتّي تمنع عنهم نقمة الله عندما توجهت إرادته سبحانه إلى الانتقام منهم. وفي هذا الزجر لأعداء الدعوة المحمدية، إذ ما كانت سنة الله تعالى مع أوليائه وأعدائه بالتّي تتغير، فكما نصر نوحا عليه السلام مع ضعفه المادي، وخذل من كفر به وناوأه مع قوته، وكما فعل مثل ذلك مع من جاء بعده من إخوانه المرسلين. كذلك سينصر رسوله محمداً ﷺ، ويخذل أعدائه الذين يجادلون في الحق بعد ما تبين، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ﴾.

كذلك هي صالحة للحمل على الامتنان والتذكير بالنعمة. وكأن الحق سبحانه يقول لهم: لولا هدايتنا وتعليمنا نوحا عليه الصلاة والسلام صناعة الفلك وأمرنا له بأن يحمل فيه من كل زوجين اثنين، ثم حفظه بعد ذلك ووقايته من التحطم تحت تأثير لطمات المياه القوية. لولا ذلك الذي أدى إلى الإبقاء على النوع الإنساني وما به حياته، لما كان لكم على ظهر الأرض وجود، ولا بما عليها من حيوان تمتع وانتفاع. أما الناحية الثانية ففيها يقول الحق سبحانه: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

وذلك المماثل هو ما هدى الله تعالى العباد إليه اقتداء بنوح عليه السلام من صناعة أنواع الماخرات صغارها وكبارها، ما يتحرك منها بالشرع وما يتحرك بقوة البخار. وإنما نسب خلقها إلى الله تعالى مع مباشرة العباد

صنعها، وظهور أنها من عمل أيديهم ومن ثمار تفكيرهم، نظرا إلى مزيد اختصاص أصلها بقدرة الله تعالى وحكمته حسبما يعرب عنه قوله سبحانه **﴿وَاصْنَعُ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾**، وأيضا أنه لولا إمداد الله تعالى لعبده بالقوة، وتيسير آفاق التفكير أمامه، وتذليل العقبات التي تحول عادة بينه وبين أهدافه وأغراضه. لولا ذلك لما كان له وصول إلى هدف، ولا تحقيق لغرض، ولنذكر قوله سبحانه: **﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾** إذ فيها فصل الخطاب والكفاية لمن برئ من المكابرة واللجاج. بقيت الناحية الثالثة، وتلك التي تناولها قوله سبحانه:

﴿وَأَنشَأْنُ لَهُمْ الْيَمِينَ...﴾

وفى هذه تنبيه المخاطبين إلى أن نجاتهم من أخطار البحار، ووصولهم بر السلامة والأمان، وبلوغهم ما يهدفون إليه من رحلاتهم من أمان وآمال، إنما هو رهين قدرة الله وإرادته، وأسير فضله ومنته. فلو قد توجهت إرادته سبحانه إلى الضد لما كان لهم في الحياة بعد ذلك نصيب، ولكن الغرق أسرع إليهم من أنفاسهم لا يصرفه عنهم من الخلق كافة صارف، ولا يدفعه عنهم دافع، وذلك معنى قوله سبحانه: **﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾**. ثم بعد أن نفى الحق سبحانه الإغاثة والإنقاذ عن طريق الخلق كائنا ما كانوا في حالة ما إذا شاء الحق إغراق فئة من راكبي البحر تنبيهها إلى كمال هيمنته وسلطانه. أثبتنا سبحانه لذاته تحقيقا لما سبق به علمه وتعلقت به إرادته فقال: **﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾** أي: لا يغاثون ولا ينقذون إلا من طريق واحد هو رحمتنا بهم وتيسيرنا سبل النجاة لهم ليأخذوا من الحياة حظهم المقدر لهم في سابق الأزل إلى أن يأتي الوقت المعلوم والأجل المحتوم الذي تتقضي عنده أنفاسهم وينقطع حبل حياتهم. وليس بخاف ما تنطوي عليه هذه العبارة

الأخيرة من إشادة بقدرة الله، وتنبية على سعة سلطانه، وخضوع الكون له وسرعة إنفاذ إرادته، ولحوق انتقامه وبطشه بمن أراد به انتقاما وبطشا أيا كان، ومهما كان أنصاره وأعدائه والمدافعون عنه قوة وكثرة. إذ كل ذلك أمام قدرة الله هباء - ليس بخاف ما تتطوي عليه من وعيد وتهديد وإنذار لمن غلبتهم الغفلة وراى على قلوبهم ما كانوا يكسبون.

وبعد: فإن لنا من هداية هذه الآية نصيبا لا ينبغي أن يصرفنا عن التنبه إليه انصباب الحديث فيها على السابقين. وإن نصيبنا من هذه النعمة ليحتم علينا أن نفكر كثيرا فيها كلما تهيأت لنا أسباب التفكير وما أكثر ما نتهيا، ولنحاول أن ننفع بذلك فيما بيننا وبين الله عز وجل، ونوثق من علاقاتنا به. فليت شعري أكان يتأتى للعالم أن ينعم بما ينعم به اليوم لو لم يرشد الله تعالى رسوله نوحا عليه السلام على لسان أمينه جبريل عليه السلام إلى صنع الفلك، ثم يرعاه ويحفظه ويجريه في سلام وأمان بين أمواج كالجبال، ما كان يمكن لفلك في حجمه ومادته أن يصمد لها، ولا أن يتحمل لطماتها، وأخيرا يلهم عباده إلى اتخاذ هذا الصنيع نموذجا يحتذى، ويصنع على غرار الكبير من صنفه والصغير. ويضاف إليه الكثير والكثير جدا من التحسينات اللهم ما كان لهم إلى هذا من سبيل فله سبحانه الفضل والمنة.

كم قربت السفن بعيدا، وكم سهلت صعبا شديدا، وإن علينا أن نذكر أنفسنا بهذه النعمة الكبرى علينا، عندما نطعم طعاما، أو نتناول دواء، أو نستعمل أداة حملتها إلينا السفن بينما نحن في أشد الاحتياج إليها، وبدونها تسوء أحوالنا، أو يقف دولا بأعمالنا، أو ينخفض مستوى حياتنا. عسى أن تنفع الذكرى المؤمنين، ولنتصور في خيالنا تلك المآثرات في أحضان اللجج يتفضل الله على من فيها فيرسل إليها الرياح مواتية تدفعها إلى حيث تقصد إن كانت شراعية، ويكف عنها وعن أخواتها البخارية الأنواء والعواصف التي لو اعترضتها لدمرتها وذهبت بها وبمن فيها إلى القاع، ولا يزال

يحوطها بالطفاه حتى تبلغ مأمنها. ثم لنسأل أنفسنا بعد ذلك هل عرفت الله في ذلك حقه؟ وهل أدت واجب الشكر؟ وهلا تخشى إذا استمرت على الجحود أن يصلّيها الله نار الحرمان، ويعاجلها بالانتقام. لنذكرها بذلك ولنذكر بجانبه قول الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٦٨﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٦٩﴾ أَوْ يُوقِعْهُمَا كَسْبًا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٧٠﴾﴾.

إن منا الكثير يركبون البحر لقضاء بعض المصالح أو لتحقيق بعض الأغراض فإذا ما استنوا على ظهره وسيقت إليهم بعد أمان وهدوء بعض العواصف النائرة تهزهم هذا وتلعب بماخرتهم وتبعثر أمتعتهم. لجأوا إلى الله ضارعين، ولرحمته مؤملين، وبجنابه لائذين، ولو فتحت قلوبهم حتى قلوب العصاة الفاجرين منهم الموغلين في فجورهم، لما وجدت فيها إلا الله لجوءاً إليه واستغاثة به وربما صلب ذلك إنابة ورجوع وتوبة وندم ولكنهم لا تكاد تنفرج أزمعتهم، ويعود إليهم أمنهم، حتى يعودوا سيرتهم متناسين ما عاهدوا عليه ربهم. وإلى هؤلاء وأمثالهم من الغافلين عن ربهم نسوق ما أنزله الله في أمثالهم عظة وتبصيرا لهم ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُوا إِلَّا إِلَهُكُمْ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٨﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بَيْنَكُمْ الْبَرَّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٩﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٧٠﴾﴾ نسوق ذلك إليهم، ونضعه بين أعينهم ليذكروا به أنفسهم لعلهم يهتدون، وبالحق والدين يستمسكون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٦٨﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِي نَكْفُرُ بِهِ لِلَّذِينَ آمَنُوا نَلْطَعُمُ مِنْ لَوْشَاءِ اللَّهِ أَطَعَمَهُ، إِنَّكُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٩﴾﴾.

المعنى: في الآيات السابقة تحدث القرآن الكريم عن آيات الله تعالى ومظاهر قدرته في الأنفس والآفاق. في الليل والنهار والشمس والقمر، والفلك التي تجرى في البحر. وإذا كان من شأن هذه الآيات البينات أن تأخذ بيد الناظر المنصف إلى الحق، وتهديه سواء السبيل، وكان موقف أولئك المكابرين منها ومن دعوة الله الحق موقف شذوذ وعناد وانحراف وتعام عن الحق. لا جرم سجل الله تعالى عنهم ذلك، وفصل موقفهم المخزي المجانب للرأي السديد والعقل السليم في الآيات التي معنا، مبينا أولى قبائحهم بقوله عز من قائل:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ اتفق المفسرون على صرف هاتين الكلمتين عن المعنى المتبادر منهما، وإن اختلفوا في المقصود منهما. فعن قتادة: ما بين أيديكم: ما علمتموه واستفاضت أنبأؤه لديكم من صنع الله تعالى بالمكذبين أمثالكم الذين وقفوا من رسلهم موقف العناد وكيف أنزل الله بهم انتقامه، وأصلاهم عذابه صعقا وغرقا وخسفا ومسحا. وما خلفكم: ما أنذرتكم به من عذاب الآخرة ونكالها. وعن ابن عباس وابن جبير ومجاهد: ما بين أيديكم: ما مضى من الذنوب التي اقترفتموها والموبقات التي ارتكبتموها. وما خلفكم ما ستقترفونه منها مما سيدفعكم إليه الجحود والكفران (لعلكم ترحمون) لعل للترجي والترجي بالنسبة إلى الله تعالى غير مقبول، ومن ثم جعلت بمعنى (كي) أي لكي ترحموا. أما جواب (إذا) فهو معلوم من الآية بعده أي (إذا قيل لهم ذلك أعرضوا).

والمعنى: إن أولئك الذين عادوا دعوة الرسول ﷺ لم يقف بهم الأمر عند حد التعامي عن الآيات الكونية التي دعوا إلى التفكير فيها والاعتبار بها، بل تجاوزوه إلى التكذيب والإعراض عن الآيات التنزيلية. فإذا ذكروا بآيات الله

الزاجرة المتوعدة بسخط الله وغضبه، المحذرة لهم من سيف الانتقام الإلهي المصلت فوق رؤوسهم، إذا ذكروا بذلك وقيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم بالاستجابة للرسول ﷺ والاعتذار إليه عما فرط منكم، والاعتصام بحبله، والسير على نهجه الأقوم، وإذا قيل لهم ذلك لم يكن نصيب النصيحة إلا الإهمال. ولا نصيب القائل إلا الإعراض عنه والزراية بما جاء به ورميه بكل نقيصة وإنهم بهذا قد سجلوا على أنفسهم خرق الرأي وبلادة التفكير، وأنهم لا في سلك أهل العقول انتظموا، ولا عند مرتبة العامة والدهماء وقفوا، إذ شأن العامة أنهم يبنون الأمور على الاحتياط فإذا ما حذروا من أمر ونهبوا إلى شره عملوا على توقيه حتى ولو لم يبلغ النبأ عندهم مرتبة اليقين، ثم قال جل شأنه:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَاتٍ مِنْ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

وهذه الآية فوق تحديدها لجواب الشرط السابق. تبين وتفصح أن ذلك الموقف السابق ذكره ليس إلا جزء من إحساسهم العام، ونظرتهم إلى كل ما يجئ من عند الله تعالى، وأن ديدنهم الذي التزموه، ودينهم الذي ارتضوه لأنفسهم بالنسبة إلى آيات الله تعالى، لا يعدو الإعراض والرفض، والنبذ والطرح، سواء من ذلك التكويني أو التنزيلي. حتى في المواطن التي أفحمهم فيها الدليل وأسكتهم البرهان لم يتغير موقفهم، ولا استقام اتجاههم، بل كانوا يتخلصون من ورطتهم بقولهم: إن هذا إلا سحر مبين. ثم أشار القرآن إلى قبيحة أخرى من قبائحهم بقوله:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ.. الآية﴾.

وفى هذا إشعار بأنهم كما أهद्रوا حق الخالق سبحانه بالشرك به، والإعراض عن أمره، كذلك أهद्रوا وأضاعوا حق المخلوق بالشح عليه، والظن بمساعدته، مع تبرير ذلك بتعلات واهية، وتفاهات ساقطة لا قيمة لها

ولا اعتبار بها. أي: إذا قيل لهم تعطفوا على الفقراء والمحتاجين، وساعدوا
البؤساء والمساكين، وفرجوا كرب المكروبين، واملأوا بطون الجائعين،
وأحسنوا إليهم كما أحسن الله إليكم، وأفوضوا عليهم مما أفاض الله تعالى
عليكم من نعمه وعطاياه، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم. إذا قيل لهم ذلك
أبوا ورفضوا، وتولوا وأعرضوا، ومضغوا بأفواههم ألفاظا وعبارات جوفاء،
والتجأوا إلى حجج ومقاييس لا سند لها من عقل ولا من تفكير سليم، بل هي
إلى الخبل أقرب، وبالجنون ألصق.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ استتکروا ذلك الطلب، وأنبوا
الداعين إلى الإنفاق، ونسبوه إلى الجهالة. والمعنى: إنكم تزعمون معشر
المسلمين أن الله تعالى بيده مقاليد السموات والأرض، وأنه لو شاء أن يمنح
هؤلاء من خزائنه ما يغنيهم ويكفيهم لفعل، ومن ثم فإن حرمانه إياهم دليل
واضح على أنه لا يريد أن يطعمهم، فكيف تريدون منا أن نخالف إرادة الله
ونطعم من حرمة، ونعطى من منعه ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ إنكم إذ تأمروننا
بذلك، وتحاولون أن تحملونا على فعل ما يخالف مشيئة الله، لفي ضلال بين
واضح ظاهر لا يحتاج إلى دليل. قالوا ذلك. وإنه لمنطق عجيب، بل تخريف
معيب (وإن قد قالوه سخريه ومجارة لما يسمعون من المؤمنين) فإن الله
جلت قدرته، وتعالى حكمته، قسم حقا الحظوظ والأرزاق، وقدر لكل نصيبه
في الحياة، ولكنه جعل لذلك وسائل، وأطعم عباده بأسباب، وساق الرزق
للبعض على يد البعض. وإن من تلك الوسائل والأسباب دعوة الأثرياء
القادرين إلى العطف على الفقراء والمحتاجين، ومد يد المعونة إليهم ابتغاء ما
عند الله من مثوبة، واجتلابا لمودتهم، وانتقاء لأحقادهم وثورتهم، التي
أصبحت أخبارها ملء السمع والبصر الآن.

على أننا لو جارينا أولئك السفهاء السفهاء ومن لف لفهم وقال قولتهم، وافترضنا جدلاً أن القدر حقق ما يهرفون به، ومكن لكل فرد في الحياة الدنيا، وأناله من حطامها ما يجعله ثرياً أكثر من المال، أكان يمكن أن تنتظم شئون العالم، وتعمر أركانه، ويتحقق له ما ظلّ ينعم به قديماً وحديثاً؟ أم أن الأمر سيكون عكس ذلك، ويكون الخراب أسرع الأشياء إليه، لإخلاق الكل إلى الدعة، وقعودهم عن العمل. وكما قال بعض القائلين في هذا: "أنا أمير وأنت أمير ومن الذي سيسوق الحمير". سبحانك مولانا ما أعظم حكمتك، وما أسمى تدبيرك!!

ولقد ورث هذه السقطة الشنيعة عن مشركي مكة بعض بخلاء المسلمين الذين يحاولون تبرير بخلهم وشحهم بترهات وأباطيل لا تخرج عن نطاق ما هرف به أسلافهم وإن اختلفت العبارة. مثل قولهم (لو كان هذا أهلاً للإعطاء لأعطاه الله) ومثل قولهم (ربنا أفقره حنغنيه نحن) ومثل قولهم (سيبيه إنا حنغير المقادير) وغير ذلك كثير مما يوحى به الشح والبخل، وكم في منطق الشح من عجب.

﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا الصَّيْحَةَ وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾

﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناها: ينتظرون. وفي المصباح: نظرت الشيء وانتظرت به بمعنى: وكأنهم بإصرارهم على الجحود والكفران، وإعراضهم عن دعوة الحق، مع تحقق مجيء الصيحة وما بعدها كمن ينتظر مجيئها. ﴿يَخِصِّمُونَ﴾: بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد أصلها يختصمون سكت الياء وأدغمت في الصاد بعد قلبها صاداً، ثم كُسرت الخاء لالتقاء الساكنين. ومعناها: أنها تأتيهم وهم يتنازعون ويتماسكون في متاجرهم ومعاملاتهم لا يخطر ببالهم شيء من مخايلها. ﴿الصُّور﴾: وهو كما ورد في الأخبار قرن من النور على هيئة البوق

سعته كطباق السموات والأرض. ليس من روح خلقها الله تعالى إلا ولها في مكان يجمع الله تعالى فيه الأرواح كلها قبيل النفخة بعد مضي المدة المقدرة ألا لما بين النفختين. وتمام تخليق الأجساد. ﴿الْأَجْدَاثِ﴾: جمع جَدَثَ بفتح الجيم والـدال وهو القبر. ﴿يَسْلُونَ﴾: يسرعون في خروجهم من القبور وحشرهم إلى رب العالمين، ﴿يَا وَيْلَنَا﴾: الويل: الهلاك يتمناه المجرمون إذا ما واجهتهم أهوال القيامة، ويجأرون بدعوته ليريحهم مما ينتظرهم. ﴿مَرَقَدَنَا﴾ المرقد: أما مصدر ميمي معناه الرقاد أي النوم. وأما اسم مكان. أي من مكان رقادنا. ﴿مُحْضَرُونَ﴾: مجموعون للحساب والجزاء.

المعنى: ما من نبي بعثه الله إلا وأنذر قومه يوم التلاق، وتوعدهم بما سيلقاه المكذبون والمعارضون من أليم العذاب وشديد النكال. وفي سورة غافر ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ وما من قضية مما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام لاقت من الشد والجذب ما لاقته قضية البعث والنشور. إذ كان مجهود أعداء الرسل نحوها مضاعفا، وحربهم لها مختلف الأشكال والمظاهر.

وإن موقف زعماء مكة من الرسول ﷺ عندما نادى بها لأبرز مثال على ذلك. فلقد حزموا لمحاربتها أمرهم، وجهدوا جهدهم، وبذلوا أقصى ما في وسعهم، ولم يدعوا فرصة تمر يخالون من ورائها نصرا لفكرتهم، وتأبيدا لموقفهم، إلا انتهزوها، حتى وإن كانت من قبيل التهريج والمغالطة والتمويه والفسطحة. وفي كل ذلك كان الحق سبحانه يتعقبهم بما يدحض شبههم، ويكشف عن ترهاتهم وأباطيلهم. وقد أشرنا إلى ذلك وسردنا بعض الآيات



المنزلة بخصوصه عند الكلام على آية ﴿إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي الْمَوْتَى﴾ ومن ثمّ كانت إجابتهم لما أن قيل لهم ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أن قالوا ما حكاه الله عنهم. ﴿وَيَقُولُوا مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وهو قول يقصد منه التكذيب والإنكار والسخرية والاستهزاء وليس الاستفهام فيه على حقيقته، كما يشعر به قولهم: إن كنتم صادقين. أي إن كنتم صادقين في دعواكم، جادين في وعيدكم، فمتى تقوم الساعة ويبعث من في القبور، ويكون ما تتحدثون عنه من أخذ شديد، ونكال أليم، وعذاب مقيم، والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين لأنهم كانوا يتلون عليهم الآيات المتضمنة هذا وإنما سموه (وعدا) وهو في الواقع (وعيد) لأنهم كانوا يزعمون أنهم إذا قُدر ورُدوا إلى الله فسوف لا يعاملون إلا بالحسنى، وفي سورة فصلت ﴿وَمَا أَظُنُّ

السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رَّجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَإِذَا عِنْدَهُ الْحُسْنَىٰ﴾ وإذا كان تسأولهم غير حقيقي: واستفسارهم عن الساعة مبعثه الزرارية والاستخفاف كما بينا، لا جرم أجابهم الحق سبحانه إجابة تناسب حالتهم، وتتفق مع موقفهم المنطوي على الجحود والمكابرة فقال سبحانه:

﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾

أجابهم بما هو خليق بأمثالهم، وأبرزهم في موقف المنتظر للبلاء ينزل به، لأنه مقتضى ما هم فيه من جحود وعناد وتعام عن الحق، ومن ثمّ عدل عن الرد عليهم باستحالة العلم بها، إلى تصوير ما يكون وقت مجيئها من شدة وهول، مبينا أنها ستأتيهم بغتة في وقت لا يعلمون متى هو، ولا يدور بخلد مخلوق إنها تأتي فيه، وستفجأهم صيحتها الصاعقة الماحقة المدمرة وهم منهمكون في البيع والشراء وتصريف ما يهمهم من شئون الحياة الدنيوية. وهذه الصيحة هي نفخة الصعق التي تحدثت عنها آية الزُمَر ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ



فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴿١٠٠﴾ أما أثر هذه الصيحة بالنسبة إليهم
فذلك الذي تحدثت عنه الآية التالية:

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾

بين الحق سبحانه أن الصيحة إذا فاجأتهم قضت عليهم فوراً في مثل
رد الطرف، بحيث لا يجدون بعدها فسحة من الوقت تمكنهم من مباشرة أي
عمل مهما كان، فلا يستطيعون توصية يستدركون بها تقصيراً، أو يصلحون
بها فساداً، إذا ما كانوا بين أهليهم، ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾، إذا كان بعيداً عنهم
لأنهم سيؤخذون حيث هم. وإنما اختص القرآن هذين الأمرين بالنفي من بين
سائر الشئون التي يهتم لها الإنسان عادة لأنهما أول ما يتجه إليه التفكير،
ويحرص كل شخص عليه عند فجأة الموت كما هو محسوس مشاهد، فإذا
حيل بينه وبين هذا مع حرصه الشديد عليه، كانت الحيلولة بينه وبين غيره
من باب أولى.

وفي موضوع الآية من كتاب الله عز وجل: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾
يَوْمَ تَرَوْهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴿١٠١﴾ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ
بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ومن حديث رسول الله ﷺ: "ولتقوم الساعة وقد
نشر الرجلان ثوباً بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقوم الساعة وقد
إنصرف الرجل بلبن لقحته (أي ناقته) فلا يطعمه، ولتقوم الساعة وهو يليط
حوضه، أي يطينه ويصلحه، فلا يسقى فيه، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته
إلى فيه فلا يطعمهما".

وفي البغوي عن أبي بن كعب ؓ قال: "ست آيات قبل يوم القيامة
بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت
النجوم فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت

واضطربت وفزعت الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن واختلطت الدواب والطيور والوحش وماج بعضهم في بعض، فذلك قوله **﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾** اختلطت **﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾** أهملت **﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾** قال ابن عباس رضي الله عنهما: أوقدت فصارت ناراً تضرم. قال أبي: قالت الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج، فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وانشقت السماء انشقاقه واحدة إلى السماء السابعة العليا فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأمانتهم. أ.هـ.

وفى حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (ثم يأمر الله إسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فيقول ملك الموت: قد مات أهل السموات والأرض إلا من شاء الله. فيقول الله تعالى وهو أعلم: فمن بقي، فيقول: أي رب بقيت أنت الحي القيوم الذي لا يموت وبقيت حملة العرش وبقي جبريل وميكائيل وإسرافيل وبقيت أنا. فيقول الله تعالى: فليمت جبريل وميكائيل فيموتان ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار جل وعلا فيقول قد مات جبريل وميكائيل، فيقول الله تعالى: فليمت حملة العرش فيموتون. ويأمر الله العرش أن يقبض الصور من إسرافيل ثم يقول ليمت إسرافيل فيموت. ثم يأتي ملك الموت إلى الجبار فيقول رب قد مات حملة عرشك ومات إسرافيل وبقيت أنا.

ويقول الله تعالى: أنت خلق من خلقي خلقتك لما أردت فمت فيموت ملك الموت. فإذا لم يبق سوى الله الواحد القهار طوي السماء كطي السجل للكتاب، ثم قال: أنا الجبار، **﴿لَمَّا الْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾**؟ فلا يجيبه أحد. ثم **﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾** **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾** قالوا يا ولئنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما

وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠٦﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿١٠٧﴾ فَالْيَوْمَ لَا تَظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

وكما تحدث القرآن الكريم عن النفخة الأولى مبينا بعض ما يكون عندها. تحدث أيضا عن النفخة الثانية نفخة البعث والنشور مبينا أيضا بعض ما سيكون في أعقابها فقال سبحانه:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾:

وإنما يكون ذلك ويرسل إسرافيل عليه السلام نفخته الباعثة بعد تمام أمرين:

(أولهما): مضي المدة المقدرة ألا لما بين النفختين، التي تكون فيها الأرض خرابا يبابا لا أثر فيها لحياة ولا قيام لكائن. وفي تحديد هذه المدة يروى الشيخان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: (ما بين النفختين أربعون) قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوما؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون شهرا؟ قال: أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت. ومعنى أبيت: قيل لم يؤذن لي في بيانها وقيل: لن أسأل رسول الله ﷺ عنها، فليست أدري ما هي. وصحح بعضهم أنها أربعون سنة. وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وفي تفسير القرطبي: روى المبارك بن فضالة عن الحسن مرفوعا: "بين النفختين أربعون سنة. الأولى يميت الله بها كل حيّ والأخرى يحيي الله بها كل ميت".

(ثانيهما): إعادة الأجساد خلقا جديدا كما كانت. قد رد إلى كل جسد منها أجزاءه التي قطعت منه في حالة الحياة أو التي أحرقتها النار، أو أكلها السمك أو التهمت السباع. إذ تتبث كما ينبت البقل، بعد نزول المطر الخاص بذلك على الأرض كما تفيده كماله حديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق: "ثم ينزل من السماء ماء فينبثون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء لا يبلو إلا عظم واحد وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة". وعند الأمام أحمد من رواية أبي سعيد مرفوعا: "يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا

عجب ذنبه" قيل: وما هو يا رسول؟ قال: (مثل حبة خردل منه تتبتون) وعجب الذنب بفتح العين وإسكان الجيم بعدهما باء أو ميم: هو العظم الحديد الذي يكون في أسفل الصلب، وأصل الذنب من ذوات الأربع. ومن ثمّ فهو لذوات الروح بمثابة البذرة للنبات، وقد تقدم بعض هذا البيان.

وعندما يتم هذان الأمران يجمع الله تعالى الأرواح ويلقيها في الصور ويصدر الأمر إلى إسرافيل عليه السلام بعد إحيائه بأن ينفخ نفخته. فينفخ ويرسل دعوته: "أيّها الأجساد البالية والعظام النخرة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة هلموا إلى الحساب" وفي رواية: إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. وعندئذ تخرج الأرواح من الصور كالجراد المنتشر فلا تخطئ روح جسدها لما بينهما من وثيق الاتصال، وتتشق الأرض عنهم فإذا هم قيام ينظرون، وأول من تتشق عنه الأرض نبينا عليه الصلاة والسلام.

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأنا أول من ينشق عنه القبر وأول شافع، وأول مشفع". وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "أنا أول من تتشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر، ثم آتي أهل البقيع فيحشرون معي، ثم أنتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين". وفي حديث خرجه الطبراني والحاكم: "يحشر الأنبياء على الدواب وأبعث على البراق، ويبعث بلال على ناقه من نوق الجنة ينادى بالأذان محضاً وبالشهادة حقاً، حتى إذا قال: أشهد أن محمد رسول الله شهد له المؤمنون من الأولين والآخرين". وفي رواية: "فإذا سمعت الأنبياء وأممها أشهد أن محمد رسول الله قالوا: ونحن نشهد على ذلك".

وإذ كانت هذه النفخة مفتاح اليوم الآخر الذي تتكشف فيه الحقائق، وتجزى كل نفس بما كسبت. لا جرم كان موقف المجرمين المخالفين عن أمر رب العالمين ما حكاه الله تعالى عنهم.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَبْعَأٌ مِّنْ قَدَرًا﴾:

واجهتهم أهوال الموقف وشدائده التي تجعل الولدان شيبا، وطالعتهم جهنم ترمي بشررها، وتصفق أمواج لهبها، ويرعد الموقف بتغيظها وزفيرها، ولاحقتهم صور جرائمهم التي أهلتهم بحق لها، ومن ثم تلاشت مداركهم، وتملكهم الفرع، فانطلقوا يتمنون ما لا سبيل إليه، ويؤمنون فيما لا مطمع فيه، ويهتفون بطلب الموت العاجل السريع ليخفف عنهم ما بهم، ويحول بينهم وبين ما ينتظروهم، وهيهات هيهات فما إلى هذا من سبيل. هذا هو موقف الكافرين. أما المؤمنون فإنهم في أمن وأمان قد طمأنتهم ملائكة الله، كما قال عز من قائل: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَقَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ولقد تولت الملائكة الرد على هتاف أولئكم، الحافل بالألم والحسرة والتوجع، بما ذكره الله.

﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾:

وقيل إن الذي قال هذا هم المؤمنون، وقيل إن هذا القول منهم، ترجموا به عن إحساسهم عندما شاهدوا بأعينهم ما كانت تنذرهم به الرسل عليهم الصلاة والسلام فيردون عليهم قولهم ويأبون تصديقهم. والمعنى: هذا الذي وعده الرحمن وصدق المرسلون، أي صدق فيه المرسلون. وعلى أن قائل ذلك الملائكة أو المؤمنون فيكون العدول به عن سنن السؤال بحيث لم يقل: بعثكم الله مثلا إنما قصد به تذكيرهم بكفرهم، وتقريعهم عليه، وتنبيههم إلى شناعة إجرامهم في حق أنفسهم، وعظيم جنايتهم عليها، إذ عرضوا بتكذيبهم الرسل، ومعاندتهم لهم إلى ذلك الهول الكبير والعذاب الشديد الأليم، ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن يسر البعث والإعادة وسهولته بالنسبة إلى قدرة الله سبحانه بقوله:

﴿إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صِخْرَةٌ وَاحِدَةٌ فإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

وإن في الآية نافية بمعنى ما. والمعنى ما كانت النفخة التي ذكرت أنفا وبينت آثارها، إلا صيحة واحدة فقط لا ثاني لها صدرت عن أمر الله وبإذنه، جمعتهم بعد التفرق، وأحييتهم بعد الموت، ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ لم يتخلف منهم أحد، وما كان لأحد أن يتخلف عن دعوة الله الذي له ما في السموات وما في الأرض خلقا وملكا وتوجيها وتسخييرا، وفي سورة القمر: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ ومعنى مهطعين مسرعين لا يلوون على شيء إلا الاستجابة للداعي. أما قوله سبحانه:

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فإنه بيان عما يقال لهم بعد البعث والنشور حين يرون العذاب وتأخذهم أهوال الموقف، وفيه أيضا الإشعار بالغلبة المترتبة على البعث والنشور، وهي مكافأة المحسن بإحسانه ومجازاة المسيء على إساءته، وقد قيل إن الخطاب موجه إلى المشركين الفجار فقط إظهارا للعدل الإلهي، وقيل إن الخطاب عام للأبرار والفجار. وعليه يكون المعنى: لا تظلم نفس برة أو فاجرة شيئا، إن عملت خيرا لقيت جزاءه واستحققت أجره، وإن كانت فاجرة: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ولا تسأل عن وزر لم تعمله مهما تعاضم فجورها إذ لا تزر وازرة وزر أخرى، ولا تعارض مطلقا بين ما هنا وبين قوله سبحانه ﴿وَلِيَحْمِلُوا ثِقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ إذ أن هذه الآية خاصة بمن تسببوا في ضلال غيرهم. فإنهم مع حملهم لأوزارهم الخاصة وأعمالهم المباشرة يحملون أيضا وزر تسببهم في الشر وتلبيسهم الحق بالباطل، وبدهي أن هذا من أعمالهم أيضا.

وبعد. فلئن كانت هذه الآيات قد وُجِّهَتْ أول ما نزلت إلى المعارضين لرسول الله ﷺ المكذبين بما جاء به زجرا لهم وتحذيرا من التماذي في

العدوان والكفر إلا أن لنا منها نصيبا لا ينبغي أن نهمله إذ القرآن هداية عامة كما بينا غير مرة، ونصيبنا منها الذي ينبغي أن نطالب أنفسنا بإدراكه كاملا غير منقوص، أن الله تعالى وقد أعلن في كثير من آي كتابه أن الساعة تأتي بغتة، والمنايا تهاجم فجأة من غير تقدم إخطار ولا سبق إنذار، فإن علينا أن نكون دائما على أهبة كاملة للقائه نصلح من سيرتنا ما اعوج، وننقى من سرائرنا ما خبث، وأن لا ندع سيف التسوية يفتك بنا حتى نؤخذ على غرة، ويندم أحدنا ولأت ساعة مندم، حينما يحاول استدراك ما فات أو إصلاح ما أفسد فلا يجد إلى ما يبغى سبيلا. ويقول يا ليتني قدمت لحياتي من غير أن يجديه ذلك فتىلا.

﴿إِذَا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونُونَ ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ

﴿شُغْلٍ﴾ الشغل: الذي يصد المرء ويشغله عما سواه من شئونه لكونه أهم عنده من الكل. إما لإيجابه كمال المسرة والبهجة، أو كمال المساءة والغم. وهذا أصل معنى الكلمة. أما حملها هنا فهو المعنى الأول، أي إيجاب المسرة، بدليل ما بعدها ﴿فَاكِهُونَ﴾ جمع فاكه. والفاكه. قيل هو المتنعم المتلذذ وقيل: الطيب النفس الضحوك. وقيل هو مأخوذ من الفكاهة وهى التحدث بما يسر. وأيا ما كان المعنى فهو بكل معانيه متحقق لأهل الجنة ﴿ظِلَالٍ﴾ جمع ظل: ويفسره ابن الأثير بأنه الفيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس. ويفسره غيره: بأنه الموضع الذي لا تقع عليه الشمس. وهذا ألصق بما معنا لأن الجنة لا شمس فيها كما هو صريح الكتاب الكريم ﴿الْأَرَائِكِ﴾ جمع أريكة وهى كما في الصحاح: سرير منجد مزين في قبة، وهى الحجلة، والحجلة: هي المعروفة عندنا بالناموسية ﴿يَدْعُونَ﴾ يتمنون ويشتهون.

المعنى: جرت عادة الحق سبحانه في كثير من سور القرآن أن يقترن الترهيب بالترغيب، ويسوق الوعد في أعقاب الوعيد. فإذا ذكر عاقبة الأخيار أتبع ذلك بذكر عاقبة الأشرار، وإذا تحدث عما أعدّ للمكذبين المعاندين عقب عليه بالحديث عما يُلقاه المؤمنون المستجيبون. وذلك ليكون لكل نفس من الحديث ما يناسب حالها، ويتفق واستعدادها. ورب شخص حركت مشاعره عوامل الترهيب، بينما لم تتل من نفسه أساليب الترغيب. والله الحكمة البالغة. ومن ثم كانت هذه الآيات الكريمة وعدا إثر وعيد، وترغيبا في أعقاب ترهيب. صور الحق تعالى بها حال المستجيبين لله وللرسول الذين ثقلت موازينهم، وبين ما سيكونون عليه من نعمة، وما سيغمرون به من رحمة وما سيلقونه من إيناس وتحية وتشريف وتكريم في جنات النعيم بقوله عز من قائل:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ﴾

أخبر الحق سبحانه أن أهل الجنة قد واجههم فيها ما استحوذ على اهتمامهم، واجتذب إليه كل مشاعره وصرف بالكلية أذهانهم عن الالتفات إلى ما عداه من الشئون. كما نبه سبحانه بكلمة ﴿فَاكِهُونَ﴾ إلى أن هذا الشاغل الصارف ليس مما يرهق ويسئ، إنما هو مما تشتهيه الأنفس، وتستريح إليه المشاعر، وتتشفو إليه الطبائع. هو ألوان من النعيم المقيم، والتشريف والتكريم، هو مسرات متتابعة وملذات متعاقبة. للأذواق منها حظها، وللأسماع نصيبها، كما أن للأعين قسطها، وللأرواح رضاها وطمأنينتها، وحسبنا أن الأذان لن تسمع فيها إلا طيبا، وأن الأعين لن ترى فيها إلا حسنا، وأن ما فيها من ألوان المتع الجسدية، واللذائذ الروحية التي يفيضها الله تعالى على خواص عباده. لا ينقطع مدده، ولا يغيض معينه. وقد سبق هذا الإخبار الإلهي عن أهل الجنة بأسلوب يفيد وقوعه وتحققه فعلا، بينما لمّا يتحقق منه

شئ بعد، نظرا إلى أن تحققه لما كان مقطوعا به وغير قابل للتخلف كان كأنه واقع بالفعل، وفي القرآن الكريم من هذا النوع كثير جدا.

وقد قال بعض المفسرين إن مضمون هذه الآية من جملة ما سيقال يومئذ للمجرمين زيادة لحسرتهم ومضاعفة لألمهم وندامتهم، إذ أن اطلاعهم على ما يتمتع به من كانوا في الدنيا يحتقرونهم ويضطهدونهم، ولا يرونهم أهلا لشيء، وكيف أصبحوا مهبط النعمة، ومظهر الكرامة، بينما أقلت منهم كل شئ وأصبحوا هدفا لكل بلاء وعذاب، كل هذا من شأنه أن يزيدهم مساءة على مساءة، وألما على ألم، وهذا إنما يصح ويقبل على تقدير أن ما سبق من قوله سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ الآية إنما هو خطاب للكفار، أما على أنه خطاب للمؤمن والكافر على السواء، فإنه يكون كلاماً مبتدأ قصد به الإخبار عما سيكون عليه الحال إذا صار كل الفريقين (الناجين والهلاكين) إلى ما أعد له.

هذا وللعلماء في تحديد كنه ما شغل المؤمنين في الجنة أقوال. ف قيل: هو افتضاض الأبقار، لأن المؤمن كلما اتصل بإحدى نسائه وجدها بكرا فيفتضها من غير دم ولا ألم استكمالا للذة والمسرة وهو رأى ابن عباس وابن مسعود وقتادة وجعفر الصادق. وقيل: ضرب الأوتار والسماع. وقيل: التزوار مع الإخوان والمحبين. وقيل ضيافة الله تعالى للمؤمنين يوم الجمعة في الفردوس الأعلى حيث يتجلى الحق سبحانه عليهم تجليا خاصا ينسيهم كل شئ. وثمة قول بالتعميم. وأن المراد ما هم متمتعون به من فنون الملاذ وألوان الاستمتاع التي لم ترها عين ولم تسمع بها أذن، والأولى من ذلك كله أن يفسر بما يتمتع الله تعالى به عباده في دار كرامته من غير تحديد ولا تقييد، وكل نعيم الجنة شاغل صارف. وإن من عباد الله المصطفين من تنحصر همته، وتتجه مشاعره كلها إلى استجلاء المتع الروحية في الجنة، ويجعلها هدفه الأول والأخير، مع إسقاط المتع الجسدية كلها من حسابه.

ويحضرني في هذا المقام قول السيدة رابعة المحبة المتفانية في الذات الأقدس:

ليس قصدي من الجنان نعيماً غير أني أريدها لأراكا

وأرى صنيع القرآن مشعرا بالتعظيم، نظرا إلى ما سيأتي مفصلا في الآيات بعده من ألوان النعيم التي بدأت بالجسدي وانتهت بالروحي، وإن كانت ليست كل النعيم المعد للأبرار. ففي قوله سبحانه:

﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونَ﴾

بيان لنوعين من أنواع النعيم غالبا ما يتلازمان، وإن كانا قد ينفصلان أحيانا. فأهل الجنة بمنجاة من حرارة الشمس لا يلفحهم هجيرها، ولا تلدغ أبدانهم أشعتها، إذ الجنة لا شمس فيها ولا قمر، إنما يشرق فيها نور عرش الرحمن،. وفي سورة الدهر: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرًا﴾ كذلك هم في منتهى الراحة والسعادة والرفاهية. قد كفوا ما أهمهم، واطمأنوا إلى مستقبل أمرهم. وملكوا أسباب هنائهم، يشعر بذلك كله كلمة «مُكْنِينَ» إذا المعروف أن جلسة الاتكاء إنما تكون من شخص اطمأن إلى ما حوله، واستراح إلى وضعه، وكفى ما أهمه. وأنى للمتعب القلق المحروم من بعض ما يتشوف إليه أن يتكى اتكاءة الهانئ الخلي!!

كما أن في تصريح القرآن بمشاركة أزواجهم لهم فيما يتمتعون به، ما يفيد أن نعيمهم وهناءهم قد بلغ الذروة، وأوفى على الغاية. واكتفى في إيضاح هذه الملاحظة الأخيرة بالإحالة على الإحساس العام، والأزواج المتحدث عنهن هنا لسن زوجات المؤمنين اللائي ارتبطن بهن في الدنيا برباط الزوجية فحسب، بل هن ومن سيزوجهن الله تعالى لعباده في الجنة من الحور العين، ومن اللائي مِتْن من نساء الدنيا صغيرات أو خاليات من الأزواج، كل

أولئك سيشارك في النعمة، ويساهمون في إتمام المتعة، وإذا كانت هذه الآية توحى بما سيكون لكل مؤمن من مجالس للأنس تضمه وأهله، وكان لهذه المجالس مقتضيات من المطعوم والمشروب وغير ذلك بها تكمل البهجة، وتتم المسرة، لا جرم اتبع الله ذلك بما يفيد أن متعة عباده في دار كرامته كاملة لا يشوبها نقص فقال سبحانه:

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾

لهم فيها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، لا يتقيد ظهورها بموعد، ولا يرتبط نضجها بظروف خاصة كما هو الحال في فاكهة الدنيا. إذ هي موجودة في كل وقت وعلى أي حال، قد ذُلَّتْ قُطُوفُهَا وَيُسَّرَ جَنَاهَا، بحيث يأكل منها أهل الجنة قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، لا يكابدون في الحصول عليها تعباً ولا يجدون نصباً، ولا يتكلفون إلا أن تشتهيها أنفسهم فإذا هي بين أيديهم، بل في متناول أفواههم إن أحبوا. كما أن لهم في الجنة كل ما يشتهون، وما يتمنون من مأكّل ومشرب وملبس ومركب ومنكح، وما في ذلك من أسباب البهجة وموجبات السرور، فمهما تمنى المؤمن وجد أمنيته ومهما اشتهى أصاب شهوته فضلاً من الله ونعمة. أما قوله سبحانه:

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾:

فإنه بشارة بمتعة الأرواح التي لا تذكر بجانبها ملاذ الأبدان وشهواتها مهما تنوعت أجناسها واختلفت أشكالها. هي التحية تأتيهم من الله تحمل إليهم رضاه عنهم واحتفائه بهم، وتملاً بالغبطة والطمأنينة قلوبهم، وتنتشي لمقدمها أرواحهم. تبلغ إليهم هذه التحية على ألسنة الملائكة بأمر الله كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، أو من الله تعالى مباشرة كما هو قول الأكثرين

المعزز بالمأثور عن سيد المرسلين. فقد أخرج ابن ماجه وجماعة عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "بيننا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة"، وذلك قول الله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ قال: "فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يتلفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم، ويبقى نوره وبركته عليهم في ديارهم". وما ذكر في الحديث من الإشراف والنظر نؤمن به كما ورد من غير تكليف ولا تشبيه ولا تمثيل، كما هو الشأن في كل ما ينسب إلى الله مما يوهم المماثلة للحوادث وتقدير الآية (ولهم سلام يقال قولا من رب رحيم) فسلام مبتدأ خبره لهم، وقولا مفعول مطلق لفعل محذوف، والجملة صفة لسلام: من رب رحيم. أي من جهة رب رحيم.

وبعد فإن الكتاب الكريم قد حفل في الكثير من سوره وآياته بالحديث عن الجنة دار الكرامة، مرغبا فيها داعيا إلى العمل لها مفصلا ما أعد لأهلها من ألوان النعيم ووسائل التكريم، التي لا تترك لمطلع عليها سبيلا إلى الموازنة والاختيار بينها وبين غيرها، بل إنه سيجد نفسه مندفعاً بكليته إليها، مملوء المشاعر بالرغبة فيها. يستوي في ذلك التقى والغوي، والمقبل والمدير، ومن ثم فإن من الواجب علينا جميعا أن نعمل على استغلال هذا الإحساس فينا لصالح آخرتنا، وأن يراجع كل نفسه، ويجلس إليه جلسة خاصة يناجي فيها وجدانه الصادق، وضميره المجرد، وليطرح على نفسه هذا السؤال: أهى رغبة حقا فى هذا النعيم المقيم والفوز العظيم، أم هى رغبة عنه منصرفه إلى ما سواه من الأمور التي من شأنها أن تُفَوِّتَهُ عليها وتحول بينها وبينه؟؟ لي طرح هذا السؤال، وإن كان الجواب معروفا سلفا، إذ أنه لا يعدو الرغبة فيها، والتشوف إليها، وعندئذ عليه أن يذكر نفسه بأن لهذه الأمنية طريقا واحدا لا ثاني له، هو طريق التعرف إلى الله، والتحبب إليه بما

يرضيه وإن كان فيه بعض المشقة، ووراءه بعض الحرمان من المشتبهات، وأنها سلكته وحرصت عليه فلها البشرى سلفاً. أما إن آثرت عليه غيره، واختارت طريق إرواء الشهوات، والاستجابة إلى الرغبات، من غير تفرقة بين حلها وحرامها، فإن خاتمة المطاف لن تكون إلا شيئاً واحداً هو دار المهانة، وموطن النقمة والعذاب الأليم. فلنتظر من الآن: هل تطيق ذلك أو تستطيع أن تتحمل منه جزءاً يسيراً؟! ليفعل كل منا ذلك، وليكرره المرة بعد المرة فإن الذكرى ستنتفعه يوماً ما، وإن كثرة مرور الماء على الصخر الأصم كفيلاً بأن تؤثر فيه، وقد أثرت فعلاً كما هو مشاهد.

﴿وَأَمَّا زُورُ الْيَوْمِ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿وَأَن أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَشَهِدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿وَأَمَّا زُورُ﴾ امتازوا: اعتزلوا المؤمنين، واخرجوا من جملتهم وانفصلوا عنهم ﴿أَعْهَدُ إِلَيْكُمْ﴾ العهد: الوصية والتقدم بأمر فيه خير ومنفعة ﴿تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ العبادة: الخضوع والانقياد، والمراد منها هنا: الاستجابة إلى الشيطان وطاعة أمره وتقبل وسواسه ﴿عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ مبين: ظاهر العداوة ﴿جِبِلًّا﴾ الجبل: بكسر الجيم والباء وتشديد اللام: الخلق، ﴿أَصَلَوْهَا﴾ ادخلوها وذوقوا عذابها، ﴿نَخْتِمُ﴾ الختم: الطبع، قيل هو ختم حقيقي على الأفواه ولا مانع من ذلك، وقيل: هو كناية عن منعهم من التكلم. وذلك فيما أفهمه يكون بسلب سلطانهم على ألسنتهم بحيث لا تكون خاضعة لتوجيه الإرادة الشخصية، حتى إذا ما أتمت ما أمرت به، عادت إلى الوضع الطبيعي.

المعنى: الآيات عود إلى الحديث عن المجرمين المخالفين عن أمر الله المنصرفين عن طاعته بعد الحديث عن المؤمنين الذين أحلهم الله تعالى دار الكرامة. فصل الله تعالى فيها بعض ما يواجه أولئكم يوم الحشر من شدة وهول وخزي وندامة وما تُقرع به أسماعهم من تأنيب وتوبيخ، وما ينتهي إليه أمرهم من أخذ وعقوبة وفي ذلك يقول عز من قائل:

﴿وَأَمَّا زُوا الْيَوْمِ الْمُجْرِمُونَ﴾

وإنه لخطاب أشد من نخس الحراب ينزل عليهم نزول الصواعق، ويوجه إليهم في وقت اشتد فيه الهول. وتقطعت أسباب النجاة، وفي اللحظة التي يحشر فيها المتقون إلى الرحمن وفداً، تعلوهم النعمة، وتحفهم الكرامة، حيث يؤمرون بأن يبتعدوا عن صفوف المؤمنين، وأن ينحازوا إلى حيث يلقون جزاء ما كانوا يعملون، ويساقون إلى جهنم خاسئين خاسرين. ثم قال جل جلاله:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾

والاستفهام في هذا الخطاب للتأنيب والتوبيخ وإقامة الحجة عليهم. توسط بين الأمر بالتميز والأمر بدخول النار الآتي بعده. لبيان العوامل التي دفعت بهم إلى هذا المصير المؤلم، والأسباب التي استحقوا لأجلها تلك العقوبة السيئة، والمعنى: عهدت إليكم يا بني آدم وأوصيتكم أن تتجنبوا الشيطان وتقاطعوه، وأن تعادوه ولا تعبدوه وأن تقفوا من كل ما يوسوس به ويحسّنه موقف الإباء والنفرة والرفض البات.

وقد اختلف في تحديد هذا العهد، وبيان ماهيته، ومتى كان؟ وعلى يد

من أخذ ف قيل: هو الميثاق المأخوذ عليهم قديماً حينما أخذ الله ﴿مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ

ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ. وقيل هو ما نصبه الله تعالى من الآيات في الأنفس والآفاق دلالة على ألوهيته، وإرشادا إلى وحدانيته،

وإبطالا لعبادة ما سواه سبحانه. وقيل: هو التكليف الواردة على السنة الرسل عليهم الصلاة والسلام تبليغا عن الله تعالى وإظهارا لمراده من عباده، وما يطلب منهم أن يكونوا عليه في عقائدهم وعباداتهم، والتي منها ما نزل تحذيراً من الشيطان ودعوة إلى عصيانه ومقاطعته. كقوله سبحانه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وقوله ﴿بَايَنَّا آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ۖ﴾ الآية، وأرى هذا الأخير أظهر الأقوال وأقربها.

وعبادة الشيطان التي انصب النهي عليها هي: الانقياد إليه وطاعته فيما يوسوس به من معصية الله تعالى، والاعتزاز بزخارف أقواله وبهتانه التي ترمى كلها إلى غاية واحدة هي قطع الصلة بين العبد وربّه، وتعريضه لغضب الله ونقمته وسخطه. وإنما عبر عنه في الآية بالعبادة لزيادة التنفير والتحذير من قربانها، ولوقوعها في مقابلة الأمر بعبادة الله تعالى. ثم بين سبحانه سبب هذا النهي والتحذير عن متابعة الشيطان بقوله:

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾:

قد أعلن عداوته وأبرزها ولم يحاول التستر عليها حينما اندفع يجاهر بما انطوت عليه جوانحه بين يدي الحق سبحانه بعد إذ ضمن لنفسه الإنظار والتأخير إلى يوم الوقت المعلوم ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا غُيُبَتُهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ كما قال أيضاً متوعدا ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ثم لآيئتهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ وإنما قص الله تعالى علينا ذلك لكي نكون على بينة من الأمر، ولناخذ لأنفسنا كامل الحذر. ومن رحمته سبحانه أنه لم يكتف بهذا، بل زاد التحذير إيضاحاً بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وقوله ﴿لَمَّا تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٠﴾ ولست أرى بعد ذلك عذرا لمعتذر. ولو لم يكن ثمة آيات

للتحذير إلا آية سورة إبراهيم لكفى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ

الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوْ

أَنْفُسَكُمْ﴾ إذ أنه لعنه الله، لم يكتف بما ارتكبه في حق بني آدم الذين والوه

واتبعوه من صرفهم عن الخير، وإفساد ما بينهم وبين ربهم، بل انقلب يتبرأ

منهم، ويقرعهم ويوبخهم وينعتهم بأنهم كانوا منهارين على أنفسهم، لم يتطلب

منه إضلالهم أكثر من أن يشير إليهم فقط ويدعوهم فإذا هم إلى أمره

مستجيبون. وليس بعاقل من يؤمن بهذا ثم بعد ذلك قوله ويواليه.

وقد ورد في السنة ما يميز لنا وحي الشيطان ووسواسه، ويرشدنا إلى

العلامة التي تكشف لنا عن دسائسه. وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام "إن

للشيطان لمة يا ابن آدم وإن للملك لمة، فأما لمة الشيطان فأيعاذ بالشر

وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فأيعاذ بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك

فليعلم أنه من الله، وليحمد الله تعالى، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من

الشيطان، ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾

واللمة هي الخطة، أي حديث النفس، ويسمى إلهاما إن كان مصدره الملك،

كما يسمى وسواسا إن كان مصدره الشيطان. والطابع الذي يميز كلا منهما

عن مقابله قد بُيِّنَ في الحديث. وميزان التمييز والتفرقة ما تدعو إليه

الخاطرة، فإن كان هدفها تحقيق الخير ومباشرة عمل يقره الدين، أو يدعو

إليه، كانت من الله، وإلا فهي من الشيطان، والاستجابة لها مهلكة وخسران.

هذا وللعلامة فخر الدين الرازي رحمه الله إيضاح للموضوع ضمنه

ما يشفي وفي أنقله عنه بحروفه. قال طيب الله ثراه: فإن قيل بماذا تُعَلَّم

طاعة الشيطان من طاعة الرحمن مع إننا لا نسمع من الشيطان جهرا ولا

نرى له أثرا؟ نقول: عبادة الشيطان في مخالفه أمر الله، أو الإتيان بما أمر

الله به لا لأنه أمر به، أي بل لأغراض أخرى، ففي بعض الأوقات يكون الشيطان يأمرك بشئ فانظره إن كان ذلك موافقا لأمر الله أو ليس موافقا، فإن لم يكن موافقا فذلك الشخص معه الشيطان يأمرك بما يأمرك به، فإن أطعته فقد عبدت الشيطان. وإن دعيتك نفسك إلى فعل فانظر: أهو مأذون فيه من جهة الشرع أو ليس كذلك؟ فإن لم يكن مأذونا فيه فنفسك هي الشيطان أو معها الشيطان يدعوك، فإن اتبعته فقد عبدته ثم إن الشيطان يأمر أولا بمخالفة الله ظاهرا فمن أطاعه فقد عبده، ومن لم يطعه فلا يرجع عنه، بل يقول له: اعبد الله كي لا تهان، أو ليرتفع عند الناس شأنك، وينتفع بك إخوانك، فإن أجاب إليه فقد عبده، أي لأنه قد أوقع العمل مشوبا بالرياء. ثم قال ﷺ بعد ذلك:

لكن عبادة الشيطان على تفاوت. وذلك لأن الأعمال منها ما يقع والعامل موافق فيه جَنَانُهُ ولسانُهُ وأركانُهُ، ومنها ما يقع والجَنَانُ واللسان مخالف للجوارح أو للأركان. فمن الناس من يرتكب جريمة كارها بقلبه لما يقترب من دينه مستغفراً لربه يعترف بسوء ما يقترب، فهو عبادة للشيطان بالأعضاء الظاهرة. ومنهم من يرتكبها وقلبه طيب ولسانه رطب. كما تجد من كثير من الناس يفرح أحدهم بكونه مترددا إلى أبواب الظلمة للسعاية ويعد من المحاسن كونه ساريا مع الملوك، ويفتخر به بلسانه، ونجدهم يفرحون بكونهم أمراء الملك بالظلم والملك ينقاد لهم. إذا عرفت هذا فالطاعة التي بالأعضاء الظاهرة والبواطن ظاهرة، مكفرة بالأسقام والآلام كما ورد في الأخبار، وما يكون بالقلوب فلا خلاص منه إلا بالتوبة والندم وإقبال القلب على الرب وما يكون باللسان فهو من قبيل ما يكون بالقلب الظاهر. انتهى كلامه رحمه الله.

ثم ذكر سبحانه أولئك الهالكين الذين ضل سعيهم بالشق الثاني من عهده الذي نطقت به كتبه، ونادت به رسله الأكرمون بقوله سبحانه:

﴿وَأَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾:

عهد إليهم بالحذر من الشيطان الذي انطوى على عدائهم، وأخذ على نفسه إهلاكهم وتدميرهم، ثم وجههم إلى عبادة خالقهم الذي شملتهم رحمته، وتعاقبت عليهم نعمه. وعبادة الله تعالى: هي توحيده وإفراده بالإلوهية والتبرؤ من الشرك والوثنية، وإعلان الخضوع والطاعة، والتزام هدى الكتاب، والحفاظ على الفرائض والواجبات ومجانبة السيئات. وقد بين سبحانه بقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ قيمة هذا النهج الذي اختاره لخلقهم، ورضيه لهم. والمعنى: أن هذا الذي أدعوكم إليه من نبذ الشيطان وعداوته، والتعلق بالرحمن والقيام بخدمته، هو الصراط المستقيم، والنهج الأقوام الذي يصل بكم سريعا إلى السعادة الحقة التي ليست وراءها سعادة، ويحقق لكم النجاة في الآخرة والتمتع برضوان الله في دار الكرامة والنعيم. ولما كان موقفهم من هذا التوجيه السديد موقفا خاطئا ضالا لم تعم فيه بصائرهم فحسب، بل عميت أيضا أبصارهم وصمت آذانهم، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿صُمُّوا بِكُمْ غَمٌّ لَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وما دامت الحاسة لم تغد صاحبها الفائدة المرجوة المنشودة فهي والعدم سواء. لا جرم سجل الله تعالى عليهم ذلك في اللحظات الحرجة الحاسمة إقامة للحجة، وقطعا للمعذرة بقوله عز من قائل:

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾

سجل عليهم سقطتهم الشنيعة، وبين (مذكرا لهم ومقرعا) أنهم لم يقف بهم الأمر عند حد الإعراض عن العهد الإلهي، ومجانبة ما توحى به الفطرة السليمة فحسب، بل ضموا إلى ذلك أنهم تعاموا عن صنيع الله تعالى بمن تقدمهم من الأمم التي نهجت نهجهم، ووقفت من دين الله ورسله موقفهم، وخضعت لوحي الشيطان والهوى مثلهم، وأعرضت عن دعوة الحق، وردتها على القائمين بها، وكيف دمرهم الله وأخذهم أخذ عزيز مقتدر. تعاموا! وما

كان أجدرهم بأن يتعظوا بأولئك لا سيما وقد سمعوا أنباءهم، وشاهدوا آثار محققهم والانتقام منهم. كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمُطِرَتْ مَطَرُ السَّوءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾

لا جرم اشتد الحق سبحانه في تقييعهم بقوله ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ والمعنى: كنتم تشاهدون آيات ما نزل بهم من عقوبة ماحقة أفلم تكونوا تعقلون أنها بسبب ضلالهم، أو: فلم تكونوا تعقلون شيئاً أصلاً حتى ترتدعوا عما كانوا عليه، وتقلعوا عما شاركتموهم فيه، قبل أن يحيق بكم ما حاق بهم، وإن ما يحمله هذا الأسلوب وما تتطوي عليه هذه العبارة من تحقير وتصغير، وتنديد واستنكار، وفي منتهى الظهور والوضوح. وإذ أقام الله تعالى عليهم الحجة، وحال بينهم وبين المعذرة، وبذلك ثبتت إدانتهم، وسيقوا إلى حيث يلقون جزاءهم الحق تكفيرا عن جنایاتهم، وعقابا لهم على جحودهم وكفرهم، قيل لهم زيادة في إيلاهم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

كنتم توعدون بها كلما تماديت في العناد فتتشككون، بل وتستهزئون بالقائلين والمنذرين. يقال لهم ذلك حينما يشاهدونها ويُسرف بهم عليها، ولم يبق إلا أن يلقوا فيها. أما هذا الوعيد فما أكثره في كتاب الله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿وَأَزْجَهُنَّ لِمَوْعِدِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. ثم يقال لهم حينما يلقى بهم فيها:

﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

أي ذوقوا عذابها وحميمها وحياتها وعقاربها جزاء كفركم وجحودكم وتعاميكم عن الحق، ورفضكم هدى الله، وإيثاركم الحظوظ العاجلة. وفي

تفسير العلامة أبي السعود: إن الأمر أمر تنكيل وإهانة، كقوله عز من قائل: ﴿ذُقْ.. إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أ.هـ. وإنا كنا لا نستطيع تحديد مدى وقع هذه الكلمات الصاعقة، على آذان أولئكم الهلكى، وأثرها في نفوسهم، لا سيما وباب الأمل قد أغلق كلية. إلا أننا نشعر شعورا عاما بأنه سيكون شديدا عميق الأثر. وهذا مما يحتم علينا أن نفكر طويلا فيه، ونعمل بجد وصدق على تقاديه، ونجنب أنفسنا التعرض له بالاستجابة لله وللرسول.

وإلى هنا ينتهي الحديث عما وجّه إليهم من خطاب أقيمت به الحجة وانقطعت المعذرة، وحدّد به المصير، ثم ينتهي القرآن بعد ذلك ناحية أخرى تتصل بهم، وتصور موقفا من مواقفهم، وقبيحة أخرى من قبائحهم، فيقول سبحانه:

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَشَهِدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وفى هذه الآية يشير القرآن إلى بعض مواقف الآخرة، يتحدث عما ينزع إليه بعض المجرمين يوم القيامة عند العرض والحساب، وعند ما تحقق الحاقة، ولا يكون ثمة شك فيما ينتظرهم من المقت والنكال وأليم العذاب. إذ يحاول هذا البعض التصل مما سجل عليه من جرائم، والتبرؤ مما سقط فيه من عظام مستعملا في ذلك الأسلوب الذي كان يلجأ إليه في الحياة الدنيا، وهو أسلوب الإنكار والجحود والمكابرة، وإلقاء تهمة التدليس والغش على من شهد عليه بالإجرام وسجل عليه الخروج على القانون. وإنهم ليلجأون إلى ذلك والأمل يداعبهم في أن تتجح خطتهم، وتكفل لهم النجاة مما ينتظرهم، وما دروا أن الأمر وراء ما يظنون، وأنهم سيؤتون من مآلئهم، ويأتئهم الهلاك من حيث يظنون النجاة والخلاص، ويتحقق بالنسبة إليهم قول الحق

سبحانه: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾.

وفى وموضوع الآية الكريمة من كتاب الله تعالى آية النور ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمُ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وآية فصلت ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ حتى إذا جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴿وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون﴾ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ﴿

ومن حديث رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: "كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: هل تدرون مم أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه. فيقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ يقول: بلى، فيقول: فإني لا أجيز اليوم على نفسي إلا شاهدا منى. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا، والكرام الكاتبين شهودا، قال فيختم على فيه ويقال لأركانها، انطقي فتتطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول، بعدا لكن وسحقا، فعنك كنت أناضل". لا أجيز: لا أسمح ولا أقبل.

ومنه أيضا فيما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه وهو بعض حديث طويل عن رسول الله ﷺ: "ثم يلقى، أي الحق سبحانه الثالث. أي ممن يحاسبهم. فيقول: أي فل ألم أكرمك وأسوّدك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى يارب. فيقول أظننت أنك ملاقي؟ فيقول: أي رب آمنك بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدق وتيتنى على نفسه بخير ما استطاع. فيقول الحق سبحانه: هنا إذا، ثم يقول: الآن نبعت شاهدا عليك فيتفكر في نفسه من ذا الذي يشهد على؟ فيختم على فيه ويقال لفخذه ولحمه وعظامه انطقي، فينطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط عليه" أي فل: معناها

يا فلان، أَسَوِّدُكَ أَجْعَلُكَ سَيِّدًا، تَرَأْسَ وَتَرْبَع، تَكُونُ رَئِيسًا مُتَصَدِّرًا فِي قَوْمِكَ يُسْهِمُ لَكَ فِي الْمَغَانِمِ بِالرَّبْعِ حَسْبَمَا هُوَ مُتَّبِعٌ فِي نِظَامِ أُمَّتِهِ وَعَشِيرَتِهِ.

وروى الترمذي من حديث معاوية بن حيدة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: وأشار بيده إلى الشام "من ههنا تحشرون ركبانا ومشاة وتَجْرُونَ على وجهكم - وهى أحوال الناس عند الحشر - إذ هم ما بين ماش وراكب ومسحوب على وجهه - يوم القيامة على أفواهكم وفي رواية: (فخذوه وكفه)، الفدام. مصفاة الكوز والإبريق. والمعنى أنهم منعوا من الكلام. ويضاف إلى هذه الأحاديث (توفية لموضوع الإشهاد على بني آدم يوم القيامة) ما رواه أبان حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمه بما عمل على ظهرها تقول: عمل كذا وكذا. والمستفاد من هذه النصوص وهو ما يجب أن نعتقده ونؤسس معاملتنا مع الله عليه إن كنا حقاً نؤمن باليوم الآخر ونرجو لقاء الله. هو ما يأتي:

(أولاً): عند العرض والحساب ومراجعة الصحائف يحاول البعض أن يتصل من أخطائه، ويتهرب من عاقبة شنائعه، ويسلك إلى ذلك سبيل الجحود والإنكار وفي القرآن حكاية عن المشركين أنهم يقولون إذ ذاك ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وإن هذا البعض ليذهب في جحوده وإنكاره إلى حد اتهام الحافظين بالتزوير فيما سجلا عليه واتهامه بما لم يقترف. ونجد هذا فيما أخرجه بن جرير وابن أبي حاتم من حديث أبي موسى الأشعري: يُدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض ربه عليه عمله فيجحد ويقول: أي رب، وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل، فيقول له الملك، أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا فيقول. لا وعزتك أي رب ما عملته. فإذا فعل ذلك ختم على فيه.. الحديث".

(ثانياً): ولكي تنقطع معذرتك، ويتجلى عدل الله تعالى. يستجيب الله له، ويستبعد له ما طلب استبعاده من الشهادات الخارجية والاكتفاء بأن يكون شهوده من ذاته. أي الاكتفاء في محاكمته باعترافه الشخصي بما ارتكب، وأنه لا يصدر الحكم إلا بناء على ذلك. طلب ذلك ظاناً أنه إذا ما أُجيب إليه انفتح له باب الأمل في النجاة واسعا. وهيهات هيهات!!

(ثالثاً): وعندئذ تسلب منه السيطرة على لسانه، ويصدر الأمر من الحضرة العلية إلى الجوارح والأعضاء والجلود أن تنطق بما شهدت من تصرفات أنكرها وقبائح جردها وكابر فيها فتستجيب للأمر، ولن يسعها إلا ذلك، وتشهد عليه بما عمل ناطقة به، واصفة له، محددة لمعامله، بحيث تزيل شهادتها كل معالم الجهالة فيما شهدت به. وهذه الشهادة قيل يشهد كل عضو بما برز من الأعمال عن طريقه هو فقط، وقيل يشهد بهذا وبما اجتزره غيره من الجوارح. والآية تحتمل الأمرين على السواء.

(رابعاً): ومن الأعضاء التي تشهد، اللسان: فإنه يسجل على صاحبه ما نطق به مما يغضب الله تعالى، سواء كان متصلاً بالله كألفاظ الجحود والكفران والإشراك بالله، أو متصلاً بالعباد كالطعن والغمز واللمز والكذب وإثارة الفتن وما إلى ذلك مما حرمه الدين وأول ما ينطق من الأعضاء الفخذ والكف.

(خامساً): وقد حاول البعض أن يصرف نطق الأعضاء وشهادتها عن ظاهره، ويحوله عن المعنى المتبادر منه، وقال: إن تكلم الأركان وشهادتها هو دلالتها على أفعالها وظهور آثار المعاصي عليها بأن يبذل الله تعالى هيئاتها بأخرى يفهم منها ويستدل بها على ما صدر منها ويكون في العبارة تجوز. ورد هذا بأنه لا يصار إلى المجاز مع إمكان الحقيقة، والحقيقة ممكنة وقدرة الله تعالى صالحة لا سيما وقد صرح بالنطق في آية فصّلت، بله الحديث، قلت: وأيضا لا محل لهذا التجوز كلية، ولا غرابة في إرادة الحقيقة لاسيما في زمننا هذا الذي توصل فيه الإنسان بإلهام الله تعالى إلى أن يجعل

الجماد يتكلم ويرتل ويغني بوسائل خاصة، فكيف يستبعد النطق الحقيقي بالنسبة إلى قدرة الله الذي لا يعجزه شيء. إنني لست أدري الفرق في هذه الناحية بين اللسان وغيره من الأعضاء، فكلها أجزاء من ابن آدم وإن امتاز اللسان في الدنيا بنظام خاص تأتي عن طريقة الكلام والنطق، وإنه ليسير جدا على من صنع هذا بالنسبة إلى اللسان في الدنيا أن يصنع مثله أو ما يشبهه بالنسبة إلى غيره من الأعضاء في الآخرة.

(سادسا): وبعد انتهاء الأعضاء من أداء شهاداتها على صاحبها تعود حالته طبيعية، وترجع إليه سيطرته على لسانه، وعندئذ ينفجر ثورة وغضبا وحردا على أعضائه التي ما وقف موقف الإنكار إلا دفاعا عنها، وصرفا لما ينتظرها، ويوجه إليها كلماته المترجمة عما يعتل في نفسه من ثورة وحق، قائلا: بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل، وعندئذ تتبري الأعضاء للرد عليه وإظهاره على أنها لا تملك أن تقول غير الحق وقد صدر إليها الأمر من الله الذي خلقها وأنطقها، ثم تؤنبه على جهله ما الله تعالى من سلطان وقدرة وعلم شامل مذكرة إياه بما كان يعمد إليه أحيانا من ستر عيوبه عن المخلوقين، بينما يظهر بها رب العالمين.

(سابعا): ولن يقف الأمر بالنسبة إلى إثبات جرائم ابن آدم يوم القيامة عند شهادة الملائكة، واعتراف الأعضاء. إذ ثمة شاهد آخر تتوج شهادته شهادة هؤلاء وتأييدها، وذلك ما ورد في حديث أبي هريرة من شهادة الأرض على كل عبد وأمة بما اجترح على ظهرها قائما أو قاعدا أو سائرا. ومن ثم لا يكون ثمة سبيل إلى الفرار من مسئولية أي عمل دق أو جل، حقر أم عظم.

وبعد. فإنه لحتم على كل منا، وهذا ما ينتظرنا، وأعمالنا كلها يوم القيامة محضرة ثابتة لا سبيل إلى الفرار من عاقبتها، أو التصل من شيء منها. حتم على كل منا أن يعد لهذا الأمر الجلل عدته، ويأخذ لنفسه الحيطة من الآن وأن لا يدع للغفلة عن الله سبيلا إلى السيطرة عليه، ليكون له من

ذلك ما يعنيه على مقاومة النزوات والنزعات ومغالبة الأهواء والشهوات والوقوف من كل شيء وفي كل شيء حيث أوقفه ربه، ورسم له نبيه. وإنه لأول ما ينبغي الاهتمام به والحرص عليه، ولا يلومن إلا نفسه من تهاون في ذلك وغره بالله الغرور، ولبئست العاقبة والمصير. ثم قال عز من قائل:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَاتِحِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ.

﴿طَمَسْنَا﴾ الطمس: إزالة الأثر بالمحو، المصباح: طمست الشيء طمسا من باب ضرب محوته. والمراد منه هنا: تعفية شق العين حتى تصير في مساواة الخد ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ الصراط: الطريق الحسي الذي يسلكه الإنسان لقضاء مآربه. والكلام إما على حذف حرف الجر أي فاستبقوا إلى الصراط، وإما على تضمين استبقوا معنى ابتدروا، ولا حذف عندئذ ﴿لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَاتِحِهِمْ﴾ المسخ: تبديل الخلقة الإنسانية بقلبها جمادا أو حجرا أو بهيمة. وحرف الجر بمعنى في. ومكانتهم معناه مكانهم أي لمسخنهم في مكانهم الذي هم فيه على أي حال كانوا من قيام أو قعود أو اضطجاع ﴿نُعَمِّرُهُ﴾ نطيل عمره ﴿نُنَكِّسُهُ﴾ نقلبه فيه ونخلقه على عكس ما خلقناه أولا، فنجعل القوة ضعفا، والعقل خرفا، والنضرة ذبولا وهكذا.

المعنى: هذه الآيات حديث عن المشركين والكفار الذين وقفوا من دعوة الرسول ﷺ موقفهم المعروف الذي سجلناه وفصلناه في غير هذا الموضع. تضمنت تسليية لرسول الله ﷺ وتخفيفا لوطأة ما يكابده من أعدائه وأعداء دينه، كما تضمنت تهديدا أولئك، وتذكيرهم بأن انتقام الله تعالى منهم أقرب ما يكون إليهم. فليحذروه!

بيان ذلك: أن الآيات التي قبلها تحدثت عن موقف الحق سبحانه يوم القيامة من أولئك الذين عادوه وعادوا نبيه، وبينت كيف أنفذ الله تعالى فيهم كلمته وأحل بهم نعمته. أما هذه الآيات فقد تناولت المقابل، وتحدثت عن موقفه سبحانه منهم في الدنيا مبينة أنهم في متناول قدرته القاهرة وسلطانة الغالب، وأنه سبحانه لو قد أراد أن يعجل انتقامه منهم، ويذيقهم بعض ما هم خليقون به من العذاب والنكال جزاء لهم على كفرهم وجحودهم، ومكابرتهم في الحق بعد تبينه، وتعلميهم عن الاعتاض بمن تقدمهم ممن حقت عليهم الكلمة، ونفذ فيهم الوعيد، لو قد أراد ذلك لنفذ مراده فوراً، ولما كان ثمة من يمنعهم منه، أو يجبرهم من بطشه، أو يدفع عنهم انتقامه، ولسقطوا صرعى آثامهم وإجرامهم في مثل رد الطرف. وقد تناول الحق سبحانه بالبيان بعض ما هم مهددون به متعرضون له من صور الانتقام الإلهي، وتحدث أولاً عن حاسة البصر التي يهتدون إلى مقاصدهم وبمعونتها يتوصلون إلى إتمام ما يواجهون به الرسول من عدوان فقال سبحانه:

﴿وَلَوْ شَاءَ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمُ﴾ الآية.

ومعنى الآية: ما كان لهؤلاء المجرمين أن يسبقونا، وما كانت قدرتنا بالتي تقف دون تأديبهم، والانتقام منهم، ولو شئنا أن نطمس على أعينهم هذه التي يستعينون بها على الإجرام لطمسنا، ولم نترك لها أثراً، وعندئذ تظلم الدنيا أمامهم، وتتبهم المسالك عليهم ويتخبطون في مسيرهم، ويتعذر عليهم إنجاز مقاصدهم، وتحقيق مآربهم، مهما حرصوا على ذلك، اللهم إلا مستثنين إلى هاد يرشدهم، أو قائد يأخذ بأيديهم، وشتان بين الحاليين وهذا هو معنى قوله سبحانه: ﴿فَاسْتَبِقُوا الصِّرَاطَ فَإِنِّي يُصِرُّوهُ﴾ إذ أنه تحديد وبيان لأثر الطمس. والاستفهام في الآية للإنكار والاستبعاد. ولما كان الأعمى قد يحد من قائده ما



يعوضه عن الكثير مما أصابه به فقد البصر، لا جرم أخذ التهديد وضعا آخر
نتيجة أشد وأقسى فقال عز من قائل:
﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ...﴾ الآية.

ويقال فيه ما قيل في سابقه، أي لو نشاء أن نمسخهم ونقلب صورهم
وحقائقهم إلى صور وحقائق أخرى لا صلة بينها وبين الأدمية، كمسخهم
حجارة لا تسمع ولا تبصر ولا تحس. أو قردة أو خنازير كما فعل ببعض
من تقدمهم من الأمم التي وقفت من الله ورسوله موقفهم. لو شئنا ذلك لنفذت
إرادتنا وتحققت مشيئتنا، ولألفى أولئك المجرمون أنفسهم حيثما حلوا وأينما
وجدوا، قد فارقتها بشريتها، وزايلتها خصائصها، وأصبحت معطلة الحركة
مشلولة التصرف، لا تستطيع ذهابا وإيابا، ولا تملك إبداء رأي أو إبرام أمر،
وبالتالي يحال بينها وبين ما تبذل من نشاط آثم مضاد للرسول ﷺ مناوئ
لدعوته، ويصبح وجودها والعدم سواء، وهذا هو معني قوله سبحانه: ﴿فَمَا
اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ وبدهي أن التهديد في هذه الآية لأبلغ منه في سابقتها.
إذ الأولى لم تتناول إلا التهديد بتعطيل حاسة البصر فقط، بينما تناولت هذه
جميع الحواس والملكات. ولما كانت روح التمرد وشيطان العناد عند تغلبهما
يوقفان حركة الفكر السليم، وربما أدى السقوط تحت تأثيرها إلى الاستهانة
بهذا التهديد وربما إلى استبعاد بروز مقتضاه إلى عالم الحس، لا سيما عند
من لم يصل إليه نبأ من أوقع الله بهم من ذلك من الأمم السابقة. لا جرم لفت
الله تعالى الأنظار إلى ما يقضي على ذلك الوهم، ويبدد هذا الخيال من
المشاهدات المحسة التي أذهب سلطان الإلف والعادة ما بها من غرابة، وبدد
ما لها من دلالة على قدرة الله التي لا يعجزها شيء فقال سبحانه:

﴿وَمَنْ نَعْمُهُ نُكْسُهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي. ها أنتم هؤلاء ترون المعمرين منكم تتبدل أحوالهم وتنعكس أوضاعهم، ويصيرون إلى حالة تناقض تمام التناقض حالتهم الأولى التي كانوا عليها في مستهل الحياة، وفتوة الشباب وعنفوان الرجولة. إذ القوة تتقلب ضعفاً، والنضرة تتحول ذبولاً، ورجاحة العقل وتوقد الذكاء تتبدلان خرفاً واختلاطاً وبلادة. كما قال تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّزِيدٌ إِلَىٰ أَرْذَلٍ الْعُمَرُ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أفلا تعقلون هذا التبدل والتحول الذي هو أثر من آثار قدرة الله، فتعرفون أن من قدر على ذلك لن يعجزه أن ينتقم منكم بما لا يخطر لكم على بال.

إنه لو شاء لفعل، وليس بينكم وبين البلاء ينزل والانتقام يحل، إلا أن تتوجه مشيئته، فإذا بالأمر واقع فوراً بدون تأخير. ولكن رحمته سبقت غضبه، وحلمه سبق مؤاخذته، وحكمته السامية اقتضت أن يملئ ويمهل، ويحلم ولا يعجل، لتقطع حبال المعاذير، ويسقط في أيدي أهل الغرور، وتقوم الحجة له سبحانه يوم البعث والنشور، فاذكروا ذلك، واذكروا بجانبه أن للحلم حداً، وللإمهال أمداً ينتهي إليه، ومن ثم بعد ذاك تكون الطامة الكبرى والأخذ الشديد. ومالك من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير.

وبعد. فإن الله تعالى وإن كان قد أرسل هذا النذير وساق ذلك التهديد إلى أقوام كفروا بأنعم الله، وحاولوا أن يؤدوا دعوة الحق وهي في أطوار حياتها الأولى، إلا أنه ينبغي لنا أن نذكر دائماً أن دعوة القرآن لم تكن خاصة بهم، ولا مداها منتهيا بدمارهم وفنائهم وانقضاء زمنهم، إذ هي دعوة عامة شاملة باقية ما بقيت السموات والأرض كما قلنا غير مرة. ومن ثم فإننا نقول لمن نَهَجَ نَهَجَ أولئكم، من عصاة هذه الأمة الذين وقفوا موقف العداء من ربهم ودينهم، وانتهكوا حدود الله ومحارمه في السر والعلانية. نقول لهم: على رسلكم، وأرفقوا يا هؤلاء بأنفسكم، واذكروا أن سيف القصاص الإلهي

مصلت فوق رعوسكم، وأن لحلم الله تعالى حداً، ولإمهاله غاية، فاحذروا أن تحق عليكم الكلمة، وتدرركم العقوبة، ويعجل الله لكم بعض ما أنتم به جديرون وله مستحقون.

لتحذر تلك الأعين التي تنتهك محارم الله ليلاً ونهاراً بطش الله بها في ساعة لا تعلمها، ولتخش تلك الجوارح والأعضاء التي انصرفت إلى معصية الله، ومعصية الله فحسب، أن تتركها ساعة الانتقام فتصبح ولا حس فيها ولا حركة (كما يحدث ذلك كثيراً الآن) وربما تكون حياة مُرّة بعد ذلك، يكون الموت خيراً منها ألف مرة. لتحذر ذلك، ولتتدارك الأمر قبل أن تقلت الفرصة وتحق الغصة ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ خَالَفُوا عَمْرَهُمْ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۖ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِحَقِّ الْقَوْلِ وَعَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

﴿الشِّعْرُ﴾ المصباح: الشعر العربي: هو النظم الموزون. وحَدُّهُ: ما تَرَكَّبَ تَرَكُّباً متعضداً، وكان مقفى موزوناً به ذلك. فما خلا من هذه القيود أو من بعضها فلا يسمى شعراً، ولا يسمى قائله شاعراً. ولهذا لا يعتبر ما ورد في الكتاب والسنة موزوناً شعراً، لعدم القصد أو التقفية، وكذلك ما جرى على السنة بعض الناس من غير قصد، لأنه مأخوذ من شعرت إذا فطنت وعلمت. وسمى شاعراً لفطنته وعلمه به، فإذا لم يقصده فكأنه لم يشعر به. أ.هـ. ﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾ ما ينبغي له: لا يليق ولا يصلح له ﷺ الشعر، ولا يتأتى له لو طلبه. المصباح: وما ينبغي أن يكون كذا: أي ما يستقيم أو ما يحسن.

المعنى: في هاتين الآيتين دفاع من الحق سبحانه عن نبيه محمد ﷺ وعن كتابه الكريم المنزل عليه. وقد تضمن هذا الدفاع رد فرية حاول أعداء الرسول وأعداء دعوته إلصاقها به، كما تضمن تقرير عقيدة دينية متصلة

بشخصية الرسول ﷺ من ناحية ما فطره الله تعالى عليه من استعداد خاص اقتضته الظروف التي أحاطت به أثناء قيامه بدعوته.

بيان ذلك: أن القرآن وهو معجزة الرسول الكبرى، الخالدة الباقية ما بقيت السموات والأرض، والذي عليه قامت دعائم الرسالة وأسست صروح الدعوة، وواجه به النبي الكريم أعدائه، وناضل معارضيه، قد وضع المشركين في أخرج موضع، حينما طالعهم منه على لسان صاحب الدعوة ما خلب ألبابهم، وبلبل مشاعرهم، وقطع حجتهم، وأسكت ألسنتهم، حتى أصبحوا حيارى لا يدرون ما يفعلون. لاسيما وهم يسمعون بعض زعمائهم، وأحد الموغلين في عداوة محمد ﷺ يهتف بينهم يصف القرآن قائلًا: "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلو". وبجانب ذلك يتحداهم صاحب الدعوة ﷺ، طالبا منهم أن يأتوا بمثل ما جاءهم به، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة فقط، وهم أعلم بعجزهم وأخبر بقصور مجهودهم عن بلوغ ذلك.

كل ذلك مجتمعا، جعلهم كالغريق يتشبث بالقشة، ويظن الأمل فيما لا أمل فيه، ودفع بهم إلى التخطي فيما يدفعون به هذا التيار الجارف الذي أوشك أن يقضي عليهم، ويقتلع دولتهم الباغية الظالمة من جذورها، وفي خضم تلك المعركة، وتحت تأثير الرغبة الجامحة في الانتصار بأي ثمن، انطلقوا يحيطون الرسول وكتابه بسياج من الأكاذيب والترهات والشكوك والافتراءات من غير ميزان ولا معيار، ولا تفكير في كفاية ما يلغون به لتحقيق ما يهدفون إليه، إذ كان كل ما يرمون إليه صرف الناس عنه، وتفتيرهم من الاستماع إليه، ولو مؤقتا، ولكل وقت تدبيره. ومن ثم كان ما يهرفون به أنصع برهان على تخطيهم وإفلاسهم في معركة الحجة والمنطق التي قامت بينهم وبين رسول الله ﷺ.

قالوا: ساحر وما جاء به سحر، وقالوا كاهن وما جاء به كهانة، كما قالوا شاعر وما جاء به شعر، وكذلك قالوا مجنون وما جاء به تخططات وتخيلات، كما قالوا: أفاك يكذب على الله، ويحكي أساطير الأولين على أنها من عند الله ولعلهم كانوا يطلقون الفرية ثم يرتقبون مفعولها، حتى إذا ما وجدوها لم تصادف قبولا، أو كان أثرها فاترا بحثوا عن أخرى، وذلك شأن المبطلين. وإن في تاريخ الدعوة ما يثبت بجلاء أنهم كانوا غير مقتنعين بصحة ما يفترونه على محمد ﷺ ولئن كان الحق سبحانه لم يترك فرية من تلك الفري إلا ودحضها، إلا أنه وقف في دحضها بالنسبة إلى معظمها موقف النافي المكذب فقط، ولم يعلق عليها بأكثر من ذلك، نظرا لتفاهتها، ولأن الواقع نفسه يكذبها، وسيرة الرسول التي يعرفونها جميعا تدحضها. ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾. وقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾. وفي قوله في الموضعين صاحبكم رجوع بهم وبأذهانهم إلى الوراء، وتذكير لهم بما عرفوه وكابدوه من خلق النبي، ونفاذ بصيرته، وسداد رأيه. ومن ذلك أيضا ما معنا في نفى اتهامهم إياه، ﷺ، بالشعر، إذ يقول سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾.

نفت الآية الكريمة عن الرسول ﷺ أمرين: أولهما تعليمه الشعر. ثانيهما: إمكان حدوث الشعر منه واستجابة طبعه له. والأول ينطوي على إثبات أمرين، أولهما: أن الرسول ﷺ مستند في كل ما يعلم إلى الله سبحانه، وأن كل ما جاء به إنما هو من طريق التلقي عن الله تعالى، وهو صريح الآية ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾. ثانيهما: انتفاء وصف الشاعرية عن رسول الله، وانتفاء وصف الشاعرية عن رسول الله، وانتفاء وصف الشعر عن كتاب الله، وهو ما حاول أعداء الدعوة إلصاقه بهما، متغافلين عما تقضي

به البداة من التجافي الواضح بين القرآن والشعر بالمعني الذي يفهمه العربي.

شتان بين ما علمه الله تعالى لنبيه وأنزله عليه من الكلام الجليل المشحون بفنون الحكم والأحكام، المبين للحلال والحرام، المنظم لشئون متبعيه الدينية والدينية بما يكفل لهم الحياة الهانئة المطمئنة في الدنيا، والسعادة الكاملة المشمولة برضاء الله، المستوعبة لأطراف النعيم وأشكاله كلها في العقبى عند القدوم على الله. شتان بين كلام هذا طابعه، وبين كلام أطلق عليه أهله عن جدارة واستحقاق هذه العبارة: "أعذبه أكذبه" وهى عبارة تنطبق تمام الانطباق عليه، لا سيما في الوقت الذي حاول المشركون فيه أن يلصقوا وصف الشعر برسول الله . فهو كلام مقفى مسجوع، مزخرف مصنوع، يعتمد غالبا على الكذب، ويرتكز على الوهم والخيال. ولا غاية لقائله إلا أن يدرك به منزلة، أو يصيب عن طريقة الشهرة، أو يجمع مالا. إن الفارق بين الكلامين من الوضوح بمكان، وليس الأمر بحاجة إلى إجهاد ذهن. ولكنه الهوى والعناد قاتلها الله.

لذلك، ولأن طبيعة الشاعر طبيعة نزاعة إلى المبالغة والمجازفة و الإغراق في الوصف، والذهاب في الخيال كل مذهب، وكلها أمور لا تتفق بحال مع ما يجب أن تكون عليه الشخصية التي ستحمل عبء الدعوة، وتقود الناس إلى النور والصرط المستقيم. لم يكتف الحق سبحانه بنفي تعليم الرسول الشعر، بل ضم إليه ما هو أبرز في إعلان براءته ﷺ من قول الشعر بالتنبيه على أن طبيعته عليه الصلاة والسلام غير مستعدة لقول الشعر إطلاقا، وأنه لو فرض المستحيل واتجه إلى قوله، لما كان ذلك في مكنته، وإنما جعله الله كذلك اعتناء بشأنه ورفعاً لقدره ودفعاً للشبهات أن تجد سبيلها إليه ﷺ، ونظير ذلك جعله ﷺ أميا لا يهتدي للخط لتكون الحجة أثبت والشبهة أدهى.

ولا يناقض هذا الذي قررناه ما ثبت من أنه ﷺ قال يوم حنين حينما انهزم المسلمون، ولم يبق معه إلا القليل وهو على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحرث أخذ بزمامها:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وما ثبت من أنه ﷺ حينما أصاب أصبعه الشريفة حجر في بعض غزواته فدميت:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

ذلك لأن الشبهة لا تتأتى إلا إذا كانت الرواية بإسكان الباءين في البيت الأول وكسر التاءين في البيت الثاني مع الإشباع الخفيف، ولا قطع بهذا، بل ثمة رواية تقول إنه ﷺ نطق بالباء الأولى مضمومة وبالثانية مكسورة كما هو الإعراب، كما نطق بالتاءين في البيت الثاني ساكنتين. ومن ثم فلا إشكال بتأنا، ويعزز هذا ما ثبت من أنه ﷺ أنشد لغيره من الشعراء الحكماء بعض أبيات خرج بها عن النظم الشعري، ومن ذلك أنه أنشد بيت طرفة ابن العبد هكذا:

ستبدى لك الأيام ما كنت ويأتيك من لم تزود بالأخبار

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ليس هكذا يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «إني والله ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي» وأخرج ابن سعيد وابن أبي حاتم عن الحسن أنه ﷺ كان يتمثل بهذا البيت (كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهيا) فقال أبو بكر يا رسول الله إنما قال الشاعر:

هريرة ودع إن تجهزت غادياً كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً

ثم قال أبو بكر أو عمر: أشهد أنك رسول الله. يقول الله عز وجل:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي﴾

بل لو صرفنا النظر عما ذكر، وقلنا بموافقتهما الكليّة للوزن الشعري، فإن ذلك لن يغير من الموقف شيئاً، لما قدمنا في بيان معنى الشعر لغة. إذ

قلنا إن من شرط اعتباره شعرا أن يكون مقصودا إليه، وما هنا انعدم فيه القصد كلية، وموافقته لأوزان الشعر لا يعدو أن يكون من قبيل المصادفة. وحال الرسول ﷺ فيما يتمثل به من شعر غيره، ومنه ما ذكرنا، أقوى برهان على ذلك، ومن ثم لا يتأتى اعتباره من قبيل الشعر بحال، وكم في كلام الناس في الأسواق من هذا القبيل، وما سماه أحد شعرا.

هذا ولا ينبغي أن يفهم من تنزيه الله تعالى نبيه وكتابه عن الشعر أن الشعر مذموم محرم في جميع صورته وأوضاعه، إذ أن تنزيه الطبيعة النبوية عن السليقة الشعرية كان كما سبق لحكمة اقتضتها ظروف الدعوة. أما حكم الشعر في حد ذاته، فإنه دائر بين الجواز والندب والكراهة والتحريم، ومرد ذلك إجمالا ما رواه الدار قطني من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت ذكر الشعراء عند رسول الله ﷺ فقال: "هو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح" وفي معناه حديث عبد الله بن عمرو مرفوعا "الشعر بمنزلة الكلام حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام". وكيف يكون مذموما إطلاقا وهذا البخاري يروى عن أبي بن كعب مرفوعا "إن من الشعر لحكمه"، فالحق التفصيل، وإنه إن تضمن الثناء على الله عز وجل، أو على رسول الله ﷺ، أو الذب عنهما كما كان شعر حسان، أو تضمن الحض على الخير والوعظ والتزهيد في الدنيا والتقليل منها أو الدعوة إلى مكارم الأخلاق. إن تضمن ذلك كان مستحسنا مندوبا إليه. وما لم يكن كذلك وخلا عن الفواحش والكذب والتزين بالباطل فهو من النوع الجائر. ما لم يتغول على ذهن صاحبه ووقته، بحيث يؤدي إلى التقليل من العناية بما هو أهم من علوم الدين، وعندئذ يكون مكروها، وقد يتطور أمره حينئذ إلى التحريم. أما ذاك الذي يبرز مليئا بالكذب والاختلاق، حافلا بالتعريض والهجاء والغمز والإيذاء، أو ملوثا بذكر النساء والخمر والمغامرات الجنسية، والإشادة والتشبيب بمحاسن شخص معين، أو مهيجا للغرائز البهيمية، فإنه الحرام قطعاً

والإثم حقا، وفي قوله والاستماع إليه غضب الله وسخطه. وفي فعل الرسول ﷺ وإقراره، وكذلك في فعل صحابته الأكرمين ما يزيد الموضوع وضوحا وظهورا.

فقد روى الإمام مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: ردف رسول الله ﷺ يوما فقال: "هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم. قال: هيه فأنشدته بيتا. فقال: هيه ثم أنشدته بيتا. فقال: هيه. حتى أنشدته مائة بيت" وإنما استكثر النبي ﷺ من شعر أمية لأنه كان حكيما، ولقد قال في شأنه عليه الصلاة والسلام: "وكاد أمية بن أبي الصلت أن يُسلم".

وروى الترمذي وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دخل مكة في عمرة القضاء وعبد الله بن رواحه يمشي بين يديه ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخل عن خليله

فقال عمر رضي الله عنه: يا ابن رواحه: في حرم الله وبين يدي رسول الله ﷺ!! فقال رسول الله ﷺ: "خلّ عنه يا عمرُ فهو أسرع من نضح النبل" كما قال ﷺ نحو ذلك تعقيبا على ما رد به حسان بن ثابت رضي الله عنه، على أبي سفيان حينما شتم رسول الله ﷺ وكذلك قال ﷺ للعباس عمه رضي الله عنه: "لا يفضض الله فاك" حين مدحه ﷺ بقصيدته التي منها:

من قبلها طبت في الظلال وفي مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر أنـ ت ولا مضغة ولا علق

الأبيات. وإن قصة كعب بن زهير رضي الله عنه حينما أنشد النبي ﷺ قصيدته: بانث سعاد. وما تلى ذلك، أشهر من أن تذكر. وكل ذلك نص في الموضوع، ومبين لموطن الإباحة والجواز في الشعر إنشادا وسماعا. وإنه لهو الذي جعل عمر رضي الله عنه وهو الذي وقف من عبد الله بن رواحه موقفه المذكور آنفا، يجلس دامعا باكي العين عندما سمع العجوز تنفث صوفها وتنشد:

على محمد صلاة الأبرار، صلى عليه الطيبون الأخيار. قد كنت قواماً
بكاءً بالأسحار، يا ليت شعري والمنايا أطوار، هل تجمعني وحببي الدار.
وإن ما روي عن الصحابة رضي الله عنهم وكذلك من بعدهم من
التابعين وخيار الأمة من قول الشعر وإنشاده واستحسان الحسن منه،
والطرب له، والثناء على قائله، لأكثر من أن يذكر، ومن ثم قال القرطبي
في تفسيره. قال أبو عمر: ولا ينكر الحسن من الشعر أحدهم من أهل العلم،
ولا من أولي النهي، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضوع
القدوة إلا وقد قال الشعر أو تمثل به، أو سمعه فرضية: ما كان حكمة أو
مباحاً، ولم يكن فيه فحش ولا خنا ولا لمسلم أذى. فإذا كان كذلك فهو
والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله. أ.هـ، وعلى هذا القسم
الأخير حملت الأحاديث التي ورد فيها ذم الشعر والتنديد بقائله والمحفلين
به. وبعد أن نزه الحق سبحانه نبيه وبرأ ساحته وساحة ما أنزل عليه عما
رماه بها الأفاكون، حدّد وبين حقيقة التنزيل، بقوله سبحانه:

﴿إِنَّهُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾

والآية (كما هو ظاهر) قد اشتملت على أداة الحصر القاضية بانحصار
المنزل عليه ﷺ في هذين الوصفين: كونه ذكراً، وكونه قرآناً مبيناً. والأمر
فيه كذلك. فهو ذكر. يتلوّه المؤمنون أو يتلى عليهم، فيزدادون بتلاوته أو
الاستماع إليه إيماناً، وتمتلى أفئدتهم خشية وإيقاناً، حينما تجاذب معانيه
خواطرهم، وتجلو مواعظه صداً قلوبهم، وتستجيب لدعوته مشاعرهم ويكون
لهم من بشائره حافزاً إلى الخير، ومن زواجره حاجزاً عن الشر. وهو قرآن
مبين: فرق بين الحق والباطل، وميز الخبيث من الطيب، ونظّم العلاقة بين
العبد وخالقه، وأقام العقيدة على قواعد من العقل السليم والمنطق السديد،
وركز العبادات على أسس تحقق التهذيب الخلقي والسمو الروحي، كما نظم



العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان بما يكفل للجميع الحياة الطيبة الهانئة
السعيدة الخالية من العسف، البريئة من العدوان. أما قوله سبحانه:

﴿يُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾:

فإنه بيان للغاية المترتبة على إنزال القرآن، وتصوير لأثره بالنسبة
إلى من أنزل لأجلهم. والحياة المذكورة في الآية ليست الحياة المادية التي
يمثلها قيام البدن بوظائفه المعتادة، إنما هي الحياة المعنوية: حياة الروح
ويقظة القلب، وطهارة النفس، واستقامة الاتجاه. أما القول الذي حق على
الكافرين، فهو كلمة الوعيد التي سبق بها قضاء الله تعالى بالنسبة إلى كل
رافض لدعوته، محارب لرسله، موال للشيطان الرجيم، وفي كتاب الله خطابا
لعدو الله إبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

والمعنى: إنما المنزل على محمد ﷺ ذكر وقرآن مبين أنزل عليه لينذر به من
كان حي القلب، يقظ الضمير، لم يفسد الهوى اتجاهه، ولم يعمه الغرض عن
مشاهدة أنوار الحق الساطعة. لا جرم يرى في القرآن سبيل نجاته، وطريق
سعادته فهو له معظم، ولهديه معتنق، ولأمره متبع، أما ذاك الذي فتن بدنياء،
واتخذ إلهه هواه، فنبت كتاب الله ظهريا، واتخذ نسيا منسيا، فإنه الذي قامت
عليه الحجة، وحققت عليه الكلمة، وكان يوم القيامة مع وليه الشيطان، في
أعماق الجحيم، وليبئس مثوى الظالمين.

وإنما جعلت الآية الكريمة الإنذار موجها إلى الفريق الأول دون
الثاني، بينما هو في الواقع موجه إلى الفريقين على السواء، نظرا إلى أنه لما
لم ينتفع بهدي القرآن، إلا الفريق الأول كان الثاني (وهو المعرض
المنصرف) كأنه غير موجود كلية، وكأن الدعوة لم توجه إلا إلى الفريق
الأول فقط.

وبعد فهذا كتاب الله قد انقسم الناس بالنسبة إليه قسمين: أحياء ناجون، عرفوا له حقه وآخرون موتى هالكون أهملوا أمره، فكان لكل منهما مصيره الذي لا بد له منه. لذلك وجب على كل منا أن يزن بدقة موقفه، وينظر أين مكان القرآن من نفسه، وما مبلغ سلطانه على ملكاته وجوارحه، وأحاسيسه ومشاعره. ليعلم من أي الفريقين هو. فإنه وجد نفسه من الفريق الذي اتخذ القرآن إمامه وهاديه، وقائده ومرشده، يرجع إليه في كل أمر، ويستهديه في كل حال، فله البشرى وليحمد الله سبحانه، وليسأله دوام التوفيق. أما إن وجد نفسه ممن انتسبوا إلى القرآن، وأمة القرآن بمجرد حركات اللسان، بينما هم حرب عليه بالجوارح والأركان، فإن عليه أن يتدبر أمره سريعاً، ويثوب إلى رشده عاجلاً، قبل أن تفلت منه الفرصة، ويفوت التدارك، وعندئذ تحقق عليه الكلمة، وتمزق قلبه الحسرة، ولأت ساعة مندم.

﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّهُمْ يَتَّصِرُونَ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحَضَّرُونَ﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ.

﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، والواو عاطفة على مقدر يحدده المقام والسياق وتقديره ألم يتفكروا ويروا. والرؤية: ليست الحسية التي أداتها البصر إنما هي القلبية: العلم والمعرفة ﴿أَيْدِينَا﴾ الأيدي جمع يد. وحملت الأيدي هنا على الذات الأقدس لاستحالة المعنى المتبادر على الله تعالى المنزه عن الجوارح ومشابهة الحوادث. وهى من قبيل الاستعارة، لإفادة الاختصاص ومزيد الاعتناء، كما يقول القائل: هذا عملته بيدي وهو لا يريد إلا أنه بذل فيه عناية خاصة، ﴿أَنْعَامًا﴾ الأنعام: هي الإبل والبقر والغنم بنوعيه الضأن والمعز، وهى الواردة في الآية الكريمة: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾، الآية

﴿رُكُوبُهُمْ﴾ الركوب بفتح الراء فعول بمعنى مفعول أي مركوبهم ﴿مَشَارِبُ﴾ جمع مشرب، إما على أنه بمعنى مشروب وهو اللبن، وإما على أنه اسم مكان نظرا إلى أنها مقر له.

المعنى: هذه الآية الكريمة عود إلى قضية الإلهوية ورجوع إلى تقرير عقيدة الوجدانية وتسفيه الشرك والوثنية تركيزا للعقيدة الحقّة وتقوية لها في نفوس المؤمنين بها، وإقامة للحجة، وتسجيلا للشذوذ والانحراف والسفه على جاحديها والمكابرة فيها، ولقد تناول الحق سبحانه في حديثه هذا عنهم، وحجابه الموجه إليهم نوعا خاصا من أنواع المخلوقات، يشاطرهم أرضهم وديارهم بل ويعيش معهم داخل دورهم، وتناله صباحا ومساء أبصارهم، ويشعرون تمام الشعور بضرورته لحياتهم، واحتياجهم الكلي إليه في تيسير شئون معاشهم، وتوفير ما به قوامهم، وإيمانهم الوثيق بأنه لولا وجوده لاستحالت حياتهم جحيما لا يطاق. وكان حديثه سبحانه عن هذا النوع من عدة نواح، كل ناحية منها تمثل عند النظرة المنصفة إليها آية تدل عليه وترشد إليه، كما تطوي نعمة تضاعف بها على خلقه فضله، وتجلي إحسانه وبره، وتعظم عن طريقها حقه. تحدث سبحانه أولا عن الإنشاد والإيجاد فقال سبحانه:

﴿وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾.

وفى ذلك تنبيه للأذهان، ولفت للأنظار، إلى تلك التي تدب على ظهر الأرض، والتي تطوي في هياكلها ما به قوام النوع الإنساني، وتوفيرية العدد العديد من حاجياته الضرورية الهامة. ولئن كان قد تعطل من جراء الصراع بين العقل والعاطفة والمنطق والعادة، الانتفاع بالجانب المعنوي منها في تقوية الصلة بين العباد وخالقهم المتفضل بها عليهم، فإنه سبحانه ما كان بالذي يتركهم صرعى للأهواء والشهوات، ومن ثمَّ يوالي سبحانه قرع الأذان

وتحريك المشاعر والوجدان إلى استجلاء هذا الجانب الروحي الهام بجانب الانتفاع المادي بها، مفرغا ذلك في أسلوب الاستفهام الإنكاري الذي يطوي التنديد بالمنصرفين الغافلين المتعامين، والتعجيب من حالهم الذي تأباه الفطرة السليمة. وكأنه سبحانه يقول: ألم يستعمل أولئك المعارضون لدعوة الحق عقولهم، ويتفكروا في هذا النوع من المخلوقات، الذي خلقناه لأجلهم، ولمحض انتفاعهم، وتوفير وسائل الراحة والحياة الطيبة لهم؟ خلقناه ويسرنا امتلاك ما شاءوا، وما وسعته جهودهم من أصنافه، يسيطرون عليها، ويتصرفون فيها تصرف الملاك كما يشاءون، وعلى الوجه الذي يريدون من غير معارض ولا منازع. ألم يتفكروا في هذا الخالق الذي خلقهم ثم قدر تكوينهم، وعلم حاجتهم، وأحاط بما يصلحهم، فخلق لهم الأنعام في ضمن ما خلق وأبدع في الكون، ليكون لهم من وراء ذلك السعادة والحياة الطيبة؟ لعلهم لو اتجهوا إلى ذلك بإنصاف، واستعملوا عقولهم بحق، لكان لهم من وراء ذلك الهداية والرشد، ولكنهم لم يفعلوا وألّوا الهوى وآثروا الضلالة على الهدى، فآل بهم الأمر إلى ذلك الوضع الشائن المعيب الذي يجعلهم يأكلون رزق الله وينعمون بفضل الله، ثم يلجأون إلى غيره ويعبدون سواه.

ثم تحدث الحق سبحانه عما به تمام النعمة وكمال المنة فيما خلق من الأنعام فقال سبحانه:

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾

والمعنى: خلقنا لهم الأنعام وملكانهم إياها، ملكا تاما كاملا مصحوبا بالتذليل والتسخير الكلي أصبحت في أيديهم أداة طيعة سهلة، يوجهونها كما يحبون ويتصرفون فيها كما يشتهون، لا تمتنع منهم، ولا تتأبى عليهم، يركبونها تارة ويحملون عليها أخرى فيما شأنه قبول ذلك كالإبل، ثم ينحرونها إذا ما بدا لهم ذلك ويطعمون لحومها، كما يذبحون تلك التي أهم ما يبتغى منها اللحم كالغنم. وإنما كان هدف الآية الكريمة ما ذكرنا آنفا، لأن

الأنعام لو ملكت ولم تذلل بأن كانت أئبة متمردة نفورة شاردة كتلك التي تسكن الصحاري والجبال، ما كان للإنسان انتفاع منها إلا بالأكل بعد عناء شديد لمن عرف كيف يقتطعها، ويسرت له وسائل التغلب. ثم قال سبحانه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾.

بيّن سبحانه أن استغلال الإنسان للأنعام لم يقف عند الركوب والأكل فقط، إذ أن له فيها منافع كثيرة كل منها ضروري لحياته وهنائه. فمنها يأخذ الصوف والبر والشعر والأظلاف والعظم والجلد، ويستعمل بعضها في مصالحه الزراعية كالحرثة والدراسة والري، كما أن له منها الألبان يشربها سائغة هنيئة، أو يستخرج منها منتجاتها كالزبد والجبن والإقط وما إلى ذلك، وكل هذا كان معروف وقت نزول القرآن. أما ما توصل إليه العلم الحديث سابقا، وما سيكشف عنه ونتوصل إليه مستقبلا مما يعود على الإنسان بالخير الكثير، فإن كلمة القرآن ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ لا تقصر عنه، بل تشمل وتحيط به.

وقد فصلت آيات النحل بعض ما أجمل ههنا، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغَنِيِّ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾. وقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلْ لَّكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

ليت شعري ما مبلغ ما كانت ستكون عليه حياة الإنسان من سوء واضطراب بل ما مبلغ ما كانت ستكون عليه من شقاء وعناء. إن لم يكن الهلاك والفناء، لو لم يتفضل الحق سبحانه عليه بهذه المخلوقات الودیعة الهادئة الخاضعة المستسلمة، التي تبذل في خدمته وقضاء مصالحه كل ما تملك من قوة، بل تقدم حياتها في سبيل متعته، ثم هو لا يدع من أجزائها بعد

موتها شيئاً إلا ويستغله لتوفير هنائه وراحته. عن لحظة واحدة يتخيل فيها الإنسان الحياة وقد خلت من الأنعام، متفكراً فيما يؤول إليه الأمر إذ ذاك - لكفيلة بأن تجعله يمتلئ شعوراً بعظيم فضل الله تعالى عليه، ويحس تماماً بفداحة تقصيره في حقه.

وإذا كان من مقتضى تلك النعمة التي يشعر كل فرد من النوع الإنساني بأثارها ويدرك مبلغ ما لها من تدخل في تهيئة أسباب الحياة الطيبة له. أن تتجه مشاعر المتمتعين بها (كما يوحي بذلك العرف العام) إلى مسديها والمتفضل بها وهو الله سبحانه، وتتجذب نفوسهم إليه مقدرة حقه. معلنة شكره، مترجمة عن ذلك الشكر بطاعته والاستجابة إلى دعوته، ومناصرة الناطق بوحيه، ما داموا معترفين بنسبتها إليه وصدورها عنه خلقاً وتكويناً كما هو صريح قوله سبحانه: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وقوله عز من قائل: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

لما كان الأمر كذلك، وكان موقف أولئك الذين تمردوا على رسوا الله ﷻ ضد ما يقتضيه العقل، وتحتمه الفطرة السليمة، إذ جحدوا النعمة وأهدروا حق المنعم، وقلبوا الأوضاع في كل ما بدا منهم نحو الله ونحو رسول الله. لا جرم سجل الله تعالى عليهم هذا الموقف المزري تأنيباً لهم وتقبيحاً لعملهم، بقوله سبحانه:

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

والاستفهام للاستنكار والتقريع والتوبيخ. والمعنى: أيرون تلك النعم العظيمة ماثلة أمام أعينهم، يتمتعون بها كما يحلو لهم، ويحسون بما لها من تدخل في توفير راحتهم وهنائهم، ثم لا يبدو منهم ما يشف عن تقديرهم لمسديها، وشكرهم له، بل بالعكس تنادي أعمالهم بجحودهم وشذوذهم

وخروجهم عن المألوف المعتاد. ثم فصل سبحانه ما يقتضيه الاستفهام الإنكاري بقوله:

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ﴾:

وفى هذا التفصيل مزيد من التنديد بهم، والتجهيل لهم، والتسخيف لعقولهم. والمعنى ما شكروا، بل جحدوا وكفروا واتخذوا الهوى قائدا، ثم أوغلوا فى الجحود والشذوذ، وإهدار حق المنعم جل جلاله فأعرضوا عنه، وخلعوا وصف الإلهية الخاص به، والذي لا يصح عقلا أن يكون إلا له، خلعه لا على شئ له قيمة، ولا على شئ له أثر فى حياة غيرهم. كلا! بل خلعه وألصقه بأشباح جامدة لا تحس ولا تشعر، ولا تضر ولا تنفع، صنعوها بأيديهم، ثم قدسوها بجهلهم وعمى قلوبهم. ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد من السخف وال حماقة، إذاً لكانت المصيبة فيهم هينة نوعا. ولكنهم زادوا بأن التمسوا منها (وهى التي لولاها لما كان لها وجود وإنهم لأعلم بعجزها وضعفها) التمسوا منها أن تكون لهم نصيرة، وفى أوقات الشدائد مجيرة، وعند القدوم على الله تعالى شفيعة. فهل وراء هذا سخف أو ضلال ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ومن ثم اكتفى الحق تعالى فى التعليق على ما يزعمون بقوله:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ﴾:

إن هؤلاء طمعوا فى غير مطمع وأملوا حيث لا محل لأمل أو رجاء، وما كان لأولئك الذين زعموهم آلهة من دون الله أن يمنحوهم شيئا هم لا يملكونه لأنفسهم: كيف يمنحونهم النصرة، ويمدونهم بأسباب المعونة، وهم أولا لا يسمعون دعاء من يدعوهم لأنهم صور قائمة لا حس فيها ولا حياة. وعلى فرض أنهم سيسمعون فهم أعجز من أن يستجيبوا، ثم هم ثانيا مدينون فى وجودهم لمجهودات عابديهم، ولولاها لما كان لهم على ظهر الأرض

وجود، بل لولا محافظتهم عليهم، وتوليهم شئون رعايتهم لقضوا، وبالت عليهم الكلاب. هذا بالنسبة إلى الدنيا. أما في الآخرة فهم أحقر وأتفه وأعجز عن أن يتقدموا برجاء بله الاستجابة إليهم، ومن كان منهم من المقربين إلى رب العالمين، فإنه سرعان ما يبادر إلى التبرؤ منهم، وتحميلهم تبعه إجرامهم، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾.

والضميران الأول والثاني في ﴿نَصْرَهُمْ وَهُمْ﴾ يعودان إلى العابدين. والثالث الكائن في ﴿لَهُمْ﴾ يعود إلى المعبودين. وقد قيل إن ذلك كائن في الدنيا. والمعنى: إن العابدين قائمون على خدمة المعبودين كما يقوم الجند على خدمة سيدهم، والذب عنه والحفاظ عليه، وهو ما بسطته آنفا. كما قيل: إن ذلك في الآخرة. أي إن العابدين يكونون يوم القيامة كالجند للمعبودين يتبعون أثرهم إلى جهنم، ويكون في تسميتهم جندا نوعا من التهكم بهم، وفي التنبيه على ذلك بيان لما سيؤول إليه أمرهم، وتختتم به صلته بآلهتهم.

وإذ كان لهذا المسلك المعوج، وما صاحبه من عنف وقسوة واضطهاد، تحدثنا عنها غير مره. أثره في نفسية الرسول الكريم، لاسيما ومصدره أهله وعشيرته الذين كانوا أولى الناس بنصرته وأجدرهم بتقبل دعوته، والنظر بإنصاف وتعقل فيما جاءهم به. وناهيك بفرد تناصبه العداء أمة بأسرها، ولا يستجيب لدعوته إلا عدد قليل ينظر العرب إلى أكثرهم نظرتهم إلى لا شيء. إنه إذ ذاك لن يجد ملجأ يلجأ إليه، ولا نجياً يبتثيه شكواه إلا خالقه ومولاه الذي شرفه بتلك الرسالة، وعهد إليه بتلك المهمة، لا جرم سلاه الله تعالى وخفف عنه بض ما يجد بقوله سبحانه:

﴿فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

أي لا يهتمك أمرهم، ولا يحركك وعيدهم ولا يستثر وجدانك ما يهرفون به من دعوة غير الله والعبودية لما سواه، ولا تلق بالآلى إرعادهم وإبراقهم، ولكن هذا كله دبر أذك، فإنما عليك البلاغ، وقد بلغت، وعلينا الحساب، وسنحاسبهم ولا بد، ونذيقهم جزاء كفرهم وعنادهم ولا بد، ولن يجدوا من يدفع عنهم العذاب أو يصرف عنهم النعمة والعقاب. أما ما تلوكه ألسنتهم من وعيد، وما تقذف به أفواههم من تهديد، فإنه لا يعدو مجرد القول، وما كان لهم أن يضعوه موضع التنفيذ، بينما الله تعالى الذي بيده نواصيهم، وإليه علم سرهم وعلايتهم ومكائدهم وتدابيراتهم قد تكفل بحفظك، وقضى بعصمتك من شرهم وأذاهم ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فهل يغلب هؤلاء الأغرار القدر؟ أم هل يناوئون من بيده الخلق والأمر إنهم لأحط من ذلك وأحقر. ولقد باعوا من مكائدهم بالفشل، وكانت الغلبة لرسول الله ﷺ. والوقف على قوله سبحانه: ﴿فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ﴾. إذ ما بعده جملة مستأنفة وقعت كالتعليل لما قبلها وهو النهى عن الحزن. إذ أن العلم بسرهم وعلايتهم من مستلزماته الهيمنة عليهم والقدرة على إحباط تدبيرهم، ثم مجازاتهم على ما قبح من أعمالهم، ومن ثم كان من الخطأ وصل الكلام ببعضه، لا سيما وأنه ربما أوهم معنى غير مراد قطعاً. وقدم العلم بالسر في الآية على العلم بالعلن، للمبالغة في بيان شمول علمه سبحانه لجميع المعلومات، وكأن علمه سبحانه بما يسرون أسبق من علمه بما يعلنون مع استوائهما في الحقيقة. إذ علمه سبحانه بالمعلومات ليس بطريق حصول صورها كما هو الشأن في علمنا معشر المخلوقين. بل إن وجود الشئ هو نفسه علم بالنسبة إلى الله تعالى. وفي هذا لا يختلف الحال بين البارز والكامن.

وبعد. فلئن كانت هذه الآيات الكريمة قد سيقّت لإقامة الحجة على المشركين الذين أكلوا رزق الله تعالى وعبدوا غيره، وتمتعوا بنعمه وشكروا

سواه، والتي كانت كفيلة (لو أنصفوا في موقفهم) بإخراجهم من ظلمات الشرك والوثنية إلى أنوار التوحيد والعبودية. إلا أن القرآن (كما قلنا غير مرة) كتاب لا تختص هدايته بزمان دون آخر. ومن ثمَّ فإن من واجبنا أن ننظر ما نصيبنا من هدايتها؟ وإنه لنصيب وافر ملحوظ.

علينا كلما مددنا أيدينا إلى طعام أو شراب استمد وجوده من الأنعام أن نقف عنده قليلاً، ونفكر في الأدوار والمراحل التي مر بها حتى وصل إلينا طعاماً هنيئاً، وشراباً سائغاً تمتلئ النفس بتعاطيه غبطة، ويكتسب الجسم عن طريقه قوة وصحة، ثم نتحسس مكامن النعم الإلهية في هذه المراحل، وإننا لواجدوها في كل مرحلة إذا ما أدخلنا في تقديرنا العوائق والموانع والآفات التي تعترض الشئ قد شارف نهايته وكماله فتفسده وتقضي عليه وتحول بين أصحابه وبين الانتفاع به. كما أن علينا أن نذكر ذلك كلما لبسنا أو انتعلنا شيئاً مصدر خاماته الأولية الأنعام.

كذلك لنغمض العين قليلاً، ولنترك للخيال العنان يجول في فضائه اللانهائي. ولنتصور الحياة وقد خلت من تلك المخلوقات التي خلقها الله لنا وسخرها لتوفير هوائنا وسعادتنا أو لتصورها موجودة ولكنها نادرة شاردة أبيّة متوحشة لا تتال إلا بأهوال ومخاطر، ولنسأل أنفسنا بعدئذ: أي شقاء هذا الذي سنكابده؟ وأي عناء ذلك الذي سنحياه؟ ولعلنا إذ نفعل ذلك، نستطيع أن نتذوق بحق قيمة تلك النعم العظيمة ونحس بما لله علينا فيها من منة، وبالتالي يسهل علينا تصور بشاعة تقصير المقصرين، وتهاون المتهاونين في حقوق الله رب العالمين. وفي ذلك ما فيه من تحريك المشاعر، وحفز للهمم إلى الخير والبر والمعروف.

﴿وَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ۖ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۖ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۖ﴾

﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ المصباح: خصم الرجل يخصم من باب تعب إذا أحكم الخصومة، فهو خصم وخصيم. أ.هـ. والمبين: البين الخصومة المجاهر بالعداء. والمراد: فإذا هو شديد الخصومة، كثير الجدل بالباطل، لا يأبه بالحق ولا يستجيب له **﴿ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾** المختار: ضرب الله مثلا: وصف و بين. والمراد: أورد في شأننا قصة عجيبة هي في الغرابة والبعد عن المعقول كالمثل **﴿رَمِيمٌ﴾** المصباح: رم العظم يرم من باب ضرب، إذا بلى فهو رميم، ومن ثم يكون المعنى: وهي بالية أشد البلى، بعيدة عن الحياة غاية البعد.

المعنى: كان أمر رسول الله ﷺ الشغل الشاغل لقريش تبیت فی الحديث عنه وتصبح، لا يكادون يجتمع اثنان إلا ويكون الحديث عن رسول الله ﷺ أول ما يبدأ به. ولقد ضم مجلس من تلكم المجالس رعوس الشرك وزعماء النضال ضد الدعوة المحمدية: أبي بن خلف الجمحي وأبا جهل والعاص بن وائل والوليد ابن المغيرة. ولم يكد يحتويهم المجلس ويبدعون الحديث حتى اندفع أبي بن خلف يقول: ألا ترون إلى ما يقول محمد. يقول إن الله يبعث الأموات. ثم قال: واللوات والعزى لأصيرن إليه ولأخصمنه، وأخذ عظما باليا فجعل يفته بيده ويقول: يا محمد أترى الله يحيي هذا بعد ما رم، قال ﷺ: "نعم! وبيعتك ويدخلك جهنم" فنزلت الآيات ردا عليه وعلى أمثاله ودحضا لشبهته تفنيدا لقولته الأثيمة الغبية.

ظن الغبي الغوي لجهله وعمى بصيرته ووقوفه كأمثاله عند المألوف المعروف فقط. ظن أنه قد أصاب ما يفهم به رسول الله ﷺ ويظهر به عليه. ومن ثم ذهب يحدثه والزهو قد أخذ عليه مسالك التفكير. ولعله كان يحدث نفسه بأنه سيرى الرسول ﷺ وقد تملكته الحيرة، ولم يجد ما يواجهه به. وما درى أن ما تخيله هو شبهة ضخمة، ولغزا معقدا، أهون وأنفه من أن يشغل من تفكير الرسول ﷺ حيزا ولو لفترة قصيرة، إذ هو لديه من البدائة الأولية.

بل ولدى كل عاقل منصف لم يعمه الغرض والهوى. ولقد تولى الله تعالى التعليق على موقف هذا الجهول الغوي بما يرده وأمثاله إلى الصراط السوي ويلحقهم بركب العقلاء إن كانوا يرغبون بهم لحاقاً، ندب به أولاً وأنبّه على فعلته الشنعاء. ثم سجل عليه التعامي عن برهان العقيدة الحقّة الماثل فيه فقال عز من قائل:

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾.

ونعيد هنا ما قررناه عند تفسير قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ ۞﴾ فالاستفهام الذي صدرت به الآية للإنكار والتعجيب، ومدخول الواو الواقعة بعد همزة الاستفهام محذوف يدل على السياق ويرشد إليه المقام والرؤية علمية لا بصرية. والمعنى الإجمالي عليه: ألم يتفكر الإنسان ولم يعلم علماً يقينياً ﴿أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ﴾.. الخ

ومحط الإنكار والتعجب غفلة ذاك الجاهل الأحمق عن أصل وجوده. ووقوفه من قضية البعث موقف الجحود والإنكار، وتحرشه برسول الله ﷺ زاعماً لغروره وجهالته أنه سيخصمه، بينما أسباب تبصره، وعوامل هدايته ورشده في متناول يده، لا يكلفه امتلاك زمامها إلا الرجوع إلى ذكرياته ومعلوماته الأولية، واستعمال العقل بإنصاف في وصل الماضي بالحاضر. إنه لو فكر قليلاً وأنصف لما وقف هذا الموقف. إذ ليس الخلق الثاني بأبعد من الخلق الأول الذي يعترف به ولا يكابر فيه.

ما أصل الوجود الإنساني؟ إنه تلك النطفة القذرة المذرة الخامدة الهامدة التي لا حياة فيها، تستقر في مستقرها فترة من الزمن محدودة تتولاها فيها عناية الله، فإذا بها تتحول في نهايتها إنساناً مفكراً مدبراً ذا قوى واستعدادات خاصة، استطاع عن طريقها أن يقتنص قوى الأرض ويوجهها إلى ما يحقق أغراضه ومصالحه، بل إنه لم يكتف بذلك فذهب يسخر الهواء

لخدمته، ويمتطيه توفيراً لوقته، ويستغل قواه الكامنة غير المرئية في شتى مآربه، بل هاهو يحاول أن يطوع قوى الشمس لإرادته.

ما أوسع الهوه!! وما أضعف الصلة بين هذين الطورين من أطوار الوجود الإنساني!! و يقيني أنه لولا الإلف والعادة، ولولا الإحساس المتكرر بأن هذا المخلوق فرع عن تلك النطفة، لكان هناك مجال محقق للتشكك، بل ولوجد من يستخف بأحلام من يؤمنون بالاتصال والتسلسل بين النطفة والإنسان. ولست أراني مغاليا في يقيني هذا، فإن من يجحد ويكابر في إمكان إعادة من انسحب عليه حكم الوجود، وتمتع بالحياة حقبة من الزمن، بينما كل ما طرأ عليه أن تفرقت أجزاؤه، وتغيرت معالمه، إن من يفعل ذلك ليس بمستبعد عليه أن يقف نفس الموقف فيمن لم يأخذ من الوجود بحظ، لو قد فرض وانعدمت المعاينة المتتابة.

فمن استطاع أن يخلق من تلك النطفة الخامدة الهامدة التي لا أثر للحياة فيها إنسانا، ومن تناولت قدرته الباهرة جزيئاتها البسيطة الفطرية فخلقت منها عينا تبصر، وأذنا تسمع، ولسانا ينطق، ويذا تبطش، ورجلا تمشي، وعقلا يفكر ويدبر، ودماعا تتوالت مناطقها واختصمت كل منطقة منها بعمل يغاير ما تؤديه أختها، هذا إلى جوف فيه من الأجهزة والغدد والسوائل والخمائر والعصارات المعجب المدهش الذي لا يزال العلم الحديث يستكشف من أسرارهِ كل فترة جديدة. من تناولت قدرته كل هذا، وأوجده من لا شئ تقريبا، وعلى غير مثال سبق، أعجزه إعادته خلقا جديدا مع وجود المثال، وتوفر الأجزاء التي لا تزال مادتها موجودة في الكون، وإن كانت قد احتلت صورا جديدة؟ اللهم لا عجز ولا عي، ولا بعد ولا استحالة، إلا عند من أفسد الهوى تكوينهم وأضل عقولهم، من طراز ذلك الجهول الذي صور الله موقفه بقوله:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

فقد تعامى وتغابى وتجاهل ما ذكرناه، مما يعترف به الكل ولا يستطيعون له إنكاراً، وذهب يقف مع الظواهر ويستند إلى الإلف، ويقيس قدرة الخالق بقدرة المخلوق الضعيف العاجز، ويتشبث بقطع العظام الرميمة ويتخذ منها مادة للحجاج والمكابرة، ومن ثم رد الحق سبحانه على ذلكم الغويّ الجاحد، وعلى أمثاله ممن استحوذ عليهم الشيطان، وحشا قلوبهم بالشك فيما يأخذ حكم البدهيات، سواء أكانوا في عصره أم جاءوا بعده، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. رد عليه أبلغ رد، وأحكمه وأوجزه، فقال سبحانه:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

قل يا محمد لهذا الغويّ الغبي الذي ظن أنه قد وقع على ما لم يقع عليه غيره، وتخيل أنه سيفحمك وشيكا بتلك الشبهة الواهية، قل له: لست أنا الذي سألته ولا غيري ممن يتناولهم بصرك أو يدركهم حسك من الأناسي العجزة. إن الذي سيمنحها الحياة، ويعيدها كما كانت قوية فتية غضة طرية، تؤدي وظيفتها كما كانت تؤديها، بل وخيراً مما كانت تؤديها، وهو الذي أنشأها في المرحلة الأولى، وصورها وكونها في المرحلة التي لن تستطيع لا أنت ولا غيرك ممن شاركك في التمرد إنكار نسبتها إليه وهو الله سبحانه ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

وفي قوله سبحانه: ﴿أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ توجيه للأذهان إلى موطن الاستدلال ذلك أن الشعور العام الذي لا يختلف فيه اثنان، يقضي بأن إعادة المصنوع الذي انهار هيكله المائل، وتفككت أجزاؤه المترابطة، أيسر بكثير جداً من إنشائه أولاً، بحيث إذا استغرق الإنشاء الأول مثلاً يوماً كاملاً فلن تستنفد الإعادة بعد التفكك ساعات. ومن ثم فإذا وجد شخص يعترف بهذا الشعور ولا يجده بالنسبة إلى البشر فيما يصنعون، ثم هو في الوقت نفسه يجده

ويكابر فيه، ويستبعد حدوثه إذا ما نسب إلى خالق القوى والقُدَر، ويستكثر على الله تعالى أن يعيد بعد الممات والتفرق الكائن الذي كان هو المنشئ له في حياته الأولى من العدم. إن مثل هذا الشخص ليس إلا أحد رجلين: إما مكابر يجادل في الحق بعد ما تبين ويكبت لسانه عناء الترجمة الكاذبة عن شعوره ووجدانه، وإما رجل فاقد العقل مختل الشعور لا يليق به أن يحتل مكان العقلاء ويحاول أن يزاوّل ما يزاوّلون.

ولما كان المعروف عن الهيكل الإنساني أنه بعد الموت والبلى تتحلل عناصره، وتتفرق أجزاؤه، بل وتأخذ صوراً أخرى في مكونات غيره كما هو معلوم . وربما لعبت الحوادث والتغييرات الكونية ببعض أجزائه، وباعدت ما بينها بعدا غالبا ما يكون شاسعا. لذلك سد الله تعالى على الأوهام طريقها بقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، أي إنه سبحانه عليم بتفاصيل الخلق والإيجاد، إنشاء وإعادة، محيط بجميع الأجزاء المتفتتة والمتبددة لكل شخص من الأشخاص، أصولها وفروعها، ونسبة كل جزء إلى مثيله اتصالا وانفصالا، واجتماعا وافتراقا، فيعيد كلا من ذلك على النمط السابق مع القوى التي كانت من قبل.

ولئن كانت الآيات قد سبقت للرد على المعارضين، وتعزيز عقيدة البعث والنشور كما قلناه، إلا أن الأمر لن يقف بموضوع الدليل "وهو خلق الإنسان من نطفة" عند هذا الحد، إذ أنه صالح في ذاته لأن يكون دليلا من أدلة إثبات وجود الحق سبحانه وتفرد بالإلهية واتصافه بباهر القدرة وكمال العلم والحكمة.

بيان ذلك: أن النطفة المنقذفة في الرحم لا اختلاف بينها في المادة والصورة مهما اتحد مصدرها أو تعدد. فاللون واحد، والقوام والكثافة واحدة، ولكنها تختلف بالنسبة إلى ما يؤول إليه أمرها بعد انقذافها. إذ منها المخلق وغير المخلق، كما أن المخلق منها مختلف أيضا. فمنه الذكر والأنثى، ومنه

الطويل والقصير والربعة. ومنه الأبيض والأسود والأحمر والأصفر، كما أن منه الذكي المتوقد الذكاء، والغبي المفرط الغباء، والمتوسط بين هذا وذاك. كذلك لكل شخص تكوين مخصوص بالنسبة إلى صورته الظاهرة من حيث السحنة والشكل، وتكييف الأجزاء وتناسق الأعضاء، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾. وحسبنا في ذلك ما أصبح في حكم البدهيات وهو ما ذكرناه سابقا: من أن التشابه الكلي بين شخصين لم يوجد إلى الآن حتى بين التوائم.

لننظر إلى ذلك، ثم لنسأل من حولنا من المتشككين: من ذا الذي انتزع من النطفة التي لم تتخلق خواصها؟ ومن ذا الذي عطّلها عن التكون وأوقف عملية التلقيح مع صلاحيتها له بحسب طبيعتها، وخبب آمال أصحابها مع حرصهم الشديد على النسل وتشوفهم إلى الذرية عن طريقها؟ ثم من ذا الذي رجع جانب التخلق في المخلقة على مقابله وضده؟ كذلك من ذا الذي آثرها بإحدى الصفات المتقابلات التي سبقت الإشارة إلى بعضها أو حال بينها وبين ما كان مرجو لها منها؟

إن العقل يقول: لا بد من ذات فعالة مختارة مهيمنة مسيطرة لا سلطان لأحد عليها رجحت أحد الضدين على ضده، وعززت جانب إحدى الممكنات المتقابلات على مقابله مما ذكرنا وغيره من كل ما له دخل في تكييف حياة الإنسان من سعادة أو شقاء، وفقر أو إثراء، أو مرض أو صحة، أو ضعف وقوة، وعز أو ذل، وما أشبه ذلك.

ومحال وألف محال أن يكون ذلك الذي تحدثنا عنه وليد الصدفة أو من فعل الطبيعة، كما يزعمه أولئك الحمقى الذين تتكروا لعقولهم، وأفسد

الغرض فطرهم، وأضاع الغرور صوابهم، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۖ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾.

تلك الذات الكريمة الفاعلة المختارة هي التي جاء الرسل صلوات الله وسلامه عليهم يرشدون الناس إليها، ويدلونهم عليها، ويعرفونهم بها ويذكرون لهم من نعوتها ما تطيقه عقولهم، ويسمونها: الله رب العالمين الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو.

وعلى هذه الصورة يقرر الدليل إذا ما وقفنا به عند الحد الذي يشترك في إدراك مواده الناس جميعا خاصتهم وعامتهم وإن كانت ثمة وراء ذلك ما كشف عنه العلم الحديث مما انطوى عليه الهيكل الإنساني من أجهزة دقيقة، وغدد متنوعة، وعصارات مختلفة، لكل منها خاصية تغير الأخرى، هذه لهضم الدهون، وتلك لهضم النشويات، وثالثة لهضم الزلاقيات، وقد نظم إفرازها بحيث لا يزيد عن الحاجة ولا يقل عن المطلوب. وهي أمور من شأنها عند النظرة المنصفة والتقدير السليم، أن تزيد الإحساس بالله تعالى قوة، واليقين ثباتا ورسوخا، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿سُنِّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الشَّجَرِ الْأَخْضَرَ نَارًا إِذَا أَنْتُمْ تُوَقَّدُونَ ۖ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ ۖ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

تناولت الآيات السابقة القضية الإسلامية الكبرى التي أفضت مضاجع أعداء الدعوة المحمدية وأهمتهم أكثر من غيرها والتي اتخذوا من بعدها عن المألوف مادة دسمة للقليل والقال، وهي قضية البعث والنشور.

ولقد بينا عند تفسيرها أن موقف القرآن الكريم من الدفاع عن هذه القضية كان متسقا كل الاتساق مع موقف المشركين متجاوبا مع محاولاتهم، يتتبع ما يثيرونه من شكوك، وما ينثرونه من شبه وأباطيل، ويكر عليها

بالنقض، ويكشف عما فيها من زيف. ولا يكتفي في الموضوع بدليل واحد ولا يقف عند لفت الأنظار إلى أمر واحد، وإن كان في هذا الدليل الواحد ما يفي ويقنع من يرغب أن يقتنع. بل يتبع الدليل بالدليل ويقرن البرهان بالبرهان وينقل الناظر فيه من دليل موطنه الأنفس إلى آخر مصدره الآفاق، وأثار القدرة الباهرة في الأرض والسماوات. ومن ذلك الآيتان موضوعنا.

فبعد أن رد الله تعالى على ذلك الجاحد للبعث، المتشبهت بقطعة العظم البالية وفند شبهته الواهية بدليل مقدماته منه هو شخصياً، تابع الدليل بمثله، وقرن ذلك البرهان المستمد من الأنفس وأصل النشأة ببرهانين تقع موادهما في متناول الأبصار في الليل والنهار. وقد تحدث عن أولهما بقوله عز وجل:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾

والموصول في الآية بدل من الموصول في قوله سبحانه في الآية قبلها ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا﴾ ومن ثم يكون يحيي داخلاً عليه. أي: يحييها الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً. ﴿جَعَلَ﴾: من الجعل بمعنى الإبداع والخلق. ﴿لَكُمْ﴾ لأجلكم ومنفعتكم وتوفير أسباب الحياة الطيبة لكم والشجر الأخضر: المشهور عند المفسرين أنه شجر معهود مخصوص، وهو المرخ والعفار. قالوا: يتخذ من المرخ (وهو ذكر) الزند الأعلى ومن العفار (وهو أنثى) الزند السفلى، ثم يسحق الأول على الثاني وهما خضروان يقطر منهما الماء فتندح النار، بخلق الله تعالى وإيجاده والمعنى. وضمنه تكييف الدليل: هأنتم يا هؤلاء الذين تعاملتم عن الحق ترون أحكم يتناول قطعتين من نبات المرخ والعفار باردتين رطبتين يملأ هيكليهما الماء، بل ويقطر من أطرافهما، ثم يسحق إحداهما على الأخرى، فإذا النار تخرج من بينهما حارة لاذعة محرقة مع بدهة التضاد الكلي بينها وهى الحارة اليابسة، وبين ما خرجت من بين ثناياه وهو البارد الرطب. فهلا راجعتم أنفسكم وأنتم ترون

تلك الظاهرة العجيبة، واستعملتم عقولكم بإنصاف؟ إنكم لو فعلتم لهدتكم إلى أن من توصلت قدرته إلى إخراج الضد من الضد وإبراز النقيض من ثانياً نقيضه لن يعجزه أن يعيد الجسد البالي خلقاً جديداً ويرد إلى أجزائه اليابسة المتفككة لفعل الزمن ما أفقدها كره من غضاضة وطراوة وتماسك أما قوله عز من قائل:

﴿فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾

ومعناه: فإذا أنتم من ذلك الشجر الأخضر والنبت الطري الذي التهب بسبب الاحتكاك توقدون النار وتؤججونها توصلاً إلى شتى منافعكم عن طريقها. فإنه (وإن كان قال المفسرون) تأييد لما قبله وهو صدر الآية وتحقيق له بيان أن النار المنبثقة من الاحتكاك نار حقيقية لا مجرد خيال كنار الحباحب، إلا أنني أرى فيه زيادة على ذلك لفتاً للأنظار، وتنبهاً للأذهان على مكن النعمة الإلهية في تلك الظاهرة وإلى ما هياً الله تعالى عن طريقها لعباده من حياة هائلة طيبة سعيدة. وإن قليلاً من التقصي الذهني لأسباب الحياة، ووسائل المعيشة، لكفيل بأن يظهر بوضوح أنه ما كان يمكن للحياة أن تأخذ صورتها الممتعة المعروفة لنا لو قد قدر للنار أن لا يكون لها وجود. إذ أنه إذ ذاك لا يكون ثمة فارق بين طعام الإنسان وطعام الحيوان، ولكان مقضياً علينا أن نمضغ الحبوب ونطعم اللحوم ونتناول الخضروات كما خلقها الله، وكما أنبتتها الأرض. فله مزيد الحمد والمنة. وإنه لحتم علينا أن لا نرضى لأنفسنا بالغفلة، وأن نذكر كلما طعمنا طعاماً للنار فيه نصيب، أو شربنا شرباً كذلك، أو لبسنا ثياباً كذلك، ما لله علينا فيما متعنا به من فضل ومنة، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ **الأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون** **نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمؤمنين** **فسبح باسم ربك العظيم**. ثم تحدث عن ثاني البرهانين بقوله:

﴿وَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾.

وقد صدرت الآية بأداة الاستفهام الإنكاري ومفادها النفي، كما أدخلت على (ليس) وهى للنفي، ومعلوم أن نفي النفي إثبات، ومن ثم تكون النتيجة إثبات مدخول الأداة، وهو قدرة الله تعالى على خلقهم من جديد، وهو إثبات أكسبه الأسلوب تأكيداً كما هي قاعدة البلاغة العربية.

والمعنى: هأنتم أولاء ترون السموات، وعظمتها في منتهى الوضوح، من ضخامة جرمها، ورفعها بغير عمد، ونظام كواكبها وسياراتها، وما إلى ذلك مما لا ينتهي كثرة. ثم هأنتم أولاء ترون الأرض عظيمة في تكوينها، عظيمة في جبالها الراسيات، عظيمة في تنوع أجزائها بحسب احتياجات ساكنيها، عظيمة في أنهارها وبحارها وتنوع ما يخرج منها إلى غير ذلك مما يطول الحديث عنه. وإنكم لمعترفون بأن خالق ذلك كله ومبدعه ومدبره كله هو الله سبحانه، وبعيد أن يوجد منكم من يكابر في هذه أو يزعمها لمن ألهمهم من دون الله، فهل يتصور أن من خلق هذا كله ودبر هذا كله، ولم يعي بخلقه. هل يتصور أن يعجزه أن يعيدكم خلقاً جديداً، مع صغر الحجم، وتفاهة الشأن بجانب الكون العظيم؟ كلا كلا!! وإنه لأهون عليه ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولما كان هذا الجواب هو المتعين المقطوع به عند من له أدنى مسكة من عقل وأقل نصيب من إنصاف، لذلك تولى الحق سبحانه الجواب صريحا واضحا بقوله عز من قائل:

﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾.

فهو سبحانه قادر على ذلك لا تقف قدرته دون خلقهم وأمثالهم وأمثال شيء، ولا يخفي عليه شيء. ولقد اتجهت إرادته إلى خلق ما هو أعظم من

السموات والأرض والأفلاك والكرسي والعرش لما كان ثمة ما يحول بينه وبين ما يريد أو يؤخر وقته المرسوم لحظة.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدُورُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ الأمر: الشأن والحال. تقدمته إنما. وهى أداة حصر لإفادة استغراق

جميع صور التكوين كلها واندراجها تحت مضمون الآية الكريمة، وعدم خروج فرد منها عن مقتضاها. فسبحان: سبحان هنا، للتنزيه مع التعجيب. تنزيه سبحانه عما لا يليق به مما ينسب إليه أولئك الحمقى، وتعجيب من إصرارهم على موقفهم مع مواجهتهم بالدلائل القاطعة التي تزيفه وتكشف باطله. ملكوت: قيل هو مبالغة فى الملك كالرحموت مبالغة فى الرحمة، والرهبوت مبالغة فى الرغبة. وقيل: المراد منه عالم الأمر والغيب لاختصاص الله تعالى بالتصريف فيه من غير واسطة بخلاف عالم الشهادة.

المعنى: بهاتين الآيتين الكريمتين اختتم الحق سبحانه الحديث عن البعث والنشور بعد تفنيد شبه المضللين المكذبين، والرد على المكابرين المنكرين، وإفحامهم بالبراهين الناصعة والأدلة القاطعة المستمدة من أنفسهم، ومما تتناوله كل يوم أبصارهم، وتناوله أيديهم من تجاربهم وأن روعة هذا الاختتام وقوة الصلة بينه وبين ما تقدمه، لغنية عن الإيضاح والبيان. إذ هو فى الواقع مكمل له، مركز لمعناه. فقد حددت فيه الصلة بين الخالق سبحانه والمخلوقات، وبين المكون جل جلاله والمكونات تحديدا فى منتهى الوضوح والظهور. يشمل ما تقدم وغيره، لا يخرج كائن مهما كان وضعه عن حكمه، وبين لنا فيه أن تلك الصلة فوق المألوف، ووراء المعروف وإن صنع الصانع الأكبر لمصنوعاته، وإبراز المكون جل جلاله لمكوناته ليس على الطراز الذائع المنتشر فيما بيننا، والمعروف بالتجربة والمشاهدة لنا. فالمصنوع يقتضى عادة من صانعه، والعمل أيا كان يقتضى من القائم به وقتا تتفاوت

كميته تبعا لتفاوت طبيعة العمل بساطة ودقة، وتفاهة وعظمة، وما إلى ذلك. كما أن القدرة الإنسانية كثيرا وكثيرا ما تقف عن بلوغ الهدف، ويقعدها العجز عن تحقيق المطلوب. أما قدرة الله سبحانه فإن الأمر بالنسبة إليها على خلاف ذلك كلية، الكل أمامها سواء، لا فرق بين كائن وكائن ولا وجود لاعتبار من الاعتبارات التي تتدخل وتتحكم في مصير ما نباشره من أعمال، وذلك ما عناه الحق سبحانه بقوله:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

أي: إنما شأنه سبحانه في إيجاد المخلوقات أن إرادته إذا ما توجهت إلى شيء وتعلقت بإبرازه أن يقول له: كن. فسرعان ما يكون ويأخذ مكانه بين الموجودات، مستكملا جميع أجزائه مستوفيا كل خصائصه التي اختصته بها الإرادة أزلا، يستوي في ذلك العظيم والحقير، والكبير والصغير. وما كان لكائن تعلقت إرادة الله تعالى بإبرازه في لحظة أن يستغرق أكثر منها، ولو كان في تقديرنا وإفنا يتطلب السنين الطوال.

وقد اختلف العلماء في تحديد معنى قوله سبحانه ﴿كُنْ﴾ هل هو محمول على المعنى الظاهر المتبادر، أم هو مصروف عن ظاهره منسحب عليه التأويل، فمنهم من حمّله على المعنى المتبادر، وذهب على أن هناك قولاً يصدر عن الحضرة القدسية العلية موجهاً إلى الكائن وهو لفظ كن. وهذه طريقة علماء السلف القاضية بتقبل ما ورد من النصوص كما ورد من غير تأويل مع الاستمساك بالتنزيه، وانتقاء التكييف، واعتقاد أن شئون الله من حيث حقيقتها وراء ما تصل إليه الأفهام، وتتخلله الأذهان. وذهبت طائفة إلى التأويل ونفت أن يكون هنالك قول أو لفظ، وحملوا الآية على أنها نوع من التمثيل أبرزت فيه المعاني في صورة المحسات تقريبا لها وتسهيلا لإدراكها، وشبه فيه تأثير قدرته سبحانه في مراده بأمر الأمر المطاع للمأمور المطيع

بجامع سرعة حصول المطلوب في كل من غير امتناع أو توقف على شيء. وعلى هذا الأخير يكون معنى قول (كن) تعلق إرادة الحق سبحانه بالموجود تعلقا تنجيزيا حادثا.

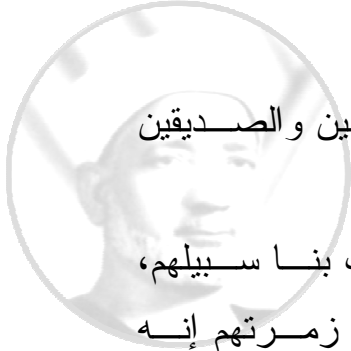
وكلا المذهبين في باب العقيدة مقبول ما دام التنزيه عمادهما ومحورهما، وما دام المكلف يخرج منهما بتقديس الله عز وجل عن مشابهة الحوادث في شيء من صفاته. هذا ولما كان موقف المكابرين المكذبين بالبعث والنشور يحمل بين طياته نسبة العجز إلى الله ومساوته لعباده في القدرة، وكان هذا الموقف يحمل من الغرابة ما يحمل لا سيما يعد إقامة البراهين القوية الدالة على بطلانه وزيفه، لا جرم عقب الحق سبحانه على ما ذكر من شأنه مع خلقه يقوله:

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدُورُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾

أعلن تنزيهه، وقرر تقديسه، وعلوه سبحانه عما يقول الجاهلون الجاحدون علوا كبيرا، مع الإيحاء إلينا ودعوتنا إلى إشربا قلوبنا عقيدة التنزيه والتقديس والتعظيم لذلك الإله الذي بيده مقاليد الأرض والسموات، عقيدة تدين بها قلوبنا، وتجهر بها ألسنتنا، مع الزرابة بأولئك الحمقى الذين ألغوا عقولهم خضوعا لأهوائهم، وإرضاء لشهواتهم. أما قوله سبحانه:

﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

فإنه وعد ووعد. وعد للمؤمنين، ووعد للكافرين. ووعد للكافرين المكذبين الذين عموا وصموا، بأن يفعلوا ما شاءوا ويذهبوا حيث أرادوا، فإن المرجع ولا بد إليه، وعندئذ يجدون ما وعدهم ربهم حقا، ويجزون بما قدمت أيديهم عذابا ومقتا. وهو وعد للمؤمنين الذين استجابوا لله وللرسول، وتهوين لما يلقون من شدائد الحياة، وعت الأعداء، وبشارة لهم بأن مرجعهم إلى مولاهم الذي قصدوا وجهه وأخلصوا النية له، وتحملوا المشاق في سبيله،



حيث يجدون الكرامة والنعيم، والرضاء العميم، مع النبيين والصدّيقين
والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

جعلنا الله تعالى منهم، ونهج بنا في الدنيا نهجهم وسلك بنا سبيلهم،
ومنحنا من التوفيق والسداد ما منحهم، وحشرنا يوم القيامة في زمرة من إنهم
سميع قريب، ولدعاء عباده مجيب.

والحمد لله أولا وآخرا، وبدء وختاما، ونسأله أن يجعل هذا العمل
خالصا لوجهه، وينفع به أكبر عدد من خلقه، ويحقق لنا المزيد من ثوابه
وأجره، صلى الله تعالى على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسلّينا كثيرا والحمد لله رب العالمين.

فهرس الكتاب

م	الموضوع	م	الموضوع
	فضل سورة الفاتحة		آيات الله في الليل والشمس والقمر ومنته في ذلك.
	الاستعاذة والبسمة		منة الله في السفن والماخرات
	مفردات الفاتحة		موقف مخزية لمشركي مكة
	الحمد لله رب العالمين		نفخة الصعق وأثرها
	مالك يوم الدين		نفخة البعث وأثرها
	إياك نعبد وإياك نستعين		نعيم أهل الجنة
	فضل آية الكرسي		عبادة الشيطان طاعته
	معنى الآية الكريمة		ما يتميز به وسواس الشيطان
	الشفاعة في الآخرة: متى تكون ولمن تكون.		الختم على الأفواه، وشهادة الأعضاء
	نظرات أجمالية في سورة (يس)		تنزيه الرسول ﷺ عن الشعر
	معنى يس		حكم الدين في الشعر والشعراء
	شهادة الله لنبيه وكتابه		الأنعام ومنة الله علينا فيها
	أحياء الموتى		وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه
	كتابة الأعمال والآثار		الخلق الأول دليل الخلق الثاني
	أصحاب القرية		النظر في الإنسان بوصفه دليلاً على الله
	ما يستفاد من القصة		منة الله علينا في خلق النار
	آيات الله في إحياء الأرض وإثباتها ومنته في ذلك.		



فضيلة الشيخ/ محمد سليمان سليمان

الشيخ أبو الطيب. الشيخ محمد سليمان سليمان هو: شيخ التقى والعلم والحجا إمام الهداة العالمين.. وتاج العارفين. العارف بالله المحمود في كل أمره الداعي إلى الله على بصيرة العالم الجليل.

فضيلة الشيخ/ محمد سليمان سليمان "أبو الطيب" .. مالكي المذهب.

مولده ونشأته: ولد بالقاهرة في ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٢م، في أسرة



مباركة كريم طيبة.. حفظ القرآن في سن مبكرة.. ألتحق بالأزهر الشريف سنة ١٩١٥م. تخرج من قسم الوعظ والإرشاد سنة ١٩٣١، عمل بالوعظ والإرشاد والدعوة إلى الله طوال حياته.

من بليغ قوله: الصدق شيمة الأنبياء والمرسلين وحلية الحكماء وخصلة العلماء وزينة الأدباء، والكذب خصلة اللؤماء وصفة الجهلاء وديدن الغافلين.

- صحبة الأخيار تدفع الإنسان إلى الخير والكمال وتحبب الفضيلة إلى نفسه.

- وفاته: نقل الشيخ إلى في آخريات أيامه للعمل واعظاً عاماً في القاهرة، فظل يكافح ويجاهد إلى أن مرض ووافاه قدر الله المحتوم وهو في الصلاة ساجداً للحي القيوم.

- مكث سيدي أبو الطيب في سوهاج واعظاً مدة (١٥) سنة توافد عليه الراغبون في طريق الله فانتشر الطريق في مراكز وقرى محافظة سوهاج، وبدأ الشيخ رحمه الله يعد الروضات في القرى والمدن.

- بعد صلاة العشاء من يوم الأربعاء الموافق ٢ محرم ١٣٧٩هـ -
الموافق ٩ يوليو سنة ١٩٥٩م، فصعدت روحه إلى بارئها وهو
يصلي ركعات بعد صلاة العشاء.

- تراثه العلمي: وقام أحد تلاميذه هو الشيخ سعد الفرشوطي (من
علماء الأزهر الشريف) بجمع بعض تراث الشيخ في مؤلفات منها:
الفتاوي والأحكام - الإسراء والمعراج - الخطب المنبرية - الدين
والأسرة الإسلامية - الإسلام والمسلمون - المعجزات ومكانتها من
الرسول - الخلق العظيم - وله الكتاب المطبوع سماه إتحاف
المؤمنين بتفسير سورة الفاتحة وآية الكرسي وسورة يس.

مَوْقِعُ الطَّرِيقَةِ الدُّوْمِيَّةِ الْخُلُوتِيَّةِ